

AMERICAN LIBRARY

AMERICAN  
UNIVERSITY OF  
BEIRUT



KULIAH LIBRARY

Handwritten musical notation on a yellowed strip of paper, including a staff with notes and a circled number '3'.

Handwritten musical notation on a yellowed strip of paper, including a staff with notes and a circled number '3'.

Handwritten musical notation on a yellowed strip of paper, including a staff with notes and a circled number '3'.

Handwritten musical notation on a yellowed strip of paper, including a staff with notes and a circled number '3'.

962  
B987A  
V. 3

# كِتَابٌ

تاريخ

## الامة القبطية

( وكنيستها )

﴿ تأليف السيدة ا . ل . بشر الانكليزية ﴾

( المجلد الثالث )

من المجلد الواحد عشرة غروش صاغ  
« طبع على نفقة صاحب جريدة مصر »  
حقوق الطبع محفوظة

( مطبعة مصر بالقاهرة سنة ١٩٠٦ فرنكية )

# الفصل الخامس والاربعون

## فتح الفاطميين لمصر

سنة ٩٦٤ للمسيح و٦٨٠ للشهداء و٣٠٥ للهجرة

وصل بنا الحديث في الاجزاء الماضية من هذا الكتاب الى ذكر  
 حكم الاخشيد الثاني على مصر . ولما توفي هذا الاخشيد سنة ٩٦٤ و٩٦٥  
 (٣٥٥ للهجرة) اخلفه الكافور وحكم باسمه في الحال ولكنه لما مات  
 بعد حكمه بسنتين بليت مصر في خلافتها بالمجاعة والوباء اخلفه في الحكم  
 الابن الحادي عشر من احفاد الاخشيد وهذا الاخير سولت له نفسه  
 ان يقدم مصر هدية مجانية وغنيمة باردة لجماعة العرب الفاطميين  
 ومحرير الخبر ان خليفة الفاطميين المعز لدين الله دعا قائده الرومي  
 ( جوهر ) الذي كان مملوكا له وتربى على الدين الاسلامي (وقد رقاها الى  
 هذه الدرجة لما توسمه فيه من البسالة والاقدام وعلو الهمة) فاعزز اليه  
 ان يجند جيشا ويقوده بنفسه لفتح البلاد المصرية وقد تم ذلك فعلا  
 وسار جوهر اليها بجيشه الجرار حيث فتح القسطنطينية (مصر القديمة) سنة  
 ٩٦٨ - ٩٦٩ للمسيح الموافقة ٣٥٨ هجرية . وقد استقبله الاقباط والأتراك  
 والعرب بكل حفاوة واطهروا له الخضوع التام  
 ولا عجب اذا كان دخول الفاطميين الى مصر على مثل هذه السهولة  
 وعدم المقاومة لان العنصر المسيحي في البلاد كان يميل وقتئذ بكل جوارحه

الى تغيير الحكام من وقت الى آخر تخلصا من ظلم حكامه السابقين واما  
العرب والترك فالسبب في عدم مقاومتهم للفاطميين فهو لانهم كانوا قد  
سثموا من حكم الحاكمين السوداني واليهودي اللذان كانا وقتئذ هما الآلة  
العاملة في شخص الكافور والحركة له . ولم يبق بعدئذ امام الفاطميين  
في ذلك الوقت الا فتح مملكة النوبة ومد فتوحاتهم في مصر من جهة  
الجنوب لان سلطان النوبة لم يكن قد اعترف بعد بسيادة الحاكم الجديد  
الذي كان في اعتقاده معتصبا على ان القائد جوهر كان يدرك ما وراء ذلك من  
الصعوبات والعقبات وان فتح بلاد النوبة ليس من الهنات المهينات  
فكتب كتابا سياسيا الى الملك ( جرجس ) سلطان النوبة رقيق العبارة  
يظهر له فيه عاقبة عصيانه وعدم خضوعه ويحسن له اعتناق الدين الاسلامي  
ودفع ضريبة الرقيق المتأخرة عليه بصفة جزية لحاكم مصر الجديد . وقد  
ارسل اليه هذا الكتاب على يد ثلاثة من السفراء يرأسهم رجل يدعى  
عبد الله احمد بن سليم من اهالي اصوان وقد وضع هذا الاخير كتابا  
ضمنه سرد اخبار رحلته هذه وما تم فيها وقد تضمن شيئا كثيرا من الحقائق  
التاريخية المهمة ولما كانت هذه الحقائق تهم كل من يريد الوقوف على حالة الممالك  
المسيحية في ذلك العصر فنحن نقتطف منه هنا بعض الشيء نقلا عن  
ترجمة فرنساوية للسيو كزيمير المؤرخ المعروف :

بعد ان افاض سليم الكلام واسهب البحث في وصف التوات  
الاسلاميه في حدود مصر الجنوبية تكلم عن الاقليم الكائن ما بين الشلال

الثاني والحصن القائم على مسافة ستة اميال جنوبي اصوان . فقال ان  
 هذا الاقليم تحت سلطة نائب ملك النوبة او سلطانها وكان يسمح للمسلمين  
 ان يقيموا فيه وقد اطلقت لهم حرية التجارة به . قال وانه لم يكن يوجد  
 فردين هوؤلاء المسلمين الذين عاشوا مدة طويلة مع المسيحيين يستطيع ان يتكلم  
 اللغة العربية جيدا . وكان هذا الاقليم من الاقطار التي تروي اراضيها  
 بالراحة وكانت تحيط به الكروم

على ان هذا الاقليم وان كان قد تحمل كثيرا من غزوات العرب  
 المتوالية على مصر وتفشي تجارة الرقيق به الا انه مع هذا كله كان معتبرا  
 امام هذا الكاتب انه اقليم سلام وخير كثير ولا يمكن احد من المسلمين  
 او غيرهم ان يتجاوز حدود هذا الاقليم الجنوبية الا بامر من نائب ملك  
 النوبة والا كان عقابه الموت لا محالة

والمرحلة الثانية السكائنة جنوبي هذا الاقليم عبارة عن حصن طبيعي  
 مكون من صخور هائلة ورائها صحراء شاسعة وطرق وعرة يصعب على  
 الانسان ان يطاها بقدمه ومن هذه الجهة يستخرج النوبيون الاحجار  
 الكريمة التي يصنعون منها الخلي والجواهر .

وقد اثني احمد بن سليم كثيرا على هاتين المملكتين المسيحيتين  
 المعروفتين باسم ( مقورة وألوه ) السكائنتين في ابتداء الشلال الثالث الى  
 مايليه جنوبا وقد دعي ملك النوبة بملك مقورة نسبة لاسم النصف الجنوبي  
 من مملكته التي عاصمتها ( دنقلا ) وهي تبعد خمسة عشر يوما عن اصوان .



وقد شهد هذا الرحالة انه كل ما توغل الانسان في هذه البلاد يري الارض  
اكثر خصباً والامن اعظم انتشاراً

ومما يحسن ذكره ويراوده هنا أيضاً ما قاله سليم في هذا الصدد من انه  
بعد سفر يومين في داخلية النوبة يمر الانسان على ثلاثين بلد تقريباً فيها  
الابنية الفخيمة والقصور الجميلة والكنائس الكبيرة والاديرة العظيمة  
والحدائق الغناء والرياض الفيحاء والحقول البديعة ترى فيها الابل والمسافة  
من دنقلة الى حدود ( الوه ) اطول كثيراً من حدود اصوان

وفي هذا الاقليم عدة طرق توصل الى سواكن ومصوع وطرق  
اخرى على شواطئ البحر الاحمر وفي هذه النقطة نفسها ينقسم النيل الى  
نهرين الالبيض والازرق وهما يأتیان من بحيرات عظيمة في بلاد السود  
ولكنه لم يذكر شيئاً عن تاريخ تلك البحيرات بل قال انه عند نقطة تفرع  
النيل الى نهرين توجد بلدة تدعي ( صويح ) وهي عاصمة مملكة ( الوه )  
وقد بنيت على انقاضها المدينة المعروفة الان في التاريخ الحديث باسم  
الخرطوم كما سيجيء وقد كانت مدينة صويح هذه التي هي الان مدينة  
الخرطوم من المدن العظيمة المزدانة بالقصور الشاهقة والمباني الفخيمة  
والحدائق الغناء والكنائس الغنية بتحفها ومقتنياتها الذهبية وكان ربع هذه  
المدينة يأوى اليه المسلمون . وكان ملك الوه هذه التي كانت صويح  
( الخرطوم ) عاصمة ملكه أشد بأساً واعظم جيشاً من ملك مقروه فضلاً  
عن أن الوه هذه كانت اكثر اتساعاً واخصب ارضاً من نقطة مقروه

ولكن مع هذا كله فان الاول كان اقل من الثاني في وفرة النخيل والكروم  
واشار بن سليم بعد ذلك في عرض كلامه الى معمل البيرة ورخص  
اللحوم في تلك البقعة الطيبة وجودة الخيل والابل وذكر ان كل المسيحيين  
فيها كانوا تابعين لبطريرك البلاد المصرية كاساقفة الحبشة وكتبهم الدينية  
كانت مكتوبة باللغة اليونانية ولكنهم ترجموها الى لغتهم وكانت حكومتها  
مطلقة كما كان حال باقي الممالك الشرقية في ذلك العصر فكل ما يأمر به  
الملك كان لا بد من تنفيذه اخطأ او اصاب وكان الملك يلبس عادة تاجاً  
كله من الذهب الخالص لان هذا المعدن كان كثير الوجود في بلادهم  
وقد كان الاعتقاد بوجود الجن والنفاريت والارواح النجسة من  
الاعتقادات الكثيرة الا تشار في البلاد السودانية حتى انهم كانوا ياكلون  
هذه النفاريت والارواح في اعمالهم الزراعية وذكر هذا الرحالة الذي  
نحن بصددده انه كان من عاداتهم ان يذهب الاهالي الى الحقول ويعينون  
النقط المراد وضع البذار فيها ثم يبدرون بعض التقاوي في زواياها الاربع  
ويكومون ما بقي من البذور في مكان واحد وسط هذه الزوايا ويضعون  
بجانبيها كأساً مملوءاً من الخمر (البيرة) حتى اذا عادوا اليها في الصباح  
يجدون كوم البذور قد بذر في الارض وكأس الخمر قد شرب كله وكذلك  
كانوا يفعلون في الحصاد فيحصدون بعض سنابل القمح ويضعون  
بجانبيها كأساً من الخمر ويتركونها الى الصباح فيجدون الكأس قد شرب  
والقمح محصوداً ومدروساً ولكنهم اذا سهب عليهم ان يستأصلوا بعض

جذور الجبوب وتركوها في الارض اثناء الحصاد تؤخذ هذه الجذور  
 بحبوبها ولا يجدون لها أثرا بالمرّة في اليوم الثاني وهم يزعمون ان كل ذلك  
 من افعال الجن لان بعض الناس لهم تأثير كبير عليهم فيسخرونهم في هذه  
 الاعمال وهم يرضخون لهم ولا يعصون امرهم ( ١ )  
 وقد شاهد ابن سليم في بلاد قاصية ( بألوه ) قوما ليسوا من  
 المسلمين ولا المسيحيين واغلبهم يعتقدون بوجود آله ولكنهم يؤطون  
 الشمس والقمر والنجوم وبعضهم النار والبعض الآخر يعبدون بعض  
 الاشجار والحيوانات . قال وانه بينما كان جالسا في حضرة الملك سأل  
 بعضهم عن بلاده فقال انها تبعد عن هنا مدة سفر ثلاثة اشهر ولما سأله  
 عن معتقده اجاب انه لا يرجد الا اله واحد وهو الهى واله الملك واله  
 كل المخلوقات والكائنات وقال ان هذا الاله يسكن السماء وعندما تدام  
 بلادهم مصيبة من المصائب كالوباء أو موت الماشية فكل الاهالي هناك  
 يصعدون الى الجبل ويصلون لله بكل ورع وخشوع فيجيب الاله صلاتهم  
 ويرفع عن بلادهم هذه البلايا والرزايا فسأله اذا كان يعتقد بوجود  
 نبي أو رسول فاجاب على ذلك سلبا . ولما قص عليه شيئا عن أعمال انبيائه  
 الثلاث موسى وعيسى ومحمد ومعجزاتهم الباهرة اجاب اذا كانت هذه  
 الروايات صادقة وصحيحة فان هؤلاء الانبياء الثلاث يستحقون الاجلال

(١) يرى المسيو كزيمير المورخ ان لا محمل لتصديق هذه الخرافات والمحتمل

ان هذه الاعمال باتيها القروذ ليلا ويختفون نهارا في هذه الغابات .

ويحق ان تؤمن بهم ولو كنت رأيت ما أتاه هؤلاء الانبياء لصرت من  
أول المؤمنين بهم اه

على ان الرحالة بن سليم هذا الذي مر بنا ذكره لم ينجح هو ومن  
معه في مهمتهم ومأموريتهم لان ما جاء في كتاب القائد جوهر لم  
يصادف استحسانا أو قبولا لدى حكومة القسم الجنوبي ولم يؤثر ارسال  
هذا الوفد شيئا في حكومة ( دنقلا ) ولو أن أعضاءه قوبلوا بكل حفاوة  
واكرام من رجال الحكومتين وبيان ذلك انه لما تمثل اعضاء هذا الوفد  
الاسلامي بين يدي ملك النوبة وسلمه الرئيس كتاب القائد جوهر امر  
الملك بمقدم مؤتمر من الاساقفة وعملاء الامة وابعاح لعضائه حرية البحث  
والمناقشة في امر هذا الكتاب واشتغل هو بكتابة الرد عليه ثم تلاه على  
الحاضرين وهذا ما جاء فيه : ( بعد السلام والتحيات الخ . اننا ندعوكم  
لاعتناق الدين المسيحي وان اجدادي كانوا على الدوام يعاملون  
المسلمين الفاتحين للبلاد المصرية بكل اخلاص ومسالمة واني كنت اتأهب  
لعقد معاهدة مهمة معكم ) وختم كتابه ببعض عبارات التودد الرقيقة  
ولكنه لم يذكر فيه شيئا بالمرّة عن جزية الرقيق التي أشار اليها القائد  
جوهر في كتابه

فلما علم بن سليم رئيس الوفد المصري مضمون هذا الكتاب اعترض  
عليه وناقش الملك كثيرا في هذا الموضوع ثم كتب اليه رسميا يقول  
( سيدي الملك . اذا كنتم تظنون ان وقوفكم امام القوات الاسلامية

ليس بالامر العسير عليكم ( وهنا عدد له الغزوات والفتوحات العظيمة  
التي قام بها المسلمون بعد الدعوة النبوية ) فلا بد ان أعود ومن معي  
الى مصر ثانياً نحمل كتابكم هذا للقائد جوهر حاكم مصر الآن وسأبذل  
كل ما في وسعي لا قنعه بعدم التصميم على فتح السودان والاغارة على  
بلادكم الآن

وبينما كان بن سليم ومن معه مقيمين في تلك البلاد حل عيد الاضحى  
فدعا رئيس الوفد المذكور جماعة المسامين المقيمين في المدينة وعدادهم  
لا يزيد عن ستين نسمة فاقاموا الاحتفالات والمهرجانات احتفالاً بتقدم  
هذا العيد وقد الفوا موكباً دينياً سار في المدينة بكل خشوع بين عزف  
الطبول واصوات الابواق وقد حاول بعض المقربين الى الملك منع هذه  
المظاهرات الدينية فانتهرهم الملك وزجرهم على هذا التعصب القبيح ثم سافر  
الوفد الى مصر بعد عيد الاضحى وهم في غاية الارتياح والانشراح مما  
لاقوه في تلك البلاد وهذا غاية ما عرف عن الملك جرجس سلطان  
النوبة من حسن المعاملة وحرية التفكير وبمدئد عاشت الممالك المسيحية  
هناك في امن وسلام باقي هذا الجيل



## الفصل السادس والاربعون

✽ بناء القاهرة ✽

سنة ٩٧١ للمسيح و٦٨٧ للشهداء

٣٦١ للهجرة

استمر حكم الفاطميين في مصر نحو مائة سنة رأى في اوائلها المصريون  
التعساء الحظ من الاقباط الذين كان عددهم وقتئذ قليلا بالنسبة للامة  
الاسلامية كل راحة وحسن معاملة كما تعودوا ذلك عند تغيير كل  
حاكم جديد

ويبان ذلك ان القائد جوهر لما فتح البلاد وحكمها باسم سيده اخليفة  
المعز مدة ثلاث شوات سعى في خلالها في تخفيف الضرائب ووضع  
المنظمات السكافة لانتظام الاعمال واستتباب الامن ثم أمر بتطهير الترع  
المهملة فتحسنت بذلك حالة الري وتمهدت الطرق لزوال المجاعة التي كانت  
متفشية بمصر في ذلك الوقت واتفق انه في سنة ١٧١ مسيحية و٣٦١ هجرية  
أي في السنة الاولى من فتحه لمصر زاد الفيضان كثيرا وفاض النيل  
فيضاناً عظيماً فاعتبر المصريون ذلك فالأحسن وعلامة رضى وارتياح عن  
الدولة الحاكمة الجديدة

وكان يوجد وقتئذ على الشاطيء الشرقي من النيل ثلاث مدن ملتصقة ببعضها  
التصاقاً طبيعياً وفي جنوبها مدينة بابل التي كان يسكنها كل المصريين الذين

اعتنقوا الدين المسيحي ولم يكن لهم معاملة مع المسلمين الا ما كان يتعلق  
 بالمجاملة الادبية ليس الا . وقد بنوا الحصن الروماني المعروف بقصر الشمع  
 ورمموه وجعلوه حصنهم الوحيد ثم بنوا كنيستهم الكبرى وهي المعروفة  
 بدير ماري جرجس الآن على ابراج ذلك الحصن وطوايبه وباجلثة فان  
 مدينة بابل كانت اقدم مدن مصر واقلها اعتبارا في نظم المسلمين وقتئذ  
 الا انها كانت في الحقيقة لم تزل عاصمة مصر الوحيدة في اعتبار العالم  
 الغربي وتليها في الاهمية مدينة القسطنطينية العربية التي بنيت بامر عمرو بن  
 العاص الفاتح العظيم وفي الشمال الشرقي من القسطنطينية توجد المدينة التركية  
 التي بناها احمد بن طولون وهي بعيدة عن النيل واقرب لسفح المنظم  
 من تينك المدينتين

وكانت هذه المدينة في ذلك الوقت اشبه شيء بالقشلاقات الكبيرة  
 ولذا كان يطلق عليها المصريون اسم ( مصر عسكر ) ( ١ ) اي مدينة  
 العساكر واسم مصر الاصلي هو نسبة لمصر ايم من نسل نوح لانه هو  
 اول من جاء بعد الطوفان واستوطنها ولكن في عهد الفاطميين كان هذا  
 يطلق فقط على المدينتين المسلمتين وهما القسطنطينية والمدينة التي ابنتها  
 ابن طولون .

وقد كان الخليفة المعز لما ودع قائده جوهر عند قيامه مع جيشه

( ١ ) مدينة مصر عسكر هي المدينة التي دعاها المصريون بعدئذ مصر القديمة  
 وكثيرا ما يخطئ ادلاء الطرق فيفهمون لسواح ان محل القسطنطينية او بابل هو مصر القديمة

لفتح البلاد المصرية التفت الى جماعة المشائخ الذين كانوا يرافقون الحملة  
وتكلم متنبئاً عن ما سيتم في مصر بعد هذا الفتح فقال مخاطباً جوهر :

انك اذا سرت وحدك ستقهر مصر يا جوهر وتدخل القسطنطينية  
بملايسك الاعتيادية دون ان تحتاج الى اثاره حرب مع سكانها وستسكن  
في قصر اولاد طولون ولكنك ستشيء بعد ذلك مدينة اخرى تسميها  
القاهرة ( اي المنتصرة ) وهي التي سيخضع لها العالم كله .

فلما استقر جوهر المقام في مصر ورأى ان نبوة الخليفة قد تمت  
بدخوله القسطنطينية وقصر بن طولون بلا حرب ولا قتال وازاهلها سلموا  
له البلاد في الحال ونادى المنادي بذلك ثم بايعه الاهالي تحت عزف الموسيقى  
واصوات التهليل اراد ان يتم نبوة الخليفة ببناء مدينة القاهرة فجعل اساسها  
في الجزء المركزي الحالي من المدينة وهي البقعة التي اناخ فيها جماله يوم  
جاء لفتح القسطنطينية ويوجد في هذه البقعة الان جامع الازهر الشريف  
وبيت القاضي وخان الخليلي وكان ابتداء تأسيس هذه المدينة الجديدة في  
سنة ٩٧٠ مسيحية و ٣٥٩ هجرية وقد جعل مصر العسكر داخله في نطاق  
السور الاصيل لهذه المدينة

وقد اقام القائد جوهر احتفالاً عظيماً لمناسبة وضع اساس هذه المدينة  
ثم اعد ادوات البناء وجمع العماله اللازمين للعمل ووقف الجسم المحتشد  
ينتظر الامر بالبناء من الفلكيين الذين سبق انهم راقبوا نجوم النصر في  
الفتح اولا ولما حانت الساعة المعينة صدر الامر بالشروع في العمل فهتف



جميع الفعلة والعمال وشرعوا في العمل جميعاً في وقت واحد .  
وقد استمر البناء في هذه المدينة نحو سنتين من الزمان بكل هممة  
وبعدئذ امكن الخليفة المزمع لدين الله ان يأتي اليها ويرورها زيارة المالك  
لاحدى ولاياته

ولما قدم الخليفة الى مصر لم يأت اليها من طريق القيروان مباشرة  
بل انه قضى عدة اشهر متجولاً في جزيرتي سيليا وسردنيا على البحر  
الايض المتوسط اللتان كانتا من املاكه اولا وتوجه منهما الى طرابلس  
ومنها الى الاسكندرية حيث وصل الى القاهرة سنة ٣٦٢ للهجرة وقد  
جلب اليها شيئاً كثيراً من الهدايا من الممالك والبلاد التي فتحها وجعلها  
عاصمة مملكته وفي مكان القصر الذي نزل به في مصر بيت القاضي بجوار  
شارع النحاسين ثم أصدر أمره بنقل جثث اجداده في قبر اتخذهم في  
معمل خان الخليلي الآن

ثم رأى الخليفة وقائده جوهر ان المدينة الجديدة تحتاج الى مسجد  
عظيم يفوق مسجدي عمر وابن طولون في المدينتين القديمتين فامر ببناء  
الجامع الازهر وكان ذلك في نفس السنة التي قدم فيها الى مصر  
ولما كان هذا الخليفة ليس على شيء من الاوهام والوساوس الدينية  
مثل خلفه ابن طولون فقد اتخذ اغلب اعمدة هذا المسجد من الكنائس  
المسيحية ولذلك تجد شكل هذه الاعمدة التي تشبه اشجار الغابات ليست  
على شيء من التناسب فيما بينها كما يتضح للناظر اليها لذي اول وهلة .

ومن ثم ذاعت شهرة هذا الجامع الازهر بما بذله القائد جوهر من  
 الهمة واقناعه للخليفة المعز بوجوب تنظيمه وتوسيع نطاقه بما له من التأثير  
 والنفوذ على الخليفة واصبح بعدئذ هذا المسجد مدرسة عظيمة وانشئت  
 به أيضاً مكتبة ثمينة واحضر اليه جماعة من خيرة الاساتذة والعلماء لالقاء  
 الدروس في اللغة العربية والنظم واللاهوت ( والفقه ) والشرع والطب  
 والفلك والرياضيات والتاريخ واما التلامذة من جميع الاقطار الشرقية  
 للاستفادة منه والانتفاع بنفحاته وثمراته الشهية ولم يزل هذا الجامع الى  
 الآن يعد الكلية الاسلامية الجامعة الوحيدة في العالم الاسلامي وقد كان  
 لهذه المدرسة الكبرى باديء ذي بدىء الفضل الاكبر في نشر كثير  
 من العلوم المصرية القديمة التي نقلها النوريون الى بلادهم ثم انقلب الدهر  
 وتغيرت الاحوال فعاد النوريون يعلمون تلك العلوم القديمة لجماعة المسلمين  
 وفي سنة ٩٧٥ مسيحية توفى الى رحمة الله الخليفة المعز وفي هذه  
 السنة نفسها تنيح بطريرك الاقباط وبويع بالخلافة ابن المعز ابو منصور  
 العزيز وكان معروفا باسم العزيز

وقد كانت احدى زوجات العزيز مصرية مسيحية تابعة للكنيسة  
 اليونانية وقد كان لهذه الزوجة تأثير عظيم على العزيز حتى انها تمكنت  
 من تولية اخويها ارسنيوس وجرمباح بطاركة على الاسكندرية واورشليم  
 للكنيسة اليونانية وفي غضون هذه المدة وقعت الكنيسة القبطية في اضطهاد  
 عظيم من العزيز ولكنها فضلت تحمل هذه الاضطهادات دون الرضى

بتداخله في شوؤنها ولم تعترض الكنيسة اليونانية على ذلك مع ما بينها وبين الكنيسة القبطية من الصلات القوية والروابط العظيمة وما ذلك الا مجاملة لزوجة العزيز اليونانية ولما تنيح حنا الثاني بطريرك الاقباط عقد الاساقفة وقسوس الاسكندرية مجلساً اكليريكا بالقدس في كنيسة القديس سرجيوس والقديس بكشومي في بابليون (١) لينتخبوا لهم بطريركا جديداً وبينما هم مجتمعون لهذا الغرض دخل عليهم أحد التجار السوريين الذي كان مشهوراً بالآداب ومكارم الاخلاق ويدعى افرام وكانوا لم يزالوا يتناقشون ويتداولون في من يرشحونه لمركز البطريركية فلما وقع نظرهم عليه حيوه جميعاً في الحال ونادوا به الرجل المنتخب لهذا المنصب الرفيع وقد كان هذا البطريرك انسوري متزوجاً من قبل أيام كان علمانياً ولكنهم غضوا الطرف عن ذلك لما له من المنزلة والمكانة في جميع الافئدة والقلوب ومن ثم استلم افرام المذكور زمام الكرازة المرقسية ولبث بها اكثر من ثلاث سنوات الغنى في خلالها مسألة (السيمونية) وهي بيع الرتب الكهنوتية والمناصب الكنائسية بالمال وجعل رسامة القسوس وتقليد الوظائف الدينية والتدشين والتكريس من اعماله الخصوصية وله على ذلك شيئاً معلوماً من الشعب ولم تزل آثار هذه العادة باقية الى الآن. ومن اعظم اصلاحاته التي قام بها ايضاً اشتغاله بحرارة وغيره حقيقية في احياء الفضائل

(١) هي الكنيسة التي يزورها السواح عادة وتحتها كنيسة تدعى كنيسة

(سنى مريم) وهي مبنية تحت الارض

الدينية ومحاربة الافات والشروور التي كانت قد تفشت بين الاقباط بسبب  
 اختلاطهم بالعناصر والطوائف الاخرى وعلى الاخص تهاقهم على تعدد  
 السراري في بيوتهم بدون عقد شرعي مما ينافي روح الدين المسيحي  
 وخصوصا جماعة الموظفين في الحكومة فتداخل البطريرك افرام بنفسه  
 في اصلاح هذا الحال مما افضى الى سقوطه شهيدا بسبب هذا الميل  
 الشريف كما سيجيء. ذلك انه كان يوجد في هذا الوقت رجل يدعى ابو  
 السرور وهو من الحاصلين على المناصب العالية في الحكومة وكانت لديه  
 عدة سراري وحظيات فاعترض عليه البطريرك في ذلك وعنفه كثيرا  
 ولما لم يرتدع اصدر عليه جرما من الكنيسة فما كان من هذا الغشوم الا  
 ان تسبب في تسميم البطريرك الذي راح شهيدا هذه الغيرة الدينية الشريفة  
 وقد كان البطريرك افرام الموما اليه على حدائه مدة توليته محبوباً من  
 خليفة المسلمين كثيرا وقد اقترح عليه الخليفة ان يطلب ما شاء منه فيجيبه  
 الى طلبه فطالب اليه البطريرك ان يعيد له موضع كنيسة القديس  
 ماركوريوس (١) التي تخربت واستولى عليها المسلمون مدة الاضطهاد  
 السابق فأمر الخليفة المعز ان تعطى له هذه الكنيسة في الحال فاستلمها  
 واعاد بنائها وقد كتب ابو صالح الكاتب المعروف عن هذه الكنيسة  
 ما يأتي:

لما شرع البطريك في اعادة بناء الكنيسة هاج عليه رعايا المسلمين  
 واعترضوه بدعوى انها تخربت من زمن طويل ولم يبق منها سوى بعض  
 جدران آتله للسقوط قد جعلها المسلمون مخازن لقصب السكر فصدر امر الخليفة  
 المعز بان تبني الكنيسة وتعطى ثقتات بنائها من خزينة الحكومة بغير قيد  
 فأخذ البطريك القرار ولم يعمل به بل رد الدراهم الى خزينة الحكومة  
 واعتذر للوالي عن قبولها قائلاً ان الله الذي يستحق كل شكر والذي اظهر لنا قوته  
 العظيمة قادر ان يساعدنا على اعادة بناء بيت عبادته وهو غير محتاج الى  
 مال هذا العالم. ورجاه ان يقبل منه المال ثانية ولا يجبره على قبوله فرضي  
 الخليفة بذلك. وبعد ذلك بمدة شرع البطريك في العمل فاعترضه زعانف  
 المسلمين وحنقوا عليه واوقفوا بهياجهم البناء فما الامر الى الامين العزيز  
 بالله فارسل كتيبة من الجند والمماليك لاختاد الهياج وحراسة البناء فلما  
 وصلت وعلم المعترضون بذلك كفوا عن التعرض وشرع في عمله بكل طمانينة  
 قال ابو صالح ان ابناء الكنيسة القبطية قدموا مبلغاً عظيماً من المال  
 لقبطة البطريك افرام بصفة مقدمة شكر لقبيلها شاكرًا وصرفها في عمارة  
 الكنيسة وبذلك تم لقبطته ما كان يؤمله من مساعدة الرب له. وكان ذلك في عهد  
 ساويرس المؤرخ الشهير اسقف الاشمونين صاحب المؤلفات الكثيرة التي  
 لم يطبع شيء منها وهذا الاسقف له حوادث واخبار نسقها بعد مماته الاسقف  
 مخائيل الذي كان اسقفاً لمدينة صان (بمديوية الشرقية) وغيره من الكتبة  
 الاقباط وفي ظني انه يوجد منها نسخة كاملة الآن ولو كان كثير منها

موجود في اللاتينية تأليف المؤرخ دنودوت . ولم يرسم ساويرس اسقفاً الا في عهد رئاسة البطريك افرام التصيرة وخلفه على كرسي البطريك فيلوثاؤوس الراهب من دير القديس مر كوريوس (كنيسة ابو سيفين الان) الذي سار على خطة البطريك افرام سلفه (١)

وفي عهد البطريك فيلوثاؤوس اعتنق بعض المسلمين الديانة المسيحية . ذكر نيل المؤرخ ان رجلا من مشيري الخليفة المعز اعتنق الديانة المسيحية وقد تعب في تربية ابنه المدعو واصا تعباً كبيراً لمضادته للديانة المسيحية وقد حفظ واصا هذا القرآن في صغره وكان على جانب عظيم من الكره للمسيحيين فاتفق له انه بينما كان مجتازاً بالصحراء رأى جمعا مزدحما حول رجل يساق كجرم فسأل المارة عنه فقيل له انه مسلم تنصر وهو يساق ليحرق جزاء جحوده فعمد الى ذلك الجمع وفرقهم عنه ووصل اليه واخذ يعنفه على قبيح عمله ويبين له غلظه في اتباع دين الثلاثة الهة فقال له ذلك السجين انما لم اتبع الا دين اله واحد في ثلاثة اقايم وسيأتي يوم يتضح لك فيه هذا الحق فتجاهد متألماً لاجله مثلي . فاستشاط واصا من ذلك القول غضباً ورفسه وضربه بكل قوته فاحتمل ذلك الشهيد كل تلك الاهدانات بصبر غريب وتبعه واصا الى مكان الاستشهاد فهاله ما رأى من صبره واثار

(١) اتفق نيل ورنودوت المورخان على الصاق بعض الذنوب بفيلوثاؤوس واكن بفحص تلك التهم بالتدقيق لم ير عليه شي غير القول بانه كان مجابلاً لكل الفاخرة قليل الاعتناء بتقديم الكنيسة و يدخل الى الحمام مرتين في اليوم

ذلك المشهد عليه حتى لم يعد قادراً على صرف تلك الافكار من ذهنه  
 فعزم ان يطردها بذهابها الى الحج فسافر الى مكة وفيما هو في الطريق حلم  
 ان راهباً كبير السن ناداه قائلاً ان كنت تريد ان تعرف قيمة خلاص نفسك  
 فتم واتبعني وحصل ذلك على ثلاث دفعات فقص حلمه على رفاقه فقالوا  
 له انه من قبيل التخيلات الشيطانية . وادى واصا فريضة الحج وعاد وقبل  
 وصوله الى القاهرة افترق عن رفاقه فضل عن الطريق ودخل عليه الليل  
 فصار يرجف خوفاً من الوحوش الضارية التي يكثر وجودها في الصحراء  
 وفيما هو كذلك اذا بنارس اقبل عليه وقال له ماذا تعمل هنا يا واصا  
 فاخبره بما كان من امره فاشار عليه ان يتبعه ليقوده الى مكان امين فما  
 صدق ان سمع ذلك حتى تبعه فأتى به الى دير كائن بين القسطنطين وبابلليون  
 وتركه هنالك فعلم واصا ان ذلك المكان لا بد ان يكون كنيسة  
 مسيحية (١)

ولما كان الفجر قام خادم الكنيسة لاعدادها للصلاة فرأى واصا  
 محتبباً عند جدرانها فانزعج اذ حسبه لصاً ولكنه لما سمع كلامه ورأى  
 ان مقتنيات الكنيسة سالمة ظنه مجنوناً غير انه لما هدأت افكاره سأله  
 واصا عن اسم الكنيسة فاجابه بانها كنيسة القديس مركوريوس وراه  
 ايقوته واخبره بخبره في جهاده وايمانه ففارس واصا فيها فرأها تشبه

(١) وهي نفس الكنيسة التي جددها البطريرك افرام وهي باقية الى هذا اليوم  
 وتعرف بكنيسة ابي سيفين طموه بقرب القاهرة ومنظرها جميل للغاية .

صورة الفارس الذي لقيه ليلاً وانقذه من الخطر فحينئذ عزم على اعتناق  
الديانة المسيحية واخبر الفندلقت بذلك ولكن الفندلقت لم يكن في  
استعداد لسماع قصته فالح عليه بالانسحاب من الكنيسة قبل ابتداء  
الصلوة وان يختفي الى حين ووعدته ان يرسل اليه الكاهن وفعلاً خبأه في  
مكان وعاد فاعد الكنيسة للصلوة وارسل اليه القسيس وهو متخوف  
من الشر الذي سيصيب الكنيسة من جراء اعتناق ذلك الرجل النصرانية  
وقد لبث واصا المذكور مختبئاً بالدير حتى اعتمد ولم يحصل شغب عند  
عماده لانه لم يعلم به احد من اقاربه الذين ظنوه انه هلك في الصحراء  
واراد الكاهن الذي عمده ان يرسله الى دير القديس مر كوريوس بوادي  
النطرون ليتعلم اصول الديانة غير ان بعض المسلمين رأوه قبل ان يبارح  
الكنيسة وابلغوا والده اخبر قائلين اننا نشك في موته والغالب انه  
صار مسيحياً

فلما سمع ابوه بذلك بث عليه العيون والارصاد فلقية وهو ذاهب  
الى جبل النطرون فرجع به الى بيته وهناك عملت معه كل الوسائل  
اللازمة لارجاعه الى حضن الديانة الاسلامية فذهبت كل الوسائل عبثاً  
ولما كان محبوباً لدى اهله خافوا ان يشتهر امره لدى باقي المسلمين فيقضوا  
عليه فلذلك تركوه وشأنه فخرج واصا (الذي دعي بولس بعد المعمودية)  
وذهب الى جبل النطرون واقام في دير هنالك زمناً طويلاً ولما كان هناك  
اخبره احد الرهبان انه ان لم يشهر ايمانه في نفس وطنه لمجد الرب لا يدعي



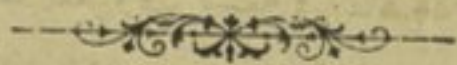
مؤمناً فقام من فوره الى بلده واعلن ايمانه فلم يعارضه احد اولاً نظراً  
 لمحبتهم الاولى له ولكنهم قاموا عليه اخيراً وعنفوه فلم يرجع ولما لم تجد  
 الوسائط الحبية معه عمدوا الى اكرامه وسجنوه في سرداب مظلم ستة ايام  
 وأتوا اليه بزوجه الجميلة التي كان قد افترن بها قبل ان يتنصر فأخذت  
 تستعطفه وتتذلل اليه وترجوه ان يعطف على والده الصغير فلم تستقد . اخيراً  
 تقدم اليه ابوه وخطف الطفل من بين يدي كنته وذبحه امامه واخذ ولده  
 بولس وسلمه الى المحكمة وطلب ان تحكم عليه بصفته كافراً فلما تمثل بين  
 يدي الخليفة العزيز بالله صار يتضرع اليه ويسترحمه لكي يأمر بإبقائه  
 حياً وتوسلت اليه زوجته (أي زوجة بولس المذكور) فرق عليه واطلقه  
 فذهب الى الصعيد واصطحب مع اسقف الاشمونين غير انه لم يابث معه  
 طويلاً بل سافر الى اقاصي السودان جنوباً وبني هنالك كنيسة باسم  
 مخائيل رئيس الملائكة على حدود الحبشة ثم رجع الى مصر لينال درجة  
 كاهن فقابل البطريرك فيلوثاوس وطلب اليه ان يرسمه قسيساً فطلب منه  
 دفع الرسم المقرر فلم يشأ لما قام في نفسه من كراهية ذلك الامر فاصر البطريرك  
 على اخذ الرسم وانتهى الامر بينهما بتوسط احد ذوي الغيرة الدينية حيث  
 دفع عنه ذلك الرسم فرسم قسيساً وقد بطلت عادة دفع الرسوم بعد ذلك  
 في عهد البطريرك افرام . واتفق ان والده سمع بصيرورته كاهناً  
 فاشتد حنقه عليه واستأجر قوماً من الاعراب للفتك به فسمع بعض  
 المسيحيين بذلك وحذروه فهرب الى بلدة تدعى

وهناك تعين صرافاً لخزينة كنيسة القديس تادرس ومات بعد ذلك  
 بستين. وعند موته هجم المسلمون على الكنيسة وسلبوا المسيحيين  
 مسبات مؤلمة ولكن بولس كان قد اوصى وكيل البطريرك ان يحافظ على  
 جسده خوفاً من ان تعبت بها ايدي المسلمين فقام بتلك الوصية خير قيام  
 وهو الذي روى تاريخ حيواته لمخائيل المؤرخ اسقف صان ( بمديرية الشرقية )  
 غير ان اعتناق بعض فضلاء المسلمين الديانة المسيحية وان كان قد  
 سر المسيحيين الا انه لم يقطع دابر الصعوبات التي كانت تعترض الكنيسة  
 لان بطريرك الاروام اغتصب من الاقباط كنيسة رغماً عن تشديد  
 العزيز بالله بمنع الاضطهاد عنهم وعدم سماحه للرومانيين بأن يضايقوا  
 الاقباط القائين بالطبيعة الواحدة

وكانت الجبشة في ذلك الوقت مسرحاً للحروب الدموية لان  
 امرأتين اختلستا عرش الملك بالتتابع وامرتا بقتل جميع ذرية الاشراف  
 الا واحداً نجيا من كيدهما فلما بلغ هذا اشده شرع في  
 في استخلاص عرش اسلافه من ايدي مغتصبيه فكتب كتابا وارسله الى  
 ملك النوبة بالطريق الموعرة البعيدة الشقة خوفاً من وقوعه في يد الحكومة  
 ورجاء ملك النوبة ان يسرع بارسال الكتاب الى غبطة البطريرك في مصر  
 (ولا تزال بعض اجزاء هذا الكتاب محفوظه ضمن الاثار القبطية حتى الان  
 بلندن) وفيه استنهاض لهمة غبطة البطريرك لتلافي الخلل وانقاذ الجبشة من حال  
 التماسه الدينية التي باتت فيها بفضل الاهمال. وذكره بانه مضت مدة تولى

فيها ستة (١) بطاركة بالتتابع وفي كل هذا الزمن الطويل لم يلتفتوا الى الحبشة حتى اضحت خالية من رأس ديني لعدم قيام أحد بدل الذين توفوا . وقال فيه  
 اتنا لا نكر اننا قاسينا هذه الشرور جزاء ما اقترفناه ضد الكنيسة المصرية  
 ام ايماننا

فلما بلغ هذا الكتاب الى يد غبطة البطريك امر في الحال برسم  
 الراهب دانيال الذي كان في دير الراهب مرقوريوس اسقفا للحبشة فسافر  
 اليها مشيعا بالاكرام واستقبله الاحباش بمزيد التجارة والاعتبار وفرحوا  
 به فرحاً لا يوصف وبوارطته نجح ذلك الملك الصغير في استخلاص العرش  
 لأن الاسقف حرم المغتصبة فانزلها الشعب عن الكرسي واعدموها



## الفصل السابع والاربعون

اضطهاد الخاكيم بامر الله

سنة ٩٩٦م و ٧١٢ للشهداء و ٣٨٦ للهجرة

توفي العزيز بالله سنة ٣٨٦ للهجرة خلفه ابنه المنصور او الحاكم بامر  
 الله وكان قاصرا فقام وزيره المدعو ارجوان بالوصاية عليه عشر سنوات  
 حتى بلغ رشده ولما كانت ام الخليفة مسيحية انشأت فيه شيئا من التأثيرات  
 (٢) هذا العدد غير صحيح فان البطريرك قسماص الثالث هو آخر من ارسل اساقفة  
 الى الحبشة وبينه وبين البطريرك فيلوثاوس اربعة بطاركة هم مكاريوس الاول  
 وطومانوس ومينا الثاني وافرايم

الحسنة فتمتع المسيحيون كل السنين التي كانت فيها قاصرا بالراحة التامة  
وكانوا يتفاضون مع المسلمين لدى الحاكم وينصفون وكانوا يركبون الخيل  
ويتشعرون بالثياب الثمينة ويولجون المصالح الكتابية في دواوين الحكومة  
فشب الذين نشأوا في ذلك الوقت على الحرية الكاملة فوجب ذلك حقد  
المسلمين على الاقباط المساكين غير ان هذا الحقد لم تنفجر براكينه كل  
مدة حياة والده الحاكم بامر الله الا انها لما توفيت تغيرت اطوارها وكان ضعيف  
العقل فترآى له ان يدعي النبوة فادعاها. وابتدع في عهده رجل بدعة جديدة  
في الاسلام صار امرها مشهورا في مصر وهي منع المسلمين من حفظ يوم  
الجمعة وايام عيدي الفطر والاضحى وتحريم الحج الى مكة وباغراء هذا  
المدعي بنى الحاكم جامعه المعروف باسمه في القاهرة وكان حتى سنة ١٨٦٤  
مسيحية مستودعا لحفظ الاثار العربية. ولما ادعى النبوة كما قدمنا اعلن انه  
اعظم من عيسى ومحمد واضطر المسلمين والمسيحيين ان يعتبروه وقال بعضهم  
انه تجاوز الحد فلم يرد ان يعتبروه الاهالي كنبى فقط بل كعيسى المتجسد بروح  
الله وكان يصعد الى جبل المقطم في فجر كل يوم لينا جى ربه على زعمه واذل اليهود  
وسعى في الغناء الديانة الاسلامية فاحتقرته الرعية اما المسيحيون فقالوا انه  
المسيح الدجال

وعاش البطريرك فيلوثاوس ٢٤ سنة على كرسي البطريركية وفضى  
كل زمانه في هدو وسلام ولم يبدأ الاضطهاد الا بعد موته. وبيان ذلك  
انه اذ كان يقرأ القداس سقط بجاءة فاقد الرشده فقام مقامه احد القسوس في

تكملة القديس وعند النهاية حملوه الى البضر كخانة وفارق الحياة على اثر ذلك  
 وحينئذ اراد الاسكندريون سيامة تاجر علماني مكانه فرفض الاساقفة  
 ذلك رفضاً باتاً وانتخبوا زخريا صراف كنيسة القديس مرقوريوس . اما  
 ذلك التاجر الذي رشحه الشعب فاتهم رسموه اسقفاً على مدينة ممفيس  
 وكان البطريك زخريا محباً للسلام الا انه لم يسر من مجلس الاساقفة  
 نظراً لما نشأ عن فساد اخلاقهم من جرى الحرية التي اعطيت لهم ومخالطهم  
 لعامة المسلمين في زمن العزيز بالله

وكان الاختلال في زمن البطريك فيلثاوس بالغا حده فان الذين كانوا  
 يرقون الى درجة الاسقفية لم يكونوا يبلغونها الا بدفع جعل عظيم . اما  
 البطريك زخريا فانه صار يدقق في رسامة الاساقفة وكان يمقت تلك العادة  
 القبيحة ولا يقبل دراهم ولكن اعوانه كانوا يختلسونها وينفذون ما ربههم  
 وقد ابقى ذلك البطريك مجلس اساقفة عنده لاجل الفصل في سائر المسائل  
 المالية وكثيرون منهم من اقربائه وقيل ان واحداً منهم جمع اكثر من ٢٠  
 الف جنيه بطرق غير محالة فهذه الامور آلت بنتائج وخيمة كما ترى  
 فيما يلي

كان رجل يدعى القس حنا كاهنا على ابرشية ابي تفر وهي قرية بالجيزة  
 بالقرب من دير القديس مرقوريوس وبلغ به الشوق من منصب الاسقفية  
 مبلغاً حتى ذهب الى البطريك بنفسه لهذه الغاية فقدم البطريك طلبه الى  
 مجمع الاساقفة ولما كان القس حنا غير صالح لهذه الوظيفة لم يتردد المجمع

في رفض (١) الطلب لاول وهلة ولما كان حنا يعهد في نفسه عدم اللياقة فتوجه الى مركز الحكومة في القاهرة وبالنظر لنفوذه في دوائر الحكومة وصمم على تقديم شكواه للخليفة فلما بلغ ذلك اذان الموظفين من الاقباط وكان الاضطهاد بدأ يشتد عليهم ورأوا المسلمين يحرصون ذلك الكاهن على الشكوى اجتمعوا عليه ورجوه ان يكف وكتبوا هم عريضة الى غبطة البطريك يظهر ان حرج مركزهم ويرجونه الموافقة على تعيين القس حنا اسقفا فلما اتى الكاهن الى مقر البطريكية وجد البطريك غائبا في وادي الحبيب تاركا مسألة هذا الكاهن لابن اخيه ميخائيل اسقف سخا ليحفظها حتى يعود فيت فيها ولما كان الاسقف ميخائيل يبعث القس حنا خاف من انه اذا توانى يعود البطريك في رسمه استأجر بعض الاعراب للفتك به فكمنوا له في الطريق والقوه في بئر واخذوا يرمونه بالحجارة ولحسن حظه كان في تلك البئر كهف فتوارى فيه ولم يصب بسوء ولما ظنه الاعراب انه مات وتركوه خرج من هناك وتوجه الى غبطة البطريك وقص عليه ماجرى له فتأثر من ذلك ووعدده وعدا شافيا بان يرشحه لدرجة الاسقفية عند خلو وظيفة وصار البطريك في ذلك الوقت بين عاملين قويين اما ان يصدع برأي الاساقفة وينقض عهده مع حنا او ان يفي بوعدده ويخالفهم ولكنه اضطر ان يخلف وعده وينقاد لرأيهم فاغتاظ حنا من ذلك ولم يعمل للانتقام

يقال انهم رفضوه لكونه متزوجا والقانون يقضي ان يكون الاسقف راهبا وقال بعضهم انهم رفضوه لانه لم يكن يقدم النذور اللازمة.

من مخائيل ابن اخي البطريرك بل دبر مكائيد ضد البطريرك ومجمع الاساقفة  
كانت تتيجتها استدعاءهم لدى الخليفة وزج البطريرك في اضيق السجون  
وبعد ماضى عليه ثلاثة اشهر في سجنه اخرج والقي الى الاسود فلم تقرب  
اليه بسوء فطرح اليها مرة اخرى ففعلت كالاول فاعيد الى السجن ومن  
ذلك الوقت قامت الاضطهادات المريعة على المسيحيين في مصر ودامت  
كذلك حتى ايام البطريرك اسكندر الثاني. وبلغ من جبروت الحاكم انه  
امر المسيحيين بالاعتراف بالوهيته اذا ارادوا ان يخلصوا من العذاب  
وقيل انه وضع دفاتر في مراكز الحكومة الاربع في القاهرة ومصر القديمة  
والفسطاط وبابلون لتسجيل اسماء الذين يعترفون باوامره الكفرية وقيل  
ان الذين اطاعوه بلغوا ستة عشر الفا ولكن من سياق التاريخ نستنتج انه لم  
يطعه احد من الاقباط والراجح ان كثيرين من المسلمين اعترفوا به وقد  
شملت مظالمه جميع المسيحيين في كل انحاء الخلافة وقد وجه همته الى مصادرة  
مدينة بابلون بالخصوص قاحرقها وسلبت جنوده امتعتها واصدر امره  
بتفليح جميع كروم العنب ليمنع بذلك صناعة خمر الاباركة الذي يستعملونه في  
تناول السر المقدس

وقد وقع اكبر الاقباط في شدة قوية لا تطاق من ذلك الحاكم الظالم ومن ثم  
صار اخوانهم المسلمون الموظفون معهم يتجاهلونهم ولا يمدون يداً لانقاذهم  
وامر الخليفة بضرب عنق اثنين منهم ولم يكفه ذلك بل قبض على آخر  
يدعى المعلم غبريال ووعدده انه يرقيه الى منصب الصدارة العظمى اذا هو

اعتنق الاسلام فطلب منه مهلة يوم واحد فامهله فتوجه الرجل الى بيته وجمع اولاده واقاربه ومعارفه واخبرهم بامرهم وقال انه لم يطلب مهلة لتردده في الايمان بل رغبة في الاجتماع بهم وحثهم على مقابلة الاضطهادات بثبات ثم اولم لهم وليمة الوداع واستودعهم الله وذهب الى مقابلة الخليفة برباطة جاش واخبره بانه باق على دينه فتهدده بالتعذيب فلم يذعن فامر بجلده الف جلدة ففعلوا فلما بلغ عدد الجلدات ثمانمائة مات ولكنهم استمروا ويجلدون الجلثة الهامدة حتى كمل العدد. وبعد ذلك قبضوا على ثمانية آخرين وتهددوهم فثبت منهم اربعة وجبن الآخرون واعتنقوا الاسلام فرارا من العذاب ومات احد الذين ثبتوا بقاءة اما الثلاثة الباقون فسجنوا في الكنيسة حتى يرجعوا عن عنادهم وبقوا في سجنهم حتى انتهى الاضطهاد. اما في سوريا فان الحاكم امر بهدم كنيسة القدس وتخریب القبر المقدس والكنيسة المبنية عليه واستدعى البطريرك ارميا (١) خاله الى مصر وأمر بقطع رأسه بالسيف وهرب اخوه ارسانيوس الناسك من وجه الخليفة خوفا من الهلاك وقد رأينا ان نوردي هذا المقام فقرة من تاريخ المقريري الشهير بتين عسف الحاكم على الاقباط قال .

وقد اشتد الحاكم على اقباط مصر والزمهم بشد زنار على احقائهم ونهاهم عن الاحتفال بعيد الميلاد والغطاس والنفصح وحرق الصلبان والاشباب

ارميه بطريرك اورشليم وارسينوس هما شقيقا احدي زوجات العزيز بالله والد الحاكم التي تزوج بها كما بينا في الفصل السادس والاربعين



التي تعمل فيها وحظر عليهم شراء العبيد والاماء وهدم كنائس شادح الرشيد  
 في مصر العتيقة وخرب كنائس المكس التي كانت خارج الاسكندرية ونهب  
 اوانبها وعرضها للمبيع وامر بهدم دير القيصر (١) وصرح لرعاة المسلمين بسلبه  
 وحظر على القبط الاحتفال بعيد النير والذي اعتادوا ان يقيموه على شاطي النيل  
 في كل عام ووضع هذا منعاهم من الالتماد والسرور واجبر كل  
 قبطي ان يعلق في رقبة صليبا خشبا لا يقل عن خمسة ارطال وزنا وحظر  
 عليهم ركوب الخيل الا البغال والحمير بسروج ولجم عادية غير مموهة بالذهب  
 وامر اصحاب الاصطبلات ان لا يخرجوا جوادا لركوب الا قباط بعد  
 الغروب وان يلزم كل نوني مسلم يقدم قبول قبطي للسفر في مركبه  
 وان لا يلبسوا الا عمائم سوداء وان تكون ركائب سروجهم من خشب

بني هذا الدير الامبراطور ار كاديوس الروماني على سفح المقطم شرقي طره  
 نذكارا لارسانيوس معلم اولاده الذي كان باشكاتباً فانه صرف الاعوام الثلاثة  
 الاخيرة في عمره داخل كهف كما يقال وتوفي فيه وعلى هذا الكهف بني الامبراطور  
 الكنيسة التي صارت بعدئذ اشهر الاديرة المصرية . ودعيت كنيسة القيصرا ودير  
 القيصر باسم يوحنا القيصر القديس المشهور عند الاقباط وقد هدمت بامر الحاكم  
 اسوة بغيرها في زمن الاضطهاد واعيدت بعد ذلك ودعيت بكنيسة البغلة ولذلك  
 سبب عجيب وهو انه كان لرهبان ذلك الدير بغلة يضعون على ظهرها القرب كل  
 صباح ويطلقونها فتذهب الى النيل بغير قائد وتقف هناك حتى يأتي بعض الفعلة  
 ويملا القرب ويضعها على ظهرها فتعود الى الدير ولا تزال خرائب ذلك الدير  
 باقية حتى الآن

الجميز وقضى على اليهود ان يعلقوا حجراً مستديراً وزنه خمسة ارطال في اعناقهم . واصدر امراً عاماً بتدمير كنائس مصر قاطبة وجعلها غنيمة للمسلمين . كل هذا حل بالاقباط المساكين ولم يشف له غليلاً فامر بسلب امتعة الكنائس واوانها واقامة جوامع على انقاضها وامر ان يؤذن في كنيسة القديس شنوده بمصر القديمة حالاً وبني المسلمين سوراً حول كنيسة المعلقة ( في قصر الشمع ) وهو حصن مدينة بابليون الروماني . واتمس المسلمون من الخليفة ان يأمرهم بالتجول في انحاء القطر لتخريب ما بقي من الكنائس فاجابهم الى ذلك واصدر امره الى حكام الاقاليم بمساعدتهم في اغراضهم فظافوا يتفقون ويخربون كل سنة ٤٠٣ للشهداء الموافقة ١٠١٣ مسيحية فسابوا الكنائس واخذوا اوانها وامتعها النفيسة وصاروا يبيعونها جهاراً في الاسواق ووضعوا ايديهم على جميع الاوقاف القبطية فلم يبقوا لها عيناً ولا اثرأ ووجدوا في كنيسة القديس شنوده والمعلقة غنائم عظيمة من الاواني الذهبية والملابس الحريرية وغيرها مما لا يعد ولا يحصى ويؤخذ من التقارير الرسمية انه تمخرب في تلك السنة ماينوف عن ثلاثة (١) الاف كنيسة في مصر والشام بما في ذلك الهياكل التي بناها الرومانيون في الاقاليم المصرية . هذه كلها غنمها المسلمون وكانت عمارات جميلة وقصورا شاهقة واواني نفيسة

(١) هذا مأخوذ من تاريخ مالان والظاهر انه وقع غلط مطبعي لان المقريري يذكر ان عدد الكنائس المستخربة يبلغ ثلاثين الفا

وامر الحاكم ان كل من يذهب من الاقباط الى الحمام يعلق برقبته صليبا  
وان يعلق اليهودي جرسا وتماد في بغيه حتى امر برحيل الاقباط واليهود  
الى بلاد الروم (١) فتجمهروا مئات والوفاء وذهبوا الى قلعة الحاكم ووقفوا  
يستعطفون ويسترحمون ويطلبون اليه اعفاءهم من النفي حتى رضى عليهم  
وفي تلك الاوقات المكربة اعتنق من المسيحيين الديانة الاسلامية خلق كثير.  
وظل سفير الاضطهاد يتهب سنين كاملة والبطريرك ذخريا في اعماق السجون  
يهدده الحاكم ناراً بالحرق وطورا يرغبه بالهبات والعطايا ويعدده بالرقى اذا هو  
اعتنق الديانة الاسلامية ليحمل الاقباط على النسيج على منواله ولكنه لم يؤثر  
عليه التهديد ولا عمل فيه الخوف من الموت ولا اشارت رغباته المواعيد بل  
ثبت الى النهاية حتى سئم منه الحاكم واخلى سبيله فذهب الى وادي النطرون  
واقام هناك وكانت الثلاث سنوات الاخيرة في الاضطهاد من اشد واقسى  
السنين صرامة فيها القوا الهول وصادفوا من الجور اشكالا والوانا لان الحاكم امر

(١) ذكر ابو صالح المؤرخ ان من الكنائس الشهيرة التي تخربت بامر الحاكم  
ونحوت الى جوامع ماعدا كنائس القاهرة كنيسة السنطوريين قرب العدوية او  
منية السودان تبعد عن القاهرة نحو ١٨ ميلا وكنيسة السيدة العذراء في اصوان  
وكنيسة العذراء في الاشمونين ودير القصير الشهير وقد اعيد بناؤها بعد زمن  
الاضطهاد ومما يستحق الذكر كنيسة القديس باخوميوس بمدينة فاو باقليم دشنا  
وكان طولها ١٥٠ ذراعاً وعرضها ٧٥ ذراعاً وكانت حيطانها مرصعة بالفيفسا  
والاحجار الكريمة واعمدتها من اجود انواع الرخام هذا عدا جملة  
كنائس في بلاد النوبة هدمتها حملة من الاسلام بعثها الحاكم خصيصاً

بابطل العبادة في جميع الكنائس الا في الاديرة الكائنه في الجبال فكان  
 الشعب يرشو حكام الاقاليم ليسمح له بممارسة سائر العبادة في البيوت  
 سرا ومن ثم صار الاقباط يقدسون ويناولون القربان في كنائسهم الصغرى  
 فهال الحاكم ذلك اذا رأى انه او امره غير نافذة بالدقة فامر اخيرا بمحو كل الديانة  
 المسيحية من مملكته

وكان في تلك الايام راهب يقال له يمن انكر الدين المسيحي واعتنق  
 الاسلام في بدء الاضطهاد خوفاً على حياته وتقرب الى الحاكم بامر الله  
 وتمكن بدهائه من استصدار امر منه يقضي بالعمو عنه وعن اخواته  
 الاقباط . وعاد الى كنيسة القديس مرقوريوس ( ابو سفين طموه ) وزاره  
 الخليفة في تلك الكنيسة واما كان له عنده منزلة عظيمة اثر عليه فجعله ان  
 يأذن للمسيحيين في العودة الى مدينة بابليون فنال ماتمى ورجع البطريك  
 زخريا واقام في كنيسة ابي سيفين مع بعض الاساقفة والكهنة وفيهم

للك الغاية وكان الملك الذي يحكم النوبة حينئذ يدعى رفائيل حكى عنه  
 ابو صالح المؤرخ انه اقام في دنقله عاصمة ملكه قصوراً تناطح السماء قبابها من  
 الطوب الاحمر الجميل كانت نزري بمباني العراق الجميلة يومئذ وشوارع المدينة  
 في هده كانت متسعة وقصورها شاهقة وكنائسها فاخرة وكانت بالاجمال اهم مدينة  
 على شاطئ النيل

( ٢ ) ذهبت مدام بتشر الى ان عقاب النفي انما صدر على اليهود فقط لان  
 القبط كانوا يتوقون الى الهروب من تلقاء انفسهم الا ان الحاكم كان يحظر حتى انتقلهم  
 من جهة الى اخرى

الراهب يمن . وعاد الخليفة الى زيارة الكنيسة مرة أخرى فوجد يمناً  
 بين زمرة الكهنة فاسرع يمن الى ملاقاته وقدم اليه البطريرك ولم يكن  
 قد رآه من ذي قبل فاندعش من منظره وحقارة شخصه ورثيث ملابسه  
 واستقبله اياه بغير خوف او رهبة فلم يسع الحاكم بأمر الله ان يخفي  
 استغرابه فسأل الراهب يمن عن مقدار سلطة البطريرك فاخبره بذلك  
 فتعجب الخليفة قائلاً اننا مع كل استعمال تفوذنا المادي وصرف ما في  
 خزائنا وتجريد عساكرنا لم نبلغ بعد ان نخضع الناس بمجرد رسالة بسيطة  
 يوقع عليها مثل هذا الرجل البسيط باسم الصليب فلا رب ان للديانة المسيحية  
 من التأثير ما ليس للجيوش الجرارة والقوة العظيمة

ولما كان الخليفة غريب الاطوار ادار وجهه الى خلف وخرج من  
 الكنيسة من غير ان يطلعهم على حقيقة ما يبطن وتوجه الى القاهرة  
 وكان خلق عظيم مجتمعين داخل الكنيسة وحول اسوارها ينتظرون  
 ما يكون من امره فلما خرج لبث البطريرك واساقفته يظنون الظنون الكثيرة  
 في ما عسى ان يصير فاجمع السكل على انه عتيدان يعود بقوة عسكرية  
 ويحاصر الدير ويهلك جميع الذين فيه وزادهم اعتقاداً بذلك مجيء حنا كاهن  
 كنيسة ابوتقر محسوب الحاكم بأمر الله في ذلك الوقت الى الدير وهو  
 الذي حصل بسببه كل ذلك الاضطهاد وهو الذي غرر بالخليفة وزين له  
 سجن البطريرك زخريا وافهمه بأنه رسول الله ونائب العزة الالهية في  
 الارض . ولما دخل الى البطريرك حياه كانه لم يحصل منه شيء وهناك

يرجوعه سالما من السجن وما زال يتلطف في الحديث حتى استغرق الى  
 ذكر ترقيته الى درجة الاسقفية فعند ذلك ضجر الاساقفة وقالوا ما عسى  
 ان يكون هذا الطلب في مثل هذه الشدة . وانحوا باللائمة على البطريرك  
 الذي قابل الكاهن حنا بالحنو وقالوا له لسنا نعلم ايها السيد الى متى تقودنا  
 ببساطتك وهدوك الى المهالك . وروى بعض المؤرخين ان الاساقفة  
 حنقوا على البطريرك لانهم رأوه ميالا الى منح حنارتبة الاسقفية في حين  
 انه كان سبب جميع البلايا التي حلت بالاقباط في كل تلك السنين وكان  
 الاسقف ميخائيل ابن اخي البطريرك اشد معارضته لذلك لما قام في  
 في نفسه من الكراهية لحنا

فلما رأى حنا ملامح الغضب بادية على وجه الاسقف ميخائيل اسرع  
 الى خارج واحتج بالجمع المحتشد فتوسط الاساقفة في الامر واقنعوا  
 ميخائيل بوجوب انصفح لاسيما في تلك الاحوال الشديدة فرضي بذلك  
 فصالحوه مع حنا وادخلوا الكاهن حنا اليهم الى الدير وطيبوا خاطره  
 ورفقوه الى وظيفة ايغومانوس وهي اعلى درجة يستحقها حسب قانون  
 الاكايروس

وبعد ذلك بيضع ساعات نما الخبر الى غبطة البطريرك وجميع الذين  
 في الدير بان الخليفة قادم اليهم فظفقوا ويكون ويولولون ظنا منهم بان الساعة  
 قد اتت لينتقم منهم . ولكن الخليفة دخل الى الدير وقابل البطريرك وناوله  
 ورقة فتأملها واذا بها فرمان يقضى باباحة الحرية لجميع الاقباط ورد جميع

كنائسهم اليهم واعادة ماسلب منها من الذخائر والاواني والاعمدة  
وكذلك جميع الاطيان والاراضي الموقوفة وكل ماسلبه المسلمون من ايديهم  
وبالاجمال لم يهمل الخليفة فرصة لاعادة الاقباط الى سابق عزهم ومجدهم  
وبذلك اتقضى دور الاضطهاد الهائل الذي لحق الاقباط بقتل الخليفة  
الحاكم بامر الله . قتله اهل بلاطه اذ كادوا له فاغتالوه عند ما كان  
منفردا كعادته في جبل المقطم وهو يناجي ربه على زعمه . ولكن جثته لم  
توجد غير ان جثة رفيقيه اللذين كانا يلازمانه وجدت وعلى اثر ذلك  
اشاع بعض مريديه انه رفع الى السماء وسينزل في قابل الايام ولذلك  
ترى الدروز الى الآن يؤمنون بتلك الخرافة ويتبعون طريقة ذلك  
المبتدع المختل

وقد انشأ الخليفة الحاكم بامر الله هيئة علمية احتفل بافتتاحها سنة  
١٠٠٥ مسيحية ( ٣٩٥ هجرية ) وأسس مكتبة عظيمة فيها كثير من المؤلفات  
الرائقة في العلوم والفنون المختلفة وكان فيها كتبة ماهرون بالنسخ غير انها  
لم تلاق تبولا لدى المتأخرين لما كانوا يعتقدون فيه من الشذوذ عن قواعد  
الدين الخفيف

وقد بطلت هذه الهيئة من الوجود سنة ١١١٢ مسيحية ابظهار رجل يقال له  
الفضل لما رأى فيها من التعاليم المخالفة لعقائد الاسلام ولكن المسلمين  
اعادوها بعد ذلك الى سابق عهدها وأسسوها على قواعد متينة ولم تزل  
باقية حتى تلاشت بتقلص حكم الدولة الفاطمية في مصر

## الفصل الثامن والاربعون

شنوده وخرستودوس

سنة ١٠٢٠ للمسيح و ٧٣٦ للشهداء و ٤١١ للهجرة

قدمت الحاكم بامر الله كما اسلفنا مقتولا بمساعي اخته وقائد جيشه  
وبويع بالخلافة مكانه ابنه الظاهر لا عزاز دين الله وكان يعرف باسم الظاهر  
فقط وكانت عمته تدير شؤون المملكة في ايامه حتى مماتها . ولو ان هذا  
لم يحكم اكثر من ستة عشر سنة غير انه لا بأس من ذكر ملحقه للاقباط  
في ايامه

وتفرغ البطريك زخريا لترميم ما تهدم من الكنائس وارجاع الحالة  
الى سابق روتها وظل اثنتي عشر سنة يعمل بغير كلل ولا ملل فاعاد منها  
كثيرا وساعده على ذلك فرمان الحاكم بامر الله غير انه توفي ولم يصلح  
الا القليل وانتخب مجمع الاساقفة خلفا له راهبا يدعى شنوده من رهبان دير  
القديس مقاريوس وكان وزير الظاهر والسيد بكر احد اشراف المسلمين  
محين للاقباط . فعلا على اعفاء البطريك الجديد من دفع الرسم المقرر على  
كل بطريك عند سياحته وقدره ستة الاف دينار لكن اكليروس الاسكندرية  
ظنوا ان وراء ذلك ما وراءه فلم يرضوا ان يقرروا على انتخاب الراهب  
شنوده بطريركا الا بعد ان رضي بتوقيع صك الجزية . وانما فعلوا ذلك  
خشية من بأس الحكام المسلمين وخوفا من انتقاضهم عليهم . على ان ليس



كل البطارقة كانوا راضين بدفع تلك الجزية لان البطريرك تيوفاتوس طالما  
مقتها وتوسل الى الاكايروس ان لا يكلفوا الشعب بدفعها فذهب توسله  
صرخة في واد

وقد سر البطريرك شنوده باعفاء الحكومة له من الضريبة المقررة على  
البطارقة الجدد ولكن لما لم يوافقته الشعب كما قدمنا دفعها ولكن في مقابل  
ذلك قرر ضريبة على القسوس والاساقفة الجدد وكان البطارقة اسلافه  
يمقتون تلك العادة اما هو فخالفهم ولم يكن يسمح برسم اسقف او قسيس  
الا للذي يدفع في الوظيفة ثمنا اكثر من غيره. وقد أمن الاقباط في ذلك  
العهد من اضطهاد مضايقيهم فاشتدت الرغبة في الحصول على درجة  
الكهنوت وكان كل من بذل مبلغا من الدراهم اكثر من سواه يؤوب  
فأزا بغرضه

ورأى الاغومانوس حنا الذي كان فيما سبق كاهنا لكنيسة ابي تفر  
ولم ينجح في زمن البطريرك زخريا في الحصول على وظيفة الاسقفية ان  
الفرصة لاثمة له في عهد البطريرك شنوده فبذل جهده في نوال غرضه ولكنه  
لما لم يكن اهلا لتلك الدرجة لم ينجح غير انه في ذلك الوقت خلت ابرشة العريش  
من اسقف لها فسيم عليها اسقفا وصار يدفع ستين دينارا سنويا لحصوله على  
تلك الدرجة وباع البطريرك شنوده اسقفية باتميوس للاسقف رفائيل بالف  
ومئتي دينار واسقفية ليكوبوليس (اسيوط) للايغومانوس الذي فيها بمبلغ  
غير معروف ولما لم يرض عنه الشعب جاء الى البطريرك يطلب منه ان يتنعم

الشعب بقبوله او ان يرد له الدراهم التي دفعها فابي عليه البطريك كالا اميرين  
 ولم يقتصر شنوده على بيع الابريشيات للاساقفة لينعموا بها في حيوتهم  
 بل قرر ان تكون جميع مقتنيات الاساقفة حقا للبطريكخانة بعد وفاتهم ولا  
 يزال هذا القرار معمولاً به حتى الان واول من وقع له ان ينفذه منفعول  
 القرار اسقف شنان فان البطريك شنوده امر ابا الاسقف المذكور بان  
 يسلم جميع ما كان لاخيه الى البطريكخانة فتوسل ذلك الى البطريك ان يبقي له شيئاً  
 يرتزق منه او ان يترك له منزله ليسكن هو فيه فابي عليه ذلك فاعتق  
 الرجل الديانة الاسلامية وتقاضى مع البطريك امام المحاكم الشرعية فحكمت  
 للرجل بأخذ مقتنيات اخيه جميعها فوقع ذلك الحكم اسوأ موقعا لدى  
 ذلك البطريك.

وبالجملة كان تصرف شنوده المنجل في بيع الوظائف الكهنوتية  
 وتحصيل الرسوم الباهظة مما أدى الى تجاوز الرسوم المقررة وجعل اصحاب  
 المطامع يقدمون الدراهم بصفة رشوة للحصول على تلك الامرا كزوقدسرت  
 هذه العادة بين جميع طبقات الامة القبطية . وفي السنة الثانية من جلوسه  
 على كرسي البطريكية ابي دفع الاعانة المقررة للاسكندرانيين بدعوى ان ايراد  
 البطريكخانة لا يكفي للمشروعات الاصلاحية فرفع وكيل البطريكخانة  
 الاسكندري الدعوى عليه لدى المحاكم فحكمت له بأخذ المبلغ المطلوب من  
 ايرادات الاوقاف كل هذه المناقشات حصلت بين الرؤساء في عصر الحرية  
 والعدالة الذي لم يتمتع بمثله الاقباط منذ ايام عمر وبن العاص . فهذه الامور

التي ينجل من ذكرها حر الشرائع بلغت مسامع القاضي والداني ونما خبرها  
الى حضرة السيد بكر شريف المسلمين الذي كان له الباع الطائل في اعفاء  
البطيريك من دفع الرسوم المقررة للحكومة فهاله الامر وتوسط في فض  
الخلاف بين شنوده ووكيله الاسكندري وابان لها سؤ المغبة التي تنتج  
عن مثل ذلك التصرف فالقى شنوده اللوم كله على الوكيل واحتج بان  
مطالب الاسكندرانيين لا يمكن ان تسد بغير طريقة جمع الرسوم  
والضرائب فما كان من بكر الا انه تعهد ان يقوم هو وكبار الاقباط بدفع  
المبالغ اللازمة لسد مطالب الاسكندريين اذا كان هو واساقفته يكفون  
عن بيع الوظائف الكهنوتية فرضي البطيريك بذلك وكتب محضراً  
بواقعة الحال وامضى عليه ولما عرض الامر على اساقفته وكانوا قد سبقوا  
فاخذوا تقوداً من بعض الراغبين في الوظائف الكنائسية ولم يفوا بوعدهم  
لهم بعد رفضوا ذلك العمل رفضاً باتاً وعدوا عملهم مقدساً وكان تصرف  
اساقفته الاقباط في ذلك العهد نظير تصرف اساقفته انكلترا الذين انكروا  
من عهد غير بعيد تداخل العلمانيين في شؤونهم

ونما خبر الخلاف الذي حصل بين اعضاء المجمع المقدس الى مسامع  
بكر الشريف فاسرع الى الدار البطيركية ورجأ الاساقفة ان يدعوا  
لنصحه ووقف بينهم خطيباً يذگرهم بسؤ المغبة التي تنتج من عدم رضائهم  
بمشورة البطيريك وذكركم بما كان من امانة البطيريك افرام الذي يعهدون  
فيه القداسة وكيف انه كان يحرم استعمال تلك العادة القبيحة وختم قوله

بان المصائب التي تحل بهم من وقت الى آخر انما هي نذير من السماء ينبئهم  
بوجوب الكف عن المساوي واتباع الحق

فلما انتهى بكر من كلامه اظهر شنوده ارتياحه الى ذلك القول  
والتس من بكر ان يعيد اليه القرار الذي امضاه ليقراه على مسامع  
الاساقفة ولما كان بكر يعهد فيه الامانة ناوله اياه مطمئناً فاخذه ومزقه  
امام بكر وجمهور الحاضرين وارفضت الجلاسة على هذه الصورة المزعجة  
وذلك الشكل القبيح

غير ان الاساقفة الذين تفرقوا على مثل تلك الصورة اثرت فيهم  
بعض نصائح بكر الشريفة فاجتمع بعضهم وذهبوا الى بكر وشكوا اليه بمرارة  
سوء تصرف البطريرك وتردده في اصدار الاوامر وميله الى الابهة  
والتظاهر وأعلموه انه هو الذي اوجب تحصيل تلك الرسوم بقرار مقدس  
عند جلوسه على كرسي البطريركية ثم تفرقوا على وعد الاجتماع في كنيسة  
ابي سيفين للاحتجاج على تلك التصرفات وتابعهم في ذلك بعض العلمانيين  
اما شنوده فبقي في كنيسة القديس مخائيل مع رجال حزبه وبعد ذلك حصلت  
مناقشات عديدة بين الاساقفة اسفرت عن اعترافهم بصحة نصائح بكر  
فرغبوا في قبول تلك الاقتراحات ووافقوا على التوقيع على صورة القرار  
الذي مزقه البطريرك في المجمع المقدس

على ان شنوده الذي كان يرتكن في تمزيق القرار على معارضة الاساقفة  
لما رأى موافقة الاساقفة لبكر رجع الى العناد وتوجه في غد ذلك اليوم

الى الكنييسة التي اجتمع فيها الاساقفة والعلمانيون وقضى اليوم يبحث معهم  
 في امور لم تعد بفائدة وبعد ذلك قابله بكر عميد المسلمين ووقف بين الاساقفة  
 خطيباً يحثهم على طاعة البطريك ويبين لهم مزار الشقاق وما زال يتناقش  
 مع البطريك حتى أقنعه بوجوب الرضى بامضاء ذلك القرار. فلما رأى البطريك  
 شدة عارضته وقوة حجته ووقوفه امامه موقف العاجز استشاط غيظاً وابى  
 الموافقة على ذلك وانكر على بكر تداخله في المسائل المالية البحتة وامر رجاله  
 ان يتبضوا عليه ويشبعوه ضرباً قتلوا وتفرق الاساقفة ايدي سبا . كل  
 هذه الالهانة حصلت لبكر الشريف ولم يتعرض المسلمون للاقباط باذى  
 في ذلك العهد فما ابعد الفرق بين تلك الظروف السعيدة والظروف المكدره  
 التي كانت في عهد البطريك زخريا وفي ذلك دليل على ان الاقباط لم يعرفوا  
 كيف ينتهزون الفرصة ويتحدوا بدل الانقسام وهكذا بقي حال البطريك خائبه  
 مختلا وادارتها معتله كل زمان حياة البطريك شنوده

ومات الظاهر سنة ١٠٣٦ مسيحية (٤٢٧) هجرية وبويع بالخلافة بدله  
 ابنه المستنصر بالله وقد طال زمان حكم هذا الخليفة اكثر ممن تقدمه لانه  
 ملك وهو ابن سبع سنين وبقي خليفة ٦٠ سنة وكان ضعيف الرأي كثير  
 التقلب وامه سودانية الاصل باعها احد اليهود لايه الظاهر وكانت وصية  
 عليه هي وبعض الوزراء قبل ان بلغ سن الرشد  
 وكان للمستنصر عمثان لهما ثروة طائلة وهما اختا اول خليفة من الخلفاء  
 الفاطميين وكان كل خليفة يتوقع موتهما ليتمتع باموالهما الا انهما عمر تاطويلا

وتوفيتا في زمن المستنصر فاتفق من تلك الثروة مبلغاً عظيماً في تجديد جامع  
 عمرو في القسطنطينية وتغيير طرزها القديم وصنع فيه مشكاة (كوة غير نافذة)  
 وجعل قبتها تجاه مكة وابدع في زخرفها وبعد ذلك بقليل امر ببناء مأذنة  
 عظيمة فيها وجعل فيه منبراً للخطابة وفي سنة ١٠٣٧ مسيحية (٤٢٩)  
 للهجرة عقد المستنصر بالله معاهدة مع سلطان الاتراك موءداها ان يطلق  
 هذا الاخير سراح اسرى المسلمين الذين اسروا في الحرب التي ثبتت بين  
 الدولتين بشرط ان يسمح الخليفة لسلطان الاتراك ان يعيد بناء كنيسة  
 القبر المقدس التي خربتها يد الاضطهاد في زمن الحاكم بامر الله فقبل  
 الطرفان بتلك المعاهدة وجددت الكنيسة على احسن ما يكون من  
 الرونق والرواء

وفي سنة ١٠٤٧ مسيحية او ٤٣٩ هجرية توفي البطريرك شنوده اثرداء  
 عضال وخلفه البطريرك خرستودس الذي يلقبه العرب عبد المسيح  
 واكب البطريرك الجديد على اصلاح ما تخرب وكان الاقباط قد  
 نهضوا في ذلك الوقت وجددوا خمس كنائس بغير تداخل الاساقفة  
 فدشنها جميعاً في يوم واحد ورسم في ذلك اليوم كاهناً وستين شماساً وكان  
 الفرح شاملاً للجميع ودعا تلك الكنائس كما يلي كنيسة القديس يوحنا  
 الانجيلي وكنيسة ماري مارقوريوس وكنيسة ماري مينا وكنيسة ماري  
 جرجس وكنيسة ماري رفائيل وافتتح كنيسة ماري مرقس في اسكندرية  
 وسن قوانين كنائسية ضمنها كل ما هو ضروري للاصلاح وجعلها دستوراً

عاماً لكل الكنائس القبطية في القطر المصري وبلغ عدد تلك القوانين  
واحداً وثلاثين قانوناً كانت على ما يقال افضل القوانين الكنائسية التي  
ظهرت من نوعها من بدء اتصال الكنيسة القبطية عن الكنائس اليونانية  
والرومانية وفي ذلك دليل قاطع على براعة البطريرك الذي سنها وقد احيينا  
ان نأتي على مثال منها اظهاراً لأهميتها من تاريخ نييل الشهر

يمنع قطعياً عقد الزيجة في الصيام الكبير وكذلك العماد او دفن  
الموتى في يوم الجمعة الكبيرة (جمعة الالام) ويمنع إعطاء الرتب الكهنوتية  
في الاسبوع الاخير من عيد العنصرة ولا يجوز لاسقف تابع كنيسة  
أخرى خلاف الكنيسة القبطية الارثوذكسية المصرية ولا لكاهن  
أو شماس ما ان يمارس خدمة ما من خدمات الكنيسة القبطية وينبغي حتماً  
إيجاب صيام الرسل وصيام الميلاد (الصيام الصغير) وصوم الاربع والجمعة  
من كل اسبوع ويمتنع تعميده اي طفل كان قبل ان يتناول الاسرار الالهية  
الا في حالة الخطر الشديد فانه حينئذ يكتفي الحال بالعماد بالماء فقط ويحظر  
على الاقباط ان يتزوجوا بغير الارثوذكسيات ويمنعوا من الاقتران بينات  
الكنيسة الملكية الرومانية واذا تم شيء من مثل ذلك يكون لانغياً ما لم  
يبشر عقد صيغة الاكليل كاهن من كهنة الكنيسة الارثوذكسية . واذا  
تخاصم شماس مع الكاهن الذي يناوله القربان فلا يجوز له ان يتناول عند  
خلافه (١) وكذلك الحال مع الاعضاء . ومن لم يرتض بحكم البطريركية

(١) وذلك لاجل دوام الالفة والسلام

واراد ان يستأنف دعواه لدي محاكم الحكومة فان كان كاهناً يفصل من  
وظيفة الكهنوت وان كان علمانياً يحرم من الكنيسة ولا يصنع القربان  
الا رجل طاهر مقدس وقد حصلت مناقشة كثيرة في عمل القربان تراها  
في ما يلي

ان خبز القربان الذي يوزع عادة في الكنائس عند تناول فريضة  
العشاء الرباني معروف لدى الجميع وهو عبارة عن خبز غير مختمر ولا مملح  
خال من الادهان والزيوت بالمرّة ومختوم بختم باللغة القبطية فيه شكر لله .  
ولكن اهالي سوريا يضعون الزيت في قرايينهم اما البطريرك خريستدوس  
فانكر عليهم ذلك ونهي عن استعماله في الكنائس القبطية واتفق لهذا  
البطريرك انه كان يحتفل بقداس في كنيسة ابي سفين (طموه) وكان حاضراً  
يومئذ طيب سوري له اتصال بالخليفة فاحضر قرباناً مما يصنع في بلاده  
وطالب من البطريرك ان يقدسه فابى عليه البطريرك ذلك وافهمه انه مغاير  
لقانون الكنيسة فاصر الطيب على طلبه فامر البطريرك رجال الكنيسة  
ان يخرجوه منها غضباً فحصلت بينهم وبين رجال الطيب مناوشة وصلت  
اذيتها الى الطيب واخرج بالرغم عنه فكانت هذه الحادثة من اول اسباب  
العداوة التي قامت بين البطريرك والخليفة . وقد ساعد على القاء النفرة  
بينهما بعض اعوان الفساد الذين لم يكونوا ينالون من البطريرك مغماً لما  
اتصف به من قوة الجنان والاستقلال بالرأي والعمل على كل ما هو  
صالح للكنيسة



وكانت احوال الكنيسة القبطية في عهد البطريرك شنودة سلف هذا  
 البطريرك في غاية الاختلال ولم يكن الشعب يراعي الطقوس وكان بعض  
 ذوي النفوذ من الاقباط يستعملون نفوذهم في قلب الكنيسة وتشويش نظاماتها  
 وكان بعضهم ينكرون ايمانهم ويعتقون الدين الاسلامي فلما تولى البطريرك  
 خريستودوس اصلح من فسادها ورتب امورها. وحدث في عهده ان  
 رئيساً من اكابر الاقباط موظفاً في الحكومة كان له ابن شرير فطرده ابوه  
 من بيته بسبب شروره وعدم طاعته فذهب الولد واعتنق الدين الاسلامي  
 ولكنه عاد بعد مدة فندم على ما فرط منه واراد ان يكفر عن خطايا بتوبته  
 فالتجأ الى دير ماري مخايل ولبس ملابس راهب ودعا نفسه نيقام (أي  
 اللأثم) واتفق ان بعض رهبان ذلك الدير ارادوا الرحيل الى دير القديس  
 مكاريوس بوادي البطرون فطلبوا اليه ان يذهب معهم فرضي في باي  
 الامر ولكن رأى له في عشية الرحيل ان الهروب الى البرية من وجه  
 الذين يطلبونه وعدم اشهار مسيحيته في نفس النقطة التي انكر فيها ايمانه يعد  
 من باب الجبن وضعف الايمان وان التكفير عن خطيته لا يقوم الا بالاعتراف  
 الجهاري امام الذين انكره بينهم فتقوى بذلك ولبس لباس الرهبانية ونزل  
 الى القاهرة واجتمع بالذين كان يجالسهم في اسلامه فلما شاهدوه رموه بالكفر  
 وقبضوا عليه واوسعوه ضرباً وطرحوه في السجن فبذل ابوه جهد المستطاع  
 في اتقاذه فلم يستفد فعمد الى الارشاء لان بعضهم اخبره ان القاضي لا يسلم  
 الا بالdraهم فلما وصلت النقود الى يد القاضي افتى بانه يجب على نيقام ان

ان يتظاهر باجنون ويأتي الاطباء لفحصه ومتى قرروا انه محتوه يطلقون سبيله  
 فذهب ابو اليه في سجنه وافهمه ما وقع عليه التدبير واعلمه انه لا يمكن ان  
 يخرج من السجن الا بتلك الحيلة وانه لا بأس من العمل بها فافتتح بذلك. فخرج  
 والده يدعو الاطباء وبعد خروجه دخل احد الرهبان الى نيقام واخبره  
 ان هذه الطريقة مخلة بشرف الدين المسيحي وانه لا يمكن ان يكفر عن ذنبه  
 الا بالاعتراف الجباري فان لم يعترف فقد اضاع اجره ولم يستحق ان  
 يدعى شهيدا لان الايمان الحقيقي لا يبعث على الجبن بل بالحري يجرى على  
 الظهور بمظهر الرجولية والثبات فسمع نيقام لقوله وعدل عما نوى ان يعمل  
 فلما حضر الاطباء والشهود لم يبد شيئا من علامات الجنون بل بالحري  
 بقي رزينا عاقلا وزاد على ذلك ان اعلن الحاضرين باقامته على الدين المسيحي  
 وايمانه بالاب والابن والروح القدس الله الواحد المثلث الاقانيم فاستشاط  
 الشهود غيظا فقدموا تقريرا بذلك الى قاضي الاسلام فامر يقطع رأسه  
 بغير امهال فقطع رأسه وأعطيت جثته لذويه بناء على امر الخليفة ودفن  
 بقرب كنيسة ماري مخائيل فلما حضر البطريرك خريستودوس الى مدينة  
 بابلون امر باحضارها فاحضرت ودفنها هناك داخل الكنيسة بكل تجل  
 واحترام كما احتفل بالشهداء الذين تقدموه

وجال خريستودوس في جميع أنحاء القطر المصري يتعهد الكنائس  
 ويحيي معالمها ولكنه لم يبادر الى الغاء الرسوم الدينية ولذلك نعم عليه البعض  
 واتهموه ببيع الرتب الكنائسية كالبطاركة الذين تقدموه ولكن كنائس كثيرة

بنيت في ايامه وخصوصا كنيسة دمنهور فانها اتخذها مقرا للكرسيه فاما  
 الاقباط من كل فيج و صوب فزادت عماريتها وظهرت برواق جميل غير انها  
 لبعدها عن مركز الحكومة بالقاهرة لم ينلها اذى الاضطهاد

واول تهمة اوقعها المسلمون عليه انه بسبب تفوزه تجراً ملك النوبة  
 المدعو جرجس على قطع العلائق التجارية مع المسلمين وامتنع من ارسال  
 الجزية المعتادة كل عام من الرقيق والظاهر انه الى ذلك الحين كانت عوامل  
 السلام سائدة بين ملك النوبة والخليفة في مصر مذما ارسل المعز سفراءه  
 اليها. وقد ارسل ايضا البطريرك خريستودوس اسقفا من قبله لتدشين  
 كنيسة بنيت في عهد الملك جرجس سلطان النوبة. ولكن خريستودوس  
 استعمل قواه في اقناع وزير الخليفة في مصر بان لا صالح له في قطع جزية  
 النوبة وان لا دخل له مطلقا في شؤون النوبة السياسية فاقنع الوزير بذلك  
 الا ان المسلمين لازالوا يتحرشون بالاقباط نظر المارأوه من تمتعهم بالرغد  
 في عهد بطريركهم النشيط

وفي سنة ١٠٥٢ مسيحية نقص منسوب فيضان النيل وكان الفيضان  
 ايضا واطئا في السنتين السابقتين فساءت الحال ووقع القحط والغلاء فاضطر  
 الخليفة المستنصر ان يكاتب قسطنطين العاشر امبراطور اليونان ليمده بالقمح  
 فارسل اليه سفنا كثيرة تحمل قمحا وفي السنة التالية مات الامبراطور فابت  
 زوجته ان ترسل اليه قمحا الا اذا عقد معها المستنصر مخالفة هجوم ودفاع ضد  
 الممالك الاسلامية فابي عليها المستنصر ذلك فرفضت امداده بالخنطة فبلغ

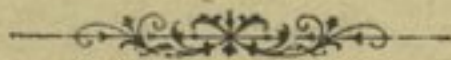
الجوع اشده في مصر ونزل الوباء في الناس فزاد فتكه عن حد القياس . وبالنظر  
لاشتغال المستنصر بالوباء والمجاعة ومراسلته امبراطور و امبراطورة اليونان  
بقي خريستودوس في دمنهور آمنا كيد الاعداء ونجى من الاضطهاد فاتفق  
ان احد قضاة المسلمين مر بديمورا أي دمنهور (١) قاعدة كرسي خريستودوس  
فاندهش مما رأى من عمارتها وحسن رونقها فكتب الى وزير المستنصر وبالغ  
في وصفها ووصفها وما بالتسطنطينية الثانية وانه قد بنيت فيها سبعة عشر كنيسة  
حديثاً عدا عما كان فيها قبلاً وذكر ان المنزل الذي يقطنه البطريرك فخيم  
منقوش عليه عبارات تهين الدين الاسلامي فارسل الوزير يستفسر عن  
تلك العبارات الميينة وارسل القاضي الذي بلغه الى هناك ليقرأها ويتأكد  
من صحتها فذهب اليها فرأى منقوشاً على واجهة منزل البطريرك البسلمة  
المسيحية وهي « بسم الاب والابن والروح القدس الخ » فامر البطريرك  
ان يمحوها فلم يعارض في ذلك الا انه قال له ان محوها من على السور  
لا يمحوها عن صفحات قلبي فعاد القاضي الى القاهرة واخبر الوزير بما كان  
واستصدر منه امراً يقضي بهدم جميع الكنائس في الوجهين البحري والقبلي  
وأناط ذلك رجلين من المسلمين الا انه لسوء حظ اهالي الوجه  
البحري كان المنوط بنفاذ الامر مشهوراً بشدة بغضته للمسيحيين فخرّب

(١) عرف نيل المورخ ديمورا بهرموبوليس بارفا او دمنهور ولكن ذلك  
التعريف بغير اساس وذكرها كارتيمور المورخ فقال انها تدعى تيمورا وهي مدينة في  
اقليم الغربية شمال الدلتا

كنائس دمنهور واقفل سائر الكنائس في الدلتا وفرض على الاقباط دفع  
ضريبة سبعة آلاف دينار في نظير تمهله عليهم في اقبال الكنائس ولكنه  
بينما كان جاداً في اثر ذلك وقع عن جواده بغتة فقتل لساعته وكان موته  
سبباً في اتقراج الازمة عن الاقباط

اما اقباط الاسكندرية فكانوا أسعد حالا من اقباط دمنهور لان  
والي الاسكندرية كان مشهورا بالعدل والرفق بالرعية فلما صدر اليه الامر  
بالتخريب والسلب أرسل الى أحد رجال الكنيسة المرقسية وأطلعه على  
حقيقة الامر وطلب اليه ان يخفي كل تقيس وغال تلك الليلة فاهتم  
الاقباط بنقل النفائس والامتعة الثمينة ولما جاءت جنود الوالي في الصباح  
لتكيس الكنيسة لم تجد فيها شيئاً غير بعض الحصر والستائر فكتب الوالي  
الى المستنصر يعلمه بالواقع ويخبره بان اقباط الاسكندرية فقراء لا يتدرون  
على دفع الستة آلاف دينار المضروبة عليهم فأمر الخليفة بتخفيض المبلغ  
الى الف دينار فقط فدفع الاقباط نصفها والنصف الآخر دفعه اليونانيون  
كان الاسكندرية وسلم رجال المستنصر الى بطريك الاقباط مفاتيح  
كنيسة واحدة لاقامة شعائر العبادة فيها وتركوا له بيت انيافوس وهو  
أول رجل تعلمد مع ماري مرقس كاروز الديار المصرية وذكركا ترمير  
المؤرخ نقلا عن كتاب مخطوط ان رأس يوحنا المعمدان التي كانت  
محفوطة الى ذلك الوقت في اسكندرية خبأها الاقباط خوفا من وقوعها  
في ايدي المسلمين

وعاد المسلمون الى اضطهاد الاقباط بشدة فألقوا القبض على البطريرك  
 ووجدوا في خزينته ستة آلاف دينار فهبوها واقتسموها ثم أطلقوا  
 سراحه بتوسط ذوي النفوذ من موظفي الحكومة الاقباط  
 وفي تلك المدة التي حكم فيها المستنصر ولى اثني عشر وزيرا بالتتابع  
 وكان يعزلهم لعدم امانتهم وظهور الخيانة في اجراءاتهم وذلك بعكس  
 الاقباط الذين كانوا يظهرون الامانة والاجتهاد فلم يكن للحكومة غنى  
 عنهم وكثيراً ما قام المسلمون عليهم وأشاروا بخلعهم من وظائفهم فخلعوا  
 عشرات ومئات ولم يلبثوا ان عادوا اليها مبجلين اذ لم يكن في المسلمين  
 من يقوم مقامهم في حل المسائل العويصة والقيام باعمال حساب الحكومة  
 وفي ذلك الوقت اصيبت مصر بحادث مريع فانها حلت بها زلزلة  
 هلك بها نحو ٢٥ الفاً من السكان على اقل تقدير



## الفصل التاسع والاربعون

بدر الجمالي الارمني

سنة ١٠٦٥ مسيحية و٧٨١ للشهداء و٤٥٨ للهجرة

لما كانت ام الخليفة المستنصر سودانية الاصل كما ذكرنا في الفصل  
 الماضي كان ميلها الى ابناء جنسها امرأ طبيعياً فما زالت تستخدم السود

في الوظائف الاميرية حتى غصت بهم دواوين الحكومة ونظمت منهم  
 فرقا عسكرية من الجيش وجعلت الحرس الملوكي منهم فاغتازت جنود  
 العرب والأتراك من ذلك وقامت المنافسات بين الفريقين من ذلك  
 الحين وتحزب العرب والأتراك على السودانين وناصبوهم العداوة ووقعت  
 بين الفريقين مذابح دموية عجز الخليفة القاصر ووالدته عن اخادها  
 وتحرير الخبر انه بينما كان المسلمون يحتفلون بسفر الحجاج الى مكة  
 في مكان يقال له بركة تحميره المعروفة الان ببركة الحج سكر أحد الجنود  
 التركية فشهّر سيفه على أحد السودانين فتألبت الجنود السودانية عليه  
 وأوردوه حتفه فاتعجب بركان العداوة القائمة في نفوس الفريقين واحتاطت  
 الجنود التركية والعربية بقصر الخليفة تطلب طرد السودانين من خدمة  
 الجيش فخاطبهم الخليفة يريد اقناعهم بالعدول عن ذلك الطلب فلم يفلح فارسل  
 اليهم مندوبين لمصالحتهم فلم يدعنوا ومنذ ذلك الوقت نشبت الحروب  
 الشديدة بين الطرفين وكان النصر يتراوح فيها بين الفريقين . واظهرت  
 والدة الخليفة ميلها الى نصرة السودانين وامتدتهم بالجنود والذخائر فجازوا  
 على الأتراك فوزا مينا غير ان الأتراك عادوا فلموا شعهم وهجموا على  
 السود مستغلين فدحروهم وقتلوا منهم خلقا عظيما في ذلك اليوم وانتصر  
 حزب الأتراك والعرب على السودانين انتصارا باهرا وطردهم الى  
 الصعيد الاعلى فبعضهم اكثر من خمسة آلاف نفس من السودانين القاطنين  
 بالقاهرة وسرت هذه القلاقل في شمالي أفريقيا وامتدت الى سوريا ولم

يكن الخليفة ذا بطش يمكنه من كبح الثأرين فطمع فيه اترك مصر  
وصاروا يفتابونه

وفي ذلك الوقت قام أحد الفاتنين وادعى انه الحاكم بأمر الله  
بعث من الرمس فتألب حوله كثيرون وسبب قلقاً لرجال الحكومة  
ولكن حكومة المستنصر شمرت عن ساعد الجد على غير عاداتها وقامت  
تلك الفتنة وأعدت السكنينة الى ربوع البلاد . ولما رأَت والدة الخليفة ان  
الوزراء متواطئون عليها وانهم غير مخلصين في خدمة البلاد شددت  
النكير عليهم ورأى الخليفة ان ليس له تفوذ في قصره فحدثته نفسه بالتنازل  
عن الملك الاسمي والتخلص من صلف امه وعنادها وذهب الى القسطنطينية  
ليقضي باقي حياته بالزهد في جامع عمرو ولكن والدته لم ترض بذلك  
بل أرسلت وراءه في الحال فردته

وكانت ظروف الخلافة في تلك الايام على غير مايرام ولقي الاقباط  
والمسلمون في عهد ذلك الخليفة جهد البلاء وكان الاقباط اشد هم ووبلا طبعاً  
وعظم تفوذ ناصر الدولة قائد الاترك بعد نصرته على الجنود السودانية  
وطردها الى الصعيد الاعلى فطمعت نفسه في الخلافة فسعى لذلك باكتسابه  
ثقة والدة الخليفة التي اغترت بدهائه وجعلت امره نافذاً في كل دواوين  
الحكومة حتى صارت اوامر الخليفة غير نافذة الا على حاشيته فقط .  
ومد ناصر الدولة يده الى الخزينة واخذ منها الاموال وفرقها على الجنديّة  
وطمعت الجنود التركية فضجت وتألبت حول قصر الخليفة وطلبت ان



تصرف لها الرواتب الطائلة وتهددوه فخاف من ذلك وافرغ اموال الخزينة  
 بين ايديهم وهكذا اضاع بضعفه ما جمعه اسلافه في ظرف مئتي سنة بالظلم  
 والقسوة. واما منا جدول ببيان النفائس والمجوهرات الثمينة التي اخذتها الجنود  
 التركية واقتسمتها مما لا يسعنا الا بيان عليه تفصيلا . ومن جملة تلك النفائس  
 خريطة مطرزة باسلاك الذهب الابريز مرسوم عليها جميع ممالك الارض  
 بجبالها وانهارها ومدنها وشوارعها ومرصعة بالحجارة الكريمة وكان قد امر  
 الخليفة المعز بصنعها فصنعت له

فكل هذه النفائس وما تحتوي من المصوغات والمجوهرات وما كان  
 يهديه سلاطين الارض وملوكها للخلفاء لعبت به ايدي الضياع في اسبوعين  
 من الزمان واخذته جنود الاتراك التي لا تعرف له قيمة. هذا عدا كثير  
 من انواع الاسلحة والدروع مما كان محفوظا في متاحف الخلفاء

واتفق ان الذي كلف بنقل الاثار لم يعتن بها الاعتناء الواجب فشبث  
 النار في تلك النفائس والمفروشات الباقية فالتهمتها عن بكرة ابيها ولم يبق  
 من كل ما للمستنصر الا المكتبة المملوكية وهذه ايضا لم تسلم من العبث  
 فان ناصر الدولة امر جنوده بنهبها وكان فيها مئات الوف من المجلدات  
 فاخذها الجنود الجبهة وكانوا يتسلون بتمزيقها كما يتسلى الاطفال بتمزيق الاوراق  
 وكان حاكم الاسكندرية احد القواد الذين عهد اليهم بنهب قصر  
 المستنصر فعني هذا بجميع الكتب الثمينة وحملها الى الاسكندرية ولما كانت  
 الفوضى قائمة في البلاد التقى بحاملها عصابة من اللصوص فبددوا شملهم

واسنولوا عليها ونزعوا جلودها واتعلوها ! اما الاوراق فاطلقوا فيها  
 النار وما بقي طرحوه في الصحراء فحملتها الرياح وبقيت الاوراق منتشرة  
 على وجه الارض مدة حتى اطلق الناس على ذلك المكان تل الكتب  
 وظل ناصر الدولة الحاكم المطلق يجور في الرعية ويستبد بالامر والخليفة  
 المستنصر في قصره كالسجين لا يأوي اليه احد من ذوي النفوذ حتى كره  
 الناس ناصر الدولة لما بدا من استبداده فانقلب عليه اعوانه ومريدوه  
 واشهروا عليه حربا عوانا فانهز المستنصر تلك الفرصة وترأس الحزب المضاد  
 فنشبت معركة بين الفريقين اجلت عن فوز المستنصر وهروب ناصر الدولة  
 الى حدود الجيزة وهناك لم شعثه ورتب جيوشه وعسكر على الضفة النيل  
 الشرقية تجاه جيوش المستنصر التي كانت على الضفة الغربية بين بابلون  
 والقسطاط جنوبا ومصر العتيقة والقاهرة شمالا. في ذلك المكان الزاهر المملوء  
 من الحدائق الغناء والرياض الفيحاء والقصور والعمارة نشبت الحرب بين  
 الفريقين فتحولت الى قفار وخرائب وانجبت الموقعة عن انهزام جيوش  
 ناصر الدولة فهرب الى الاسكندرية بمن بقي معه وتحصن فيها  
 وبعد ذلك خطر له ان يحالف بعض القبائل التي على الحدود التي طالما  
 عانت في بلاد الدلتا فسادا فخالقها وجمع منها جيشا عرمرما وزحف به  
 على القاهرة اسلب الملك من يد المستنصر فكانوا وهم زاحفون اليها يهبون  
 ما وصلت اليه ايديهم من مال ومتاع ويسومون الاهالي خسفا وعذابا لا يطاق  
 ويمنعونهم عن تطهير الترع وسقي الاراضي فبارت واقطعت التربة واشتدت

يدم على الاقباط خصوصا فهموا على وجوههم في البراري والقفار وما زال  
الجنود يضطهدونهم حتى بلغوا وادي النطرون فهدموا كنائسه وخرّبوا  
صوامعه وذبّحوا الرهبان الذين فيها ووقع البطريرك خريستو دوس اسيراً  
في ايديهم فاخذت نفوسه من الدير واوسعوه اهانة وتعذيباً ولكن الله دبر له  
طريقاً للنجاة. ذلك ان رئيس كتبة ناصر الدولة كان قبلياً يدعى ابا الطيب  
هذا توسل الى ناصر الدولة ان يطلق سبيل البطريرك ففعل اكراماً  
لخاطره ودفعت ابو الطيب ٣ آلاف دينار فديقه له. وبعد ذلك سعى ابو الطيب  
في انقاذ حاكم طنتندا (طنطا) وقد كان مستخدماً عنده قبلاً فلم يصل اليه  
الا وكان جنود ناصر الدولة قد مزقوه شر تمزيق فحمد الله الذي الهمه  
ان يسعى في نجاة البطريرك اولاً

وبعد ذلك التقت جيوش ناصر الدولة بجيوش المستنصر وقامت الحرب  
بينهما سجالاتاً وروح النصر فيها بين الفريقين واخيراً تضعض حال جيوش  
الخليفة فطمع ناصر الدولة بأخذ الخلافة ولكنه خشي مزاحمة بدر الدين  
الجمالي والي سوريا له فيها فاراد ان يحتاط لذلك فدعا رجلاً يقال له طاهر من  
الاشراف ووعدته ان يوليه الخلافة اذا هو عمل على قتل بدر الجمالي حاكم  
سوريا فاغتر طاهر بذلك فذهب الى سوريا ولكنه لم ينجح في مهمته  
وبقي ناصر الدولة وجنوده يعيشون في الارض فساداً وطففت  
القبائل المحالفة له ايما طغيان ولا سيما في الخمس سنوات الاخيرة من حياته  
اي بين ١٠٦٤ و ١٠٦٨ مسيحية وكانت الجنود تعترض المارة في السبل

والشوارع والطرق لنهب ما بأيديها لافرق في ذلك بين مسلم وقبطي  
فاهملت الترع ولم يقيم النيل بري الاراضي وتراجع السكان عن الزراعة  
والصناعة وكان همهم الوحيد ان يسدوا رمقهم ورمق عيالهم بآية طريقة  
ممكنة فساءت الحال وعم الوبال فنشأ عن ذلك مجاعة عظيمة شمل ضررها  
القاصي والداني قضي عدد عظيم من السكان . وبلغ في ذلك الوقت ثمن  
الرغيف الواحد خمسة عشر دينارا وثمان البيضة دينارا وثمان القط ثلاثة  
دنانير والكلب خمسة دنانير وعز وجود القطط والكلاب فاشتدت المجاعة  
بالناس حتى حتموا على احدهم الاتجار باللحوم البشرية فكان ذلك الغوي  
يخدع النساء والاطفال ويذبحهم ويبيع لحومهم وفنيت جميع الخيل والبغال  
والحمير ولم يبق للخليفة غير ثلاثة خيول فقط ونبشت الناس قبور الخلفاء  
واخذوا النفائس التي فيها واشتروا بها قوتا وتناولوا الى ما في اعناق  
نساء الخليفة وما زال الناس يجردونه من كل ماله حتى بلغت به الفاقة الى  
درجة الاستعطاء فطلب احسانا من بعض النسوة وكانت مشهورة بالغنى  
ولكنها سبقت فوزت ثروتها على المحتاجين والبؤساء فعز عليها ان ترفض  
طلبه فامرت له بصحن شوربة كل يوم لسد جوعه اما نساؤه فانهن همن  
على وجوههن يستجدين نخرجن من القصر مكشوفات الرؤوس حافيات  
الاقدام مولولات نادبات سوء الحالة ولم يكدن يخرجن من القصر حتى  
خارت قواهن من الجوع فسقطن الى الارض وماتت الواحدة بعد الاخرى  
فجاء الجياع والتهموا لحومهن ولا التهام الجوارح جثث القتلى

واتفق ان الوزير قصد قصر الخليفة راكبا بغلته فاعترضه بعض الجياع  
 ورجلوه واخذوا البغلة وذبحوها واكلوا الجملها نديئا وامتصوا عظامها فهرب على  
 قدميه جازعا حامدا ربه على خلاصه من ايديهم وبعد ثلاثة ايام عشروا بثلاثة  
 من جنوده منفردين فتبضوا عليهم وذبحوهم وكشطوا الحومهم عن عظامهم  
 فلما مرهم الوزير في الصباح رأى هياكلهم فعلم انهم قد صاروا طعاما  
 لاجواف الجياع

وفي ذلك الوقت فسدت الاهوية من الجيف فنفشى الوباء في الناس  
 وصار يفتك بهم فتكاذريا فكانوا يموتون الوفا وربوات كل يوم وبلغ الوباء  
 اشده في النسطاط وبابلون فان معدل الوفيات كان عشرة في المائة يوميا  
 وتحالف الوباء والجوع على مدينة تانيس المدعوة الان (صا الحجر)  
 بمديرية الشرقية فاهلكا جميع سكانها ولم يبق بها غير مئة نفس وهلك  
 اسقفها المدعو ميخائيل جوعا مع قطيعه المساكين

ولما اشتد الحال بالسكان ارسل الاقباط الى الملك جرجس ملك  
 النوبة يطلبون منه امدادهم بالمؤونة وكان ملك النوبة يومئذ قد ارسل رجلا  
 يدعي لامون ليرسمه مطرانا على النوبة فرسمه واوصاه ان يخبر الملك  
 في شان المدد فلما وصل الى هناك رفع اليه تقريرا بالحالة السيئة التي باتت  
 فيها الاقباط في مصر فاخذته الشفقة عليهم وارسل اليهم شيئا كثيرا من  
 الزاد . فلما وصل الوفد الذي يحمل المؤونة الى حدود مصر اعترضهم  
 ناصر الدولة بجنوده وارغمهم على العودة من حيث اتوا فعادوا آسفين ووطنى

ذلك الوزير حتى منع كل امداد يرد من الخارج فم البلاء وأشدت الويل  
وروي في تلك الايام ان امرأة قبطية حضرت من القاهرة الى القسطنطينية  
تحمل عقدا تقيسا يساوي الف دينار وجمالت تلتمس استبداله ببعض الدقيق  
فشفق عليها بعضهم وأخذوه وأعطوها كيس دقيق عوضا عنه فقرحت بذلك  
فرحا لا يوصف وخوفها ان لا تصل الى منزلها سالمة استأجرت رجلا  
ليوصلوها الى منزلها في حارة زويلة فساروا من حولها يحملون السيوف  
والحراب وهم فرحون لانهم مزعمون ان ياخذوا اجرتهم شيئا من  
الدقيق فلما وصلت الى باب الزويلة صرفتهم ووزعت عليهم شيئا من الدقيق  
فمضوا فظنت انها امنت شرور القوم لانها صارت على مقربة من منزلها  
ولكن الناس لم يلمحوها الا وانقضوا عليها انقضاض الشواهين ومزقوا  
منها الكيس تمزيقا واخذوا ما فيه ولم تزل منه الا مقدار ما يكفي لصنع  
رغيف واحد

فعملت المرأة ذلك الرغيف وصعدت به على سور المدينة ورفعت  
صوتها مولولة وصاحت بالناس هلموا ايها المطمثون انظروا الى ما وصلت  
اليه حالنا من السعادة ان هذا الرغيف الذي بيدي قد كلفني الف دينار  
فاشكروا الخليفة على ما اوصلكم اليه من الراحة واليسار. فبلغ ذلك الكلام  
مسامع الخليفة فاشتدت به الحال وتكدر من وخزات الضمير فامر  
باحضار رئيس الشرطة وعنفه تعنيفا عظيما واقسم انه ان لم يدبر طريقة لايجاد  
الخبز في اسواق المدينة باثمان معتدلة ليقطن رأسه ويامر بنهب املاكه

نخرج مأمور الشرطة من لدن الخليفة حائراً وفيما هو يضرب  
 انهما آلا داس فقت له الحيلة ان يستدعي تجار القمح الذين كان يعهدان  
 لديهم شيئاً من الغلال وهم يضمنون بها ولا يظهرونها الا للذي يدفع فيها  
 ثمناً طائلاً فاحضروهم واحضر ثلاثة أبقار من المسجونين المحكوم عليهم  
 بالاعدام بصفتهم تجار أيضاً ولما مثلوا لديه صاح في أحد المجرمين قائلاً  
 لماذا تخفي القمح ايها الرجل الطماع والمجاعة قد أهلكت الناس أو است  
 تخاف الله ويوم الدين وأمر السيف بقطع رأسه فأطاره في الحال وهكذا  
 فعل مع الثاني والثالث فارتعدت فرائص التجار الحقيقيين فلما قدم أحدهم  
 صاحوا جميعاً بصوت واحد يطلبون العفو ويظهرون استعدادهم لاجواج  
 الخنطة وبيعها في الاسواق بالثمن الذي يقدره فقام معهم من فوره  
 فاخرجوا الخنطة والدقيق وباعوها في الاسواق بالاثمان التي قدرها  
 رئيس الشرطة وذهب من فوره فاخبر الخليفة بما كان فشكره على ذلك  
 وانقرجت الكربة الى حين ولكن لم يدم الحال على هذا المنوال طويلاً  
 لان الخنطة فرغت ولم يرد المدد من خارج لان ناصر الدولة قطع كل  
 مدد عن البلاد وحاصر الثغور والحدود نكاية في الخليفة قاصداً خلعه  
 والاستيلاء مكانه

وبعد ذلك قام ناصر الدولة في ثغر من رجاله ممن كانوا معسكرين  
 في الصالحية ودخل القاهرة وطلع الى الخليفة المستنصر في قصره فرآه  
 متوشحاً بالثياب البالية جالساً على حصيرة في حالة يرثى لها فشمت به .

وسلط عليه جنوده فاهانوا والدته اهانة عظمى وخطر له في ذلك الوقت  
 ان يستأثر بالخلافة وكان له صهر يقال له دكوز خصما له فاظهر الفرح  
 بقدمه خشية من بطشه وصالحه وما زال به حتى تمكن منه وقتله ذات  
 ليلة شر قتلة نخلصت البلاد من شره ولكن المستنصر لم ينج من كيد  
 حتى وقع في كيد احلافه سنة كاملة وكان موت الوزير ناصر الدولة  
 سنة ١٠٧٣ مسيحية

ولما سئم المستنصر من تلك الحالة استجد ببدر الجمالي والى سوريا  
 وكان من عتقاء المستنصر وهو أرمني الجنس الا انه لم يعتق الدين الاسلامي  
 بل بقي على عقيدته الاصلية (١)

وكبر بدر الجمالي في بلاط الخليفة وصار ينشئ على قيادة الجيوش  
 والنبوغ في الحرب حتى ولاة المستنصر على سورية فحكمها وأحسن  
 ادارتها وظل خاضعاً لمولاه مع الاستقلال في ادارته

فعمد الخليفة المستنصر الى مخاطبته سراً واكد له انه اذا قطع دابر  
 الاتراك يوليه حاكماً على مصر فقبل بدر الجمالي بذلك واشترط على  
 المستنصر ان يولي في مصالح مصر من يشق بهم من رجاله السوريين فقبل  
 المستنصر بذلك وتأهب بدر الجمالي لتجريد حملة على مصر وصمم على

(١) يصعب على المؤرخ ان يتأكد من صحة صراية بدر الجمالي بعد بلوغه  
 الا ان الامير المسيحي الذي يشير اليه ابو صالح المؤرخ بأنه كان سيد مصر حينئذ  
 إنما كان هو الملقب بتاج الدولة



دخولها من طريق البحر رغماً عن اعتراض قواد جيوشه وقصد بذلك  
 ان يفاجئ الاتراك العصابة مفاجأة فتقام بجيوشه بحراً وقصد الديار  
 المصرية حتى وصل الى ثغر دمياط وانزل بها الجنود وسار في الدلتا بغير  
 معارض حتى دخل القاهرة وكان ذلك سنة ١٠٧٤ مسيحية فلما علم الاتراك  
 بما كان ظنوا ان مدعياً بالخلافة قام يزاحم المستنصر عليها فهاهم الامر  
 ورأوا في نظام جيوش بدر الجمالي ما يبط عزائمهم فلذلك فصدوا ان  
 ينضموا اليه

اما بدر فلما رأى ذلك عمد الى اخذهم بالحيلة فلما قدم اليه كبارهم اولم  
 لهم وليمة عظيمة وكان قد اوصى جنوده ان يبطشوا بهم ورتب لكل  
 جندي من الذين اقامهم على هذا العمل اميراً يقوم بقتله وفي نظير ذلك  
 يعطيه سلبه وقصره فسر الجنود بذلك سروراً لا يوصف وبعدا انتهاء الوليمة  
 خرجوا الى منازلهم مطمئنين وكان كل واحد من الجنود المعينة لهذا العمل  
 بازاء الامير المخصص له فبطش كل جندي باميره واما توهم قتلاً بالسيف  
 فلما اصبح الصباح ورأى بدر الجمالي ما كان من امر جنوده برأهم بوعدده  
 واعطاهم غنائم الامراء وقتائسهم واسرع الى الخليفة المستنصر يبشره بنجاح  
 تلك الخديعة ولم يكن قد لاقاه مذ يوم تولى الحكم على سورية فلما  
 لقيه الخليفة قبله في عارضيه وولاه الصدارة العظمى ولقبه بامير الجيوش  
 وبعد ذلك وجه بدر الجمالي همته الى اعادة سلطان الخليفة على البلاد  
 واخضاع الرعية له وكان انصار ناصر الدولة لا يزالون منبئين في طول

البلاد وعرضها تحت قيادة اثنين من زعمائهم احدهما جعل مركزه  
 الاسكندرية والآخر دمياط وظلوا يعيشون في البلاد فساداً حتى ابادوا  
 معظم سكانها نهياً وقتلاً فسير بدر الجمالي عليهم حملة قوية فانتشب القتال  
 بين الفريقين وانتصرت جنود بدر الجمالي على جنودهما ايما انتصار فتفرقوا  
 ايدي سباً واكتسحتهم جنود بدر الى ماوراء حدود الديار المصرية  
 واستراحت بلاد الوجه البحري من شرهم . ومن ثم اخذ بدر يكتسح  
 العصاة الذين صيروا البلاد فوضى في سائر انحاء البلاد حتى عمّت الطمانينة  
 وغنم من الاعداء شيئاً كثيراً من الاسلحة والذخيرة وسبى نساءهم  
 وسلب خيولهم وفرق اجودهن على جنوده وباع الباقيات بيع السلع في  
 القاهرة فكان يبيع المرأة بدينار والجواد بدينار ونصف

ولما رأى الفلاحون رجوع المياه الى مجاريها سروا بما نالهم من تلك  
 النعم وخصوصاً وعد بدر لهم بأنهم لا يدفعون ضرائب مدة ثلاث سنين  
 فعادوا الى فلاح الاراضي واستثمارها بعد ان بارت زماناً طويلاً

ولما استقرت الخلافة للمستنصر وثبتت قدمه في البلاد نما خبره  
 الى سكان مدينة مكة فرجعوا الى سابق عهدهم واعترفوا به اميراً للمؤمنين  
 بعد ما كانوا يعترفون بخليفة بغداد وقاموا على الكسوة النبوية السوداء  
 التي وضعها خليفة بغداد ومزقوها واستعاضوها بكسوة خليفة الفاطميين  
 البيضاء بمصر

ومع ان بدر الجمالي كان يميل الى المسيحيين الا انه لم يظهر ذلك الميل

اليهم واتفق ان احد تجار المسلمين وشى له بان فيكتور مطران النوبة  
امر بهدم جامع للمسلمين هناك فاهتاج بدر الجمالي لذلك وامر بالقبض  
على البطريرك خريستودوس والتي عليه تبعة ذلك العمل فبرهن له البطريرك  
فساد ذلك بقوة غريبة فاقتمتع بقوله واخلى سبيله

واتفق بعد ذلك ان زعيماً من زعماء اللصوص جمع له عصابة قوية  
كان يناوش بها جنود بدر الجمالي في الصعيد وكان القتال سجالات بين الفريقين  
والنصر متراوحاً بينهما فلما رأى بدر وجه الضرر من ذلك سير عليه قوة  
عظيمة فلما رأى ذلك الزعيم الشر باديا هرب الى بلاد النوبة فارسل وراءه  
تجريدة وبعث مندوبين من قبله الى ملك النوبة يطلب منه تسليم ذلك  
الثأر وطالب من البطريرك ان يبعث اسقفا من قبله الى ملك النوبة ليسرع  
في الامر فاجاب البطريرك طلبه وعين لذلك اسقفا يدعى مرقوريوس فقام  
مع مندوبيه وابلغ ذلك الى ملك النوبة فقبض على ذلك الزعيم العاصي  
وسامه اليهم فجاؤا به الى القاهرة ودفعوه الى امير الجيوش فأمر باعدامه  
فاعدموه خارج النقطة المعروفة الان بيوابة الحديد

وانتظمت بلاد مصر واخذت في الرقي والتقدم بفضل عناية بدر الجمالي  
غير انها عادت الى شيء من الفوضى لان فاتحا جديدا من الاتراك  
يدعى عبد العزيز ظهر في فيلطين حينما كانت جنود امير الجيوش مشتبكة  
في مطاردة العصاة في صعيد مصر سنة ١٠٨٦ مسيحية . فانهز عبدالعزيز  
المذكور قرصة غياب بدر الجمالي عن سوريا وقدم اليها وافتتحها بغير كبير

مقاومة ودخل دمشق والقدس وطبرية ورحل الى مصر بأربعين الف  
مقاتل وظل يتقدم بجيوشه بغير معارضة حتى عسكر قرب القاهرة قبل  
ان يتمكن بدر الجمالي من استقدام جيوشه . فوقع بدر في ورطة عظيمة  
فعمد كماداته الى الخيلة والدهاء وبدأ يظهر الوداد نحو عبد العزيز المذكور  
ودارت المخبرات بينهما على ان يدفع بدر الى ذلك الفاتح مبلغاً من المال  
نظير ثقة حملته على سوريا والديار المصرية في نظير جلائته عن البلاد وظل  
بدر يماطل في الوعد ويطلب في امد المخبرات وهو في اثناء ذلك  
يبحث جنوده المرابطة في اعالي الصعيد على التأهب لمنازلة العدو  
باسرع ما يمكن حتى قدمت اليه الجنود . واتفق ان عدد اعظيماً من الحجاج  
وصل الى القاهرة على نية المسير الى مكة فركب بدر الى استقبالهم  
واخبرهم بذلك الغازي ووقف فيهم خطيباً يحثهم على الجهاد ومعاونته في  
انقاذ البلاد من يديه فأثر عليهم ببلاغته فانصاعوا لقوله وانتخب منهم ثلاثة  
الاف نفر ووزع عليهم الاسلحة وأخذ يخبر بعض العربان الدين انضموا من  
أطراف البلاد الى جيش عبدالعزيز ويرغبهم في الغنائم والاموال فسمعوا له وجاءوه  
بانصارهم فانضم اليه جمهور كثير من الجنود في ذلك الوقت جاءته جيوشه  
المرابطة في الصعيد فاجتمع لديه جند كثير العدد فاقتادهم بنفسه وباغت  
بهم صفوف العدو وأبلى فيهم بلاء حسناً ففترقوا طرائق وتمزقوا حذائق  
بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة ففروا من امامه تاركين اشلاءهم في حومة  
الميدان وعشرة آلاف من الصبيان والصبايا كانوا قد سبواهم من سوريا

ليبعوهم في مصر بيع الرقيق

وبعد ان استراح تحت البلاد ولم يعد يكدر صفوها مكدر استراح  
بدر الجمالي من المتاعب والتفت الى تنظيم داخلية البلاد فبنى سور القاهرة  
والابواب الثلاثة المعروفة بباب الزويلة وباب الفتوح وباب النصر وعكف على  
تجديد الجوامع المتداعية وبنى جوامع جديدة بالقاهرة والاسكندرية  
وجزيرة الروضة ثم تمرد عليه اثنان من العامة والتف عليهما خلق كثير  
فسير عليهما حملة عظيمة بقيادة ابنه فكسرتهمما شر كسرة واسرتهمما فقطع  
رأس احدهما والقى الآخر في غيابة السجون

وفي ذلك الوقت وشى بعضهم الى امير الجيوش بان كيرلس مطران  
الجبشة الذي كان يدعى قبلا اينا عبدون يفرر بمسلمي الجبشة الضعيفي  
الايمان ويدعوهم الى شرب الخمر معه عند تناول الطعام . فقبض بدر  
على البطريرك خريستودوس بصفته رئيساً لذلك المطران ليعاقبه عوضاً  
عنه . ولحسن حظ البطريرك لم يكن كيرلس المذكور قد سيم بعد  
مطراناً فدفع البطريرك عنه هذه التهمة وصرح بانه لم يرسم بعد وانه  
مرشح فقط . ترشياً ليس الا وانه عتيد ان يرسل الانبا مرقوريوس  
الطيب الذكر الى الجبشة ليرسم كيرلس المذكور مطراناً وبنهاه عما نوى  
ان يفعل ان كان ماشاع عنه حتماً فاقنع امير الجيوش بذلك وأطلقه .  
وفي تلك الايام نما غيظ المسلمين من الاقباط وازداد حسدهم للبطريرك  
خريستودوس لما شاموه من تقوذه على الجبشة والسودان وكان الحكام

يفضون المراسلات الصادرة والواردة من البطريركخانه الى تلك الجهات  
 وبالعكس ويردونها الى جهاتها منقوضة او يمزقونها حسبما يترآى لهم  
 وبعد ذلك بسنتين انتقل خريستودوس الى رحمة ربه ودفن في  
 كنيسة المعلة في بابلون ثم نقلوا رفاتة الى وادي النطرون وقد دفن في  
 بابلون أولاً لكونه سبق فاتخذها له مقراً بعد خراب كنيسة الكبري  
 في مدينة دهورا (دهنهور) في زمن ناصر الدولة كما قدمنا ولما استقر  
 في بابلون لم يكف بكنيسة المعلة بل جدد كنيسة القديس مرقوريوس  
 (ابو سينين طوه) وجعلها كندراية كبرى ومركزاً لكرسيه وجعل  
 كنيسة العذراء في حي الاروام مقراً له يأوي اليها عند اللزوم وجعل  
 ايراد تلك الكنائس ورسوم المقاضاة في الاحوال الشخصية لنفسه  
 ورضي اسقف بابلون بذلك ولكن الاسقف الذي خافه عارض في هذا  
 الامر ولم يرض به

ومما تقدم يعلم ان بدر الجمالي كان يحترم البطريرك خريستودوس  
 ويحمله ومع انه قبض عليه مرتين باغراء المفسدين الا ان ذلك لم يحط  
 من مقامه وقوبل انتخاب الراهب الذي وقع عليه الانتخاب بعده من  
 دير القديس مرقوريوس بالاستحسان في جميع دوائر الحكومة حتى ان  
 علماء المسامين طلبوا اليه ان يبارك تعمر الخليفة فباركه باحتفال عظيم  
 فتبادل الاقباط بذلك خيراً وكان اسم الراهب الذي اختير للبطريركية  
 جرجس فلما تبين بطريركاً دعي كيراس الثاني وبعد جلوسه بتقابل اتفق

ان جرجس ملك النوبة تنازل عن عرشه الى ابن اخته جرجس محبة  
 فيه وزهادة منه في العالم ورغبة في صرف باقي حياته في عبادة الله .  
 واختار السكنى في دير تفريوس الكائن في البرية على حدود مصر والنوبة  
 وكان الخلاف واقعاً عليها بين مصر والنوبة فلما رأى اهل اصوان ان ملك  
 النوبة اختارها للمقام بعثوا الى الدير وحاصروه طمعاً في ادخال تلك النقطة  
 في املاك مصر ولا ندري ان كان ذلك بايعاز امير الجيوش لالتقاء الرهبة  
 في نفس ملك النوبة او انه صدر من تلقاء رغبة اهالي اصوان فلما حاصروا  
 الدير سلم الذين فيه واخذوا الملك اسيراً وتوجهوا به الى القاهرة فلما وصلها  
 قابله البطريك وسائر الاقباط وجنود الحكومة بالتجلة والاحترام واحتفى  
 به امير الجيوش احتفاءً عظيماً ومنحه قصرًا مشيد البنيان ليملك به ولم  
 يسمح له بالاقامة في البرية فتضى فيه سنة كاملة ومات بعد ذلك

وحدث في عهده ان راهباً قبطياً يدعى ساويرس حديث السن عالي الهمة  
 طمع في البلوغ الى درجة المطرانية فلما بلغه ان مطران الاحباش ضعيف  
 الهمة قليل النفوذ حدثه نفسه ان يأخذ مركزه خصوصاً وانه شاع عن  
 عبدون مطران الحبشة انه غير أهل للوظيفة فاتخذ تلك الفرصة السانحة  
 وسيلة الى بلوغ مقاصده وما زال يستعمل كل حيلة في التقرب من أمير  
 الجيوش حتى نال الحظوى لديه واخبره بقصده ووعدته بدفع مبلغ عظيم  
 من المال اذا هو ساعده بنفوذه وان يتني اربعة جوامع للمسلمين في  
 الحبشة . فسر أمير الجيوش بذلك واصدر امراً الى البطريك كيرلس

يأمره فيه ان يسارع برسامته مطراناً على الحبشة فلم يسعه الا ان صدع  
 بامره وسافر ساويرس الى الحبشة بعزم ماض واعلان القوم انه تعين لهم  
 مطراناً اما عبدون فلانه كان قليل الحيلة لم يتف تلقاءه فهرب الى بلدة  
 تدعى الدهلكه فقبض عليه الاحباش وارسلوه الى القاهرة وبعد ذلك  
 بقليل قطع المصريون رأسه لعله غير معلومة .

على انه وان كان ليس في استطاعة احد ان يبرر الواسطة التي نال  
 بها ساويرس رتبة المطرانية الا انه والحق يقال بذل مجهوده في اصلاح  
 حال الكنيسة الحبشية ولم شعبها ومقاومة العادات الفاسدة الشائعة بينهم  
 وأخصها عادة تعدد الزوجات لان الاحباش مذاعتقوا الديانة المسيحية  
 باقون على عهدهم في تعدد الزوجات سائرون على خطة الشريعة الموسوية .  
 وهم يقولون ان تعداد الزوجات ليس محرماً الا على القسوس والشمامسة  
 فقط مع اعترافهم بان ذلك مخالف لروح المسيح

وعلى اثر جدال في هذا الموضوع قام خلاف عظيم سنة ١٠٨٦ بين  
 المطران ساويرس واساقفة الحبشة وكان اللوم كله على اولئك الاساقفة  
 لمجادلتهم في امر يخالف نص الانجيل الصريح

واتفق ان بعض رجال الاكليروس بمصر ومنهم اسقفان لم تكن  
 ابروشيتاهما مندرجتين بكشف الابروشيات المصرية طعنوا في باقي الاساقفة  
 ووجهوا اليهم تهماً شنعاء وقذفوا في حق اعيان الاقباط من سكان بابلين  
 مقر البطركية ورموهم بالتقاعد نظراً لسكوتهم عن استدراك الحالة



السيثة الجارية في بلاد الحبشة فرغ الاساقفة المطعون فيهم عريضة الى  
البطريرك يطلبون منه التداخل في امرهم وتشليح اولئك الطاعنين وحرمانهم  
من درجة الكهنوت فاجابهم انه كان يمكنه التداخل في ذلك لو كان الخلاف  
واقعاً بين اثنين اما والخلاف واقع بين زمرة الاكليروس فانه يتركهم  
وشأنهم وكل مسؤول عن نفسه

فلم يرتض الاساقفة بذلك وقاموا يلتمسون من امير الجيوش  
التداخل في امرهم وارغام البطريرك باجابة مطالبهم وتوصلوا اليه بواسطة  
رئيس بستانه الذي كان قبطياً وكان البطريرك حينئذ متغيباً في  
الاقليم يزور الكنائس ويفتقد الرعية ويدشن الكنائس التي  
بنيت حديثاً

ولكن امير الجيوش لم يتبع اهواءه في تلك المسألة بل ارسل الى البطريرك  
يطلب اليه ان يأمر بعقد مجمع من الاساقفة برأسه امير الجيوش بنفسه  
فخر البطريرك كشفنا باسما الاساقفة الذين يطلبون لحضور الاجتماع وهم  
سبعة وعشرون اسقفاً جميع اساقفة الوجه البحري واثنان وعشرون اسقفاً  
نصف عدد اساقفة الصعيد ماعدا اساقفة كنيسة بابليون والقندق ( وهي

كنيسة صغيرة في ضواحي القاهرة ) والجزيرة

فلما اجتمع مجمع الاساقفة ترأسه بدر الجمالي في قطعة ارض له خارج حدود  
القاهرة وافتحه بخطبة شائقة حثهم فيها على الاخلاص للبطريرك والخضوع  
له ووبخهم على التنافس والشقاق وشكواهم عليه وطلب من الفريقين ان يوضحا

علة الشكوى والموجب لا رغام البطريك على الانحياز الى فريق دون آخر  
وان يقدم صورة طلبهما في ظرف ثلاثة اسابيع لينظر فيها  
وبعد ذلك امر بتقطع رأس رئيس بستانه لسعيه ضد رئيسه الاكبر  
وبعد ثلاثة اسابيع اجتمعوا اليه وقدم الفريقان مطالبتهما فأخذها ولم ينظر فيها  
بل وقف بينهم يحثهم على العيشة بالصفاء والمودة والاتفاق الحبي ويؤنبهم على  
عدم اذعانهم لرئيسهم الاكبر وقال لهم:—

كان يجب عليكم ان تكونوا البادئين بالقدوة الصالحة طوعا لا امر الانجيل  
لانكم خدام الدين وقادة الشعب الى الفضائل فانتم المرشدون ولستم في  
احتياج الى ان يرشدكم احد الى الواجبات فاذا سمعتم لقولي واطعتم او امري  
عفوت عن ذنوبكم على شرط ان تصافحوا بعضكم بعضا امامي . وبعد ذلك  
امر رئيس حرسه ان يوزع عليهم اوراق العفو . وبعدهذا الخطاب الشديد  
اللهجة الذي لا تعرف ان كان صادرا عن تأثر ديني ام عن غاية سياسية  
ارفض المجلس وذهب كل واحد في طريقه

وقد خجل الاساقفة من عظة امير الجيوش لهم وعادوا الى كنيسة  
القديس مرقوريوس لتقديم التضمرات لله لكي يصفح عنهم وبعد ذلك باسبوع  
تناولوا القربان المقدس وتصافحوا

وبعد ذلك اشتغل البطريك كيرلس بانشاء قوانين دينية جديدة  
تمشت في جميع الكنائس وصارت مرعية الى ما بعد وفاته بزمن  
وفي عهد الخليفة المستنصر هاجر كثير من الارمن الى مصر وسكنوا بها

طمعا في كرم بدر الجمالي الذي هو احدهم فاكرم وفادتهم وخصص لهم بقعة  
في مصر العتيقة تعرف بدير البساتين لسكنائهم. قال ابو صالح المؤرخ ان  
الحاكم الذي حكم مصر باسم الخليفة (والغالب انه بدر الجمالي) قد ابنتى  
الكنيسة الكبيرة في هذه الجهة وظل يرمم ويصلح فيها حتى وفاته.

ولما كثر المهاجرون من الارمن وازداد عددهم اتخبوا لهم بطريركا يدعى  
غريغوري وقام بطريرك الاقباط برسامته مجاملة لهم واحتفى بهم الاقباط  
احتفاء عظيمًا وتوطدت بينهم علائق الصفاء والوداد ونشر البطريرك القبطي  
منشورا اذاع فيه ان كنائس مصر والحبشة وسورية وارمينية متحدة في الايمان  
الارثوذكسي القويم. وبعد ذلك رسم غريغوري اسقف الاقليم اطفيح وظل  
البطاركة الارمن يتعاقبون حتى غزوة الاكراد وتقلص ظل الدولة الفاطمية  
ولشدة اتحاد الارمن بالاقباط نما غيظ المسلمين منهم ما ولكنهم لم ينالوا منهم  
ماربا نظرا لحسن سيرة بدر الجمالي وعدله لانه كان يعلم ان كل ثورة تؤول  
في البلاد الى الخراب والدمار

وفي ذلك الوقت ارسل ساويرس مطران الحبشة أخاه الى أمير  
الجيوش مهدية ولكن أمير الجيوش قابله بالجفاء ووبخه على عدم قيامه  
بوعده وارسل حالا فاستدعى البطريرك وعنفه على تقصير ساويرس في  
ما وعد بارساله الى الحكومة المصرية وفي تقصيره في بناء الجوامع التي قال  
انه يبنيها ولم يكد البطريرك يتمتع فمه ليحتج حتى قاطعه أمير الجيوش  
قائلا اني لا أريد ان أسمع منك احججا و قد حكمت عليك أنت وأسأفتك

ان تبقوا تحت الحجر عندي وان يدفع كل واحد منكم أربعة دنانير يومياً  
تفقة اعالتكم حتى ترسل الى الحبشة وتطلب من مطرانها ان يقوم بتنفيذ  
ما وعد به باقرب فرصة

فوقع ذلك القول على مسامع البطريك وأساقفته وقوع الصاعقة الا  
انه لم ينفذ لسر عجيب دبته العناية الالهية وهو ان ملك التوبة ارسل في  
ذلك الوقت وفداً الى الحكومة المصرية ومعه هدايا فاخرة ويلتمس  
ملك التوبة بلسان ذلك الوفد من البطريك كيرلس ان يرسم له ابن  
المرحوم الملك السابق مطراناً للتوبة فلما فوجيء بدر الجمالي بتلك الهدية  
تمهل في أمر البطريك لانه كان يتمشى على قاعدة اسلافه وزراء مصر  
وهي ان تكون العلائق بين حكومتي مصر والتوبة ودادية

وبعد ذلك سمح أمير الجيوش للبطريك والاساقفة وأخي مطران  
الحبشة بالحضور امامه والدفاع عن أنفسهم فلما أنسوا منه الميل الى سماع  
دعوتهم قام أخو المطران وأخبره بان أخاه بنى سبعة جوامع بدل الاربعة  
فهاج ذلك سخط الاحباش فقاموا عليه قومة واحدة وأتهموه  
بالتحيز للمسلمين وهدموها جميعها فاضطر ان يهرب من وجوههم  
ولم ينقذه من ايديهم الا الامبراطور الذي امر بسجنه في ذلك الحين.

فسكن غضب أمير الجيوش واقنع بعذره الا انه طلب من البطريك  
ان يرسل اثنين من الاساقفة الى ملك الحبشة لاعادة الجوامع التي هدمت  
فارسل البطريك وفداً الى الامبراطور واخبره انه ان لم يبادر الى ذلك

فان امير الجيوش يهدم جميع الكنائس المسيحية في القطر المصري  
 لكن فات بدر الجمالي انه جعل نفسه خصما لرجل عنيد هو امبراطور  
 الحبشة فانه لما بلغه ذلك الخبر استعظمه وارسل الى بدر يقول له قد بلغني  
 مقالك واعلم انك قادم على امر عظيم فلو مددت يدك الى الكنائس  
 المسيحية بسؤ لا يكون مني الا ان اقلب مدينة مكة رأساً على عقب وبعد  
 ان ادمرها تدميراً لا اسمح باعادة بناء حجر واحد الا بعد وزن مثله ذهباً  
 ولما عاد المستنصر الى القوة بفضل اعمال بدر الجمالي رجع الى اضطهاد  
 الاقباط واليهود وجار عليهم كما جار الحاكم بامر الله سلفه وامرهم بلبس  
 الزنار الاسود وفرض الضرائب على افرادهم ولكنهم كانوا يخشى بأس  
 حكومتى النوبة والحبشة فلم يكن يتعرض لرعاياهما  
 اما كيرلس بطريرك الاقباط فصرف باقي ايامه في اصلاح الكنائس  
 وافتقاد الفقراء وفي ذلك العصر تغلبت اللغة العربية على اللغة القبطية وصار  
 الناس ملزمين بطبيعة الحال ان ينطقوا بها ورأى البطريرك نفسه انه  
 خليق به ان يتعلمها

ورقد البطريرك كيرلس سنة ١٠٩٢ مسيحية ٤٨٥ هجرية وتولى البطريركية  
 مخائيل الرابع وقبل جلوسه على الكرسي المرقسي لعب الاساقفة دورهم المعتاد  
 عند تولية كل بطريرك فاشتروا عليه الكف عن تحصيل الرسوم الدينية  
 والتوقيع على صك بدفع مرتب وكيل الكرازة المرقسية بالاسكندرية  
 والغاء الرسوم المعتادة عند توظيف احد الخدام الدينيين والتنازل عن حقوقه

على كنائس بابلون التي ابتدعها البطريك خرستودوس وسلفه على رغم  
 الاساقفة فامضى الشروط ووعدهم انه ينظر في سائر مطالبهم بالرغم عن  
 استحالة القيام براتب ومطالب وكيل الكرازة المرقسية بالاسكندرية بسبب  
 كثرة مطامعه ومن هذه العبارة الاخيرة يرى اللبيب انه اراد عدم القيام  
 بما تعهد به . وبعد ذلك اتاه انبا شنوده اسقف بابلون يطالبه بارجاع  
 اختصاصات الكنائس التي ذكرت في الشروط فتخلص منه البطريك منكر  
 عليه ذلك وقال انه عاد فرفضها عند توليته فصاح فيه انبا شنوده قائلاً لكن  
 ياسيدي البطريك انا بيدي حجة عليك فيها شهود فانتهره البطريك ان  
 يسكت وتهده بحرم كل من يتجاسر على التعرض له

وكان مطران الاسكندرية قد ارسل نسخة من تلك الشروط التي  
 كان قد وقع عليها البطريك ضمناً لراتبه وكانت صورة اخرى من هذه  
 الشروط محفوظة عند اسقف سخاو وهو اقدم الاساقفة عهدا فاجتهد البطريك  
 مخائيل حتى استحصل على نسختين من الشروط المأخوذة عليه وبذل جهده  
 في أخذ الشروط التي مع اسقف بابلون فلم يفلح فصادده فهرب الاسقف  
 الى احد الاديرة ولما كانت بابلون قريبة من القاهرة قام الشعب بالسان  
 واحد واحتجوا على صنعه وشكوه الى الحكومة وطلبوا اعادة انبا شنوده  
 الى كنيسته ورجوه ان يسامحه ففعل وعاد انبا شنوده الى سابق عمله ولم يمد  
 البطريك يفاخه في تسليم الشروط التي معه .

ولشدة بأس بدر الجمالي نظم حكومة قوية فلم تعد تقم منازعات ولا

نبتت عصابات تعيث فسادا في البلاد في ايامه ودام الحال على هذا المنوال  
 حتى توفي سنة ١٠٩٤ مسيحية و٤٨٧ هجرية (١) ولم يزل هذا الرجل معتبرا  
 لدى المصريين شبيها بعمر و بن العاص وبعد ذلك بقليل مات المستنصر  
 الضعيف الرأي بعد ان جلس على عرش الخلافة ستين سنة كاملة مرت عليه  
 في خلالها العبر . وبالاجمال كانت سيئاته اكثر من حسناته وكان في اوائل  
 حياته كارها للردائل مشغوفا بالاداب والفنون الجميلة والظاهر ان الذي  
 دعاه الى ذلك هو نبوغ وزيره النيروزي في فن التصوير اذ كان يلقب  
 يومئذ بشيخ المصورين . واستقدم الوزير يومئذ اثنين للتصوير احدهما رجل  
 فارسي والثاني يدعى القاهر بن العزيز وكانا فرسي رهان في التصوير حتى انهما لما  
 اقترح عليهما ان يرسما صورة احدى الراقصات على حائط واحد خرجت  
 الصورتان متماثلتين فأعطيت لهما الجائزة بالتساوي

ولم يكن التصوير محرما عند الاسلام في تلك العصور الامت راموا  
 اضطهاد الاقباط فانهم يقومون ليلاشوا الصور التي في كنائسهم بدعوى  
 انه ليس بماذون رسم صور بني آدم ولذلك كانوا يتحلون هذه الدعوى  
 لاتمام ما ربههم



يظهر من تاريخ أبي صالح انه مات مسيحيا لكونه دفن في البساتين  
 بجوان في الكنيسة الارمنية

## الفصل الخمسون

تأثير مبادي الحروب الصليبية في مصر

سنة ١٠٩٦ مسيحية و ٨٧٠ للشهداء و ٤٩٠ للهجرة

وخلف المستنصر ابنه الثاني احمد ابو القاسم الملقب بالمستعلي بالله  
وكانت خلافته بالاسم لان الخليفة الفعلي انما كان ثاني انجال ذلك البطل المغوار  
امير الجيوش الذي حكم مصر على عهد المستنصر عشرين سنة فان الخلفاء  
الفاطميين من ذلك الحين لم يكن لهم حظ التمتع بالحرية المطلقة بل عاشوا  
داخل دورهم عيشة التحجب والترف والابهة والعظمة وقلما كانت الرعاية  
ترى مليكها الا فيما ندر وفي ظروف خصوصية حتى اعتادت ان تنظر  
اليه كعبود ومع ما كان للخليفة من قوة السلطان الا ان القوة المنفذة  
كانت بيد الوزراء

ولم يعلم سبب مبايعة ثاني انجال المستنصر بالخلافة وانما نعلم ان ثاني انجال  
امير الجيوش المدعو شاهين شاه الملقب بالافضل اقيم وصياً عليه لان  
اخاه الاكبر عصي أباه فخرمه من حقوق الوراثة وهو على قيد الحياة  
وكانت مواهبه اعظم من مواهب اخيه الاكبر فاستحق ان يكون  
حاكماً لمصر

فلما تربع الافضل في المركز العظيم الذي ورثه عن ابيه جعل همه  
قطع دابر العصاة الذين انضموا الى ابن المستنصر الاكبر وعكروا صفو



## الحكومة الجديدة

وبعد ذلك التفت الى استخلاص سوريا من ايدي الفاتحين  
الأتراك وما زال يصليهم حرباً حتى اعاد ساطة الخلافة على بيت المقدس  
لان الارثقيين كانوا قد احتلوا وامتنعوا فيها فحاصرها ونصب عليها  
المنجنيق فلما رأى المحاصرون ان اسوارها تهدم غادروها وهربوا الى  
شرقي سوريا

ولقد لقيت الديانة المسيحية معاكسة عظيمة من أوثك الارثقيين  
الذين اهاجهم لذلك العرب الفاطميون ومن تلك المعاكسات انهم قبضوا  
على البطريرك الاورشليمي وجروه من شعره وطافوا به شوارع المدينة  
والقوة في السجن ولم يخرج منه حتى اقتداه (١) الرهبان بمبلغ وافر من المال  
وكان كل قسيس او راهب معرضاً للسب والشتم واحتمال قوارص  
الكلام. ومن المؤكد ان الاقباط لقوا من الشدة والاهانة والعذابات  
مالا يوصف وما يؤخذ لاجله مسيحيو الغرب لسكوتهم عن تخليصهم  
من ايدي معذبيهم او بالحري لعدم اعتراضهم على تلك المعاملات

(١) لما ضعفت الدولة الفاطمية بمصر قبل ايام بدر الجمالى تقلص ظل  
تقودها في سوريا وفلسطين وبيت المقدس فخرجت من قبضتها لان السلجوقيين  
خرجوا من بلاد التتر واكتسحوا فارس وساقوا التركمان الرحل الى سوريا وكان  
امير التركمان يدعي ارتق بن اكسك فدرب قومه على الفنون الحربية وسار بهم  
الى القدس ففتحها ودعت دولته بدولة الارثقيين وتوفي ارتق سنة ٤٨٤ هـ عن  
ولدين حكمايت المقدس وفلسطين وسوريا حتى ضربها الافضل بالمنجنيق وبدد شملها

الاستبدادية مع انتشار اخبار تلك القبائح في الافاق على ان اوروبا كانت  
 آتت في سبات عميق. فضلا عن انه عند افتتاح العرب بلاد مصر كان  
 المصريون يعبدون الاوثان ولم يكن للديانة المسيحية تاثير ذو شأن لديهم  
 حتى ان تعذيب بطريك الروم الاورشليمي ووضعه في السجن كما قدمنا  
 لم يبعث روح الغيرة في قلوب مسيحي اوروبا ولا عطف قلوبهم عليهم كما  
 يفعلون الآن حيث يسرون الاساطيل العظيمة على اية بلاد تهين مبشرا  
 او تقتل قسيساً

الا ان الزمن ابو العبر فقد وجدت ظروف اثارته عواطف المسيحيين  
 على المسلمين لانه حدث انه بعد حادثة البطريرك التي مر ذكرها قام سبعة  
 آلاف نفس من اللاتين لزيارة القبر المقدس فلما بلغوا حدود سوريا معهم  
 اربعة اساقفة اساء المسلمون معاملتهم واستباحوهم قتلا ونهبوا ولم يرجع منهم  
 الى اوطانهم سوى النبي نفس فقط والباقيون هلكوا من التعذيب  
 والاضطهادات فاثار ذلك الاضطهاد روح النخوة في نفوس اهل اوروبا  
 وكانت الكاس قد طمخت من كلا الجانبين فلم يعد في قوس الرجاء بايقاف  
 الضغائن منزع فنشبت تلك الحروب الدموية التي يقف القلم عن تسطير  
 فظائعها مما افاضت فيه كتب التاريخ باسهاب ولا مجال لايراده هنا وانما  
 اقول ان الخطب والمواعظ التي استثار بها بطرس الناسك نخوة اهل  
 اوروبا صادفت تربة مخصبة مستعدة للنبت ومن الغريب انها القيت في نفس  
 الوقت الذي استرجعت فيه الدولة الفاطمية سلطانها على اورشليم وسائر

ولاية المقدس فانعقد مجلس كايمنت على اثر ذلك فقرر ادارة رحى الحرب  
لاستخلاص المدينة المقدسة من ايدي الكفار

ولما كانت الدول الاسلامية متنافرة وجد الصليبيون فرصة لتمزيقهم  
فأخذوا تحت قيادة الامبراطور الكس كوف الاول وامعنوا فيهم  
قتلا ونهباً

وفي ذلك الوقت كان السلجوقيون يتقدمون في الفتح في البر الا ناضول  
وما زالوا حتى وصلوا الى القسطنطينية وعسكروا على شاطئ البوسفور  
شرقاً وهددوا المسيحيين الذين فيها الذين كانوا يسمعون صدى التكبير في  
معسكر المسلمين فغير المسيحيون البوسفور وسير واجيوشهم على السلجوقيين  
والتقت جيوش الكس كوف بجيوش السلطان ارسلان مؤسس دولة  
السلجوقية فابلى المسيحيون فيهم بلاء حسناً وكسروهم واستولوا على مدينتي  
نيس وانطاكية فاستجد ارسلان بامراء الموصل ودمشق وحمص فأجحدوه  
برجالهم واحاطوا به وبجيوشه احاطة السوار بالمعصم فلما رأى الصليبيون ما كان  
قالوا مستفتلين وفرقوا شمل العدو واخذوا المعركة وحمص وتلاطمت قواتهم  
كالامواج العظيمة وكان الافضل ابن امير الجيوش لما استخلص بيت المقدس من  
الارتقبيين على ما قدمنا ترك فيها جيوشاً جردارة لترسيخ قدم الخلافة في القدس  
فالتقت بها جيوش الصليبيين واستجر القتال بين الفريقين اياماً متوالية  
وحاصر الصليبيون اوروشايم اربعين يوماً وافتحوها عنوة بعد مقتلة عنيفة  
هلك فيها من المسلمين وخدمهم ما ينوف عن سبعين الفاً وكانت اشلاء القتلى

تلقى اكداساً في الجامع الاقصى حتى انتن الهواء وانتشرت الروائح  
 الكريهة ولم يبرد لظي غيظ الصليبيين بذلك النصر الباهر بل حولوا  
 وجوههم نحو مصر لانهم سكروا بنخمة النصر فلما رأى ذلك الافضل ابن  
 امير الجيوش خاف ان يحل بمصر ما حل ببيت المقدس وزاد خوفاً من  
 اتحاد مسيحي مصر والنوبة باهل اوروبا عليه ولو كان الصليبيون دخلوا  
 مصر كما توهم لكان تغير وجه الارض عما هو عليه الآن ولقامت دول غير  
 التي نراها اليوم ولكن الصليبيين تخاذلوا لان عقارب الحسد ذبت بين  
 قوادهم فاضروا السوء لبعضهم فضلاً عن اعتبارهم الاقباط والنوبيين هم اطقه  
 ولم يخلصهم من الفشل الذي وقعوا فيه الاجود فرى الذي اقاموه ملكاً  
 عليهم نظراً لما تحلى به من الاخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة

وكان من حظ الافضل ان الصليبيين تراجعوا وتخاذلوا كما اسلفنا  
 فانس منهم الضعف وجند جيشاً عظيماً وحمل عليهم حملة عظيمة بمساعدة  
 رجل يدعي سعد الدولة جعله قائداً لجيشه فالتقى بهم تحت اسوار عسقلان  
 فحاربهم بمجد شديد وانتصر عليهم انتصاراً باهراً فأرجعهم عن حدود مصر  
 ففرح بذلك فرحاً لا يوصف واطمان باله على مصر من الخطر الذي كان  
 يتهدها .

فلما انهزم الصليبيون ولم يتمكنوا من الدخول الى مصر حتموا ففسنوا  
 قانوناً يحظر على اليعاقبة وهم اقباط مصر والسودان دخول المقدس فابعدوا  
 عنهم بجهلهم حلفاءهم بالطبع واخوانهم في المعتقد. هذا فضلاً عن ان الاقباط

والسودانيين اشد المسيحيين تقوى واكثرهم زيارة للقبر المقدس فوق ذلك  
القرار لدى الاقباط والسودانيين اسوأ موقع

وتوفي الخليفة المستعلي بالله بمدينة القاهرة يوم الثلاثاء ١٧ صفر ٤٩٥  
هجرية بعد فتح الصليبيين لبيت المقدس بسنة وكانت مدة حكمه سبعة  
سنوات وشهرين فقط وخلفه ابنه المنصور وعمره ٦٥ سنة ولقبه  
شاهين شاه الافضل امير الجيوش بالخليفة الأمر باحكام الله

ولما كانت السلطة بيد الافضل لم يحصل تغيير في الحكومة بوفاة المستعلي  
لأن الافضل امير الجيوش اقيم وصياً على الخليفة الصغير كما كان وصياً  
على أبيه

وفي سنة ١١٠٢ مسيحية توفي مطران الحبشة فارسل امبراطورها  
وفداً الى البطريرك ميخائيل ليرسم لهم مطراناً بدله . فلما وصل الوفد الحبشي  
الى مصر رسم لهم البطريرك راهباً يدعى جرجس مطراناً وسافر معهم  
الى الحبشة ولكنه بوصولها واستلامه ادارة المطرانية دب فيه روح الطمع  
فاسخط الاحباش فتظاهروا ضده فاجبره الامبراطور على رد جميع  
الاموال والمقتنيات التي جمعها بطرق غير محللة واعاده الى مصر حيث طرحه  
الافضل في اعماق السجون . وكانت اعمال البطريرك ميخائيل في اواخر  
ايامه كما هي في اوائلها . ويظهر انه عاش بسلام مع شنوده اسقف بايلون  
بضع سنوات وبعدئذ عاد معه الى الخصام القديم لسبب غير معلوم فعزم  
البطريرك ان يتخلص منه فعقد لذلك مجمعاً من الاساقفة لفحص الاسقف

شنوده ووجه اليه تهمة غريبة مؤداها انه كان في ايام البطريرك السالف  
 يقدس على القربان مرتين في اليوم وهو مخالف للقانون ولذلك حرمه  
 وتوفي البطريرك كيرلس قبل ان يحمله من حرومه ويغفر له ذلك  
 الخطأ العظيم قال البطريرك وبناء على ما تقدم فهو مقطوع الى الآن  
 ويجب ان يحرم ويجرد من كل حقوقه في رتبة الكهنوتية . ثم خاطب  
 الاساقفة قائلاً . ومهما ظنتم ايها الاساقفة في كيفية سلوكي بالحكم في  
 تلك المخالفة القديمة التي تعتبر بدعة في الطقوس الدينية واقامتي الحجة على  
 الاسقف شنوده مرتكبها والحكم عليه بعد مضي عشرة سنوات وعدم  
 اعترافي بتأييد الحل الذي كان البطريرك كيرلس بلا شك يريد ان يسامحه  
 به قبل وفاته فمن الواضح انكم لا تجدون وجهاً لمعارضتي في ذلك لان  
 الحل لم يتم حتى الآن . ثم ارسل في الحال البطريرك ميخائيل الى الاسقف  
 شنوده وامره بان يحضر امام المجمع المقدس ليسمع الحكم عليه بالحرم  
 وقطعه من رتبة الكهنوت وتجريده منها ولكنه ابي الحضور ورفض  
 رفضاً باتاً الوقوف امام المجمع واختبأ في منزل سري في بابلون .  
 فصرف البطريرك المجمع وقام ووضع يده على كنيستي شنوده وهما  
 كنيستا القديس سرجه والقديس باغوص بايلون اللتين قام عليهما النزاع  
 بسببهما وفي الغدا تفق رجوع الوزير الافضل امير الجيوش عن محاربة الاعداء  
 فخرج البطريرك ميخائيل لهنتته بعودته الى الوطن بالسلامة ولكنه  
 لم يرجع الى منزله بعد تلك التهئة الا واصيب بالطاعون وتوفي في غد

ذلك اليوم

ولما كان اثنان من رهبان دير القديس مغاريوس مرشحين للبطريركية  
لاقى الاساقفة صعوبة في انتخاب احدهما ولذا تأخر اقامة بطريرك خلفاً  
للبطريرك مخائيل حتى شهر توت من تلك السنة

وسبب الصعوبة ان احد المترشحين كان عمره اقل من الخمسين  
والقانون الكنائسي لا يصرح بانتخاب بطريرك يقل عن الخمسين . فعزم  
الاساقفة على انتخاب الثاني المدعو مقاريوس . وكان هذا الرجل راغباً عن  
دواعي الشرف وحب الظهور او العظمة والابهة (١)

(١) ذكر المقرئ في تاريخه رواية عجيبة عن هذا البطريرك . وهو انه  
في زمن الخليفة المستنصر تأخر النيل بمن الفيضان وحصل شرق عظيم تهدد بلاد  
مصر بالقحط فارسل المستنصر البطريرك ميخائيل في بعثة الى السودان ومنها لبلاد  
حبشة ليعرف اسباب عدم فيضان النيل فلما سمع امبراطور الحبشة بقدمه نزل  
المقابلته وتبارك منه وساله عن مجيئه فاخبره البطريرك ان الداعي هو تأخر النيل عن  
فيضانه المعتاد وقللة المياه كثيرا هذه السنة يتألم سكان مصر تألماً عظيماً وسيقعون في  
مجاعة عظيمة . ففي الحال امر الامبراطور رجاله ان يفتحوا وادياً من الودبة التي  
يجري منها النيل لمصر فافعلوا ذلك الا وارتفع النيل ثلاثة ياردات في تلك الليلة  
في مصر وما زال يفيض حتى اغرق البلاد . ثم عاد البطريرك الى مصر فخلع عليه  
الخليفة المستنصر وعاملها حسن معاملة بعد ان اكرم وفادته واحتفل بقدمه احتفالاً  
عظيماً

ولكنهم اعترضوا على انتخابه بدعوى انه من ثمرة ناتي زواج (١)  
غير ان الاساقفة عند التحقيق ظهر لهم انه ابن ابيه لزوجة ثانية  
ي ان اياه هو الذي تزوج دفعين لأمه فلم تفلح حجته واذ كان لا يريد  
نصب البطريركية احتج بحجة أخرى فاعترض على القبول بامضاء الشروط  
لتي يوقعها كل بطريرك جديد لدفع مرتب الاسكندريين السنوي بالنظر  
لظلمتهم الكثيرة وانه يأبى ان يقيد نفسه بهذا القيد الثقيل ولكنه اذا  
كان ولا بد من قبوله المنصب فانه يكون حراً فيعطي على قدر ما تسمح  
له ظروفه وحالة الكنيسة المالية . ولكنهم لم يبالوا بكل تلك العراقيل بل  
صمموا على انتخابه وشرعوا في تهديده كما جرت عادتهم عند رسم كل  
بطريرك جديد فلما رأى ذلك خرج من وسطهم وفر الى ديره ليعيش فيه  
بالزهادة والتقشف

فلما حار الاساقفة في أمرهم وبلغ ذلك مسامع اهل الاسكندرية  
خففوا من غلوائهم ورضوا بقبوله على شرط ان يدفع لهم حتى ولو اقل  
من نصف مرتبهم السنوي

وفي السنة الثانية من انتخابه بطريركاً سقطت عكا في ايدي الصليبيين  
بعد ما حاصروها برا وبحرا وكان ذلك سنة ٤٩٧ للهجرة ولما طال المطال

(١) من ضمن شروط انتخاب البطاركة في قانون كنيسة مصر ان الطريرك لا  
يختب الا اذا كانت امه لم تتزوج الا زوجاً واحداً بمعنى انه لو توفي زوجها  
لاول وتزوجت باخر فالولادها من الزوج الثاني لا يصح ان ينتخب منهم بطريركاً



على الصليبيين هجموا على المدينة بقوة وشدة بأس وافتحوها عنوة وفتكرو  
 بالذين فيها فتكا ذريعاً وكانت عكا تابعة لمصر وعليها حاكم من قبل الافضل  
 يلقب بامير الجيوش واسمه زاهر قمر من بين ايديهم ونجا بنفسه . وفي ذلك  
 الوقت اتحدت كلمة الصليبيين تحت قيادة الكونت سنجيل فاغتنموا فرصة  
 انقسام القوات الاسلامية وساروا الى طرابلس وضيّقوا عليها الحصار  
 فاستنجد اهلها بالخليفة في مصر فامدهم الافضل بجيش جرار واسطول قوي  
 ولكن النجدة وصلت متأخرة فسلمت المدينة ليد الكونت وكان ذلك  
 سنة ١١١٠ مسيحية و ٥٥٣ هجرية

وما زال الصليبيون يفتحون البلاد في سوريا حتى استولوا على طرس وس  
 وحمص وجبيل ولم يتركوا للخلافة الفاطمية فيها اثر ارغماً عن استبسال  
 الافضل ودفاعه عنها . غير ان الافضل جعل همه الدفاع عن مصر حاسباً  
 ان السلامة كل السلامة في بقاء مصونة من يد الاعداء لانه علم  
 جيداً انه لولا انقسام الصليبيين باديء بدء لما بقيت الى ذلك الوقت آمنة  
 صروف الحدتان

ولكن اقباط مصر كانوا يتمنون ان يستمر الصليبيون على ايمانهم في  
 سوريا فتحاً ونهباً واستيلاء على ارباضها وان يفعلوا كذلك بمصر رغماً عن  
 عملهم انهم لا يستريحون مع الالابن باكثر مما يستريحون تحت حكم المسلمين .  
 وقد جاء حكم الواقع مصداقاً لما دار بخلدكم لان بلدوين الذي خلف جو دفري  
 على قيادة الجيوش الصليبية ملك على سوريا وفلسطين وجعل بيت القدس

عاصمة المملكة استصدر أمراً من البابا يقضي بضم البلاد التي فتحها  
 الى بطريركية اللاتين في اورشليم فلما حصل على ذلك الامر  
 خرج من بيت المقدس بجيش جرار الى مصر فوصل الى مدينة  
 الفورمة التي بنيت على انقاض مدينة بلوزيوم القديمة في زمن الفراغة  
 وحاصرها وهدم مبانيها وجوامعها وقتك باهلها ومنها قام الى مصر ولكنه  
 لم ينل منها مآرباً لانه اصيب بمرض عضال وهو سائر في الطريق فكر  
 راجعاً بجيوشه الى بيت المقدس فمات على مقربة من العرش فنزعوا احشائه  
 منه ودفنوها هنالك واقاموا عليها حجراً كبيراً ولا تزال تلك البقعة  
 تدعى الى الآن برمال بلدين اما جثته فحملوها الى المقدس فلما رحلت  
 الجيوش الصليبية عن مصر هدأت الخواطر وقرت الاعين واطمان بال  
 الافضل وقضي حيوته بسلام وكان للاقباط في عهده خير كثير  
 وفي كل هذا الزمان كان الخليفة الامر باحكام الله محتجباً في قصره  
 عن عيون الرعية لا يخرج الا نادراً ولا يعرف سوى الابهة والشرف ولم  
 يدرك مما كان يجري شيئاً وكانت يد الافضل النشيطة تدرأ عنه الاخطار  
 وبلغ من العمر يومئذ خمساً وثلاثين عاماً ولم تحدثه نفسه باعلان رشده  
 وتولي زمام الامور بيديه . وبعد ذلك خطر له ان يظهر نفسه فلم ير  
 وسيلة لذلك الا قتل الافضل وزيوره المخلص فاستقدم بعض الحمل العائنين  
 الذين كانوا منتشرين في اطراف سوريا ويسمى بهم بعض المؤرخين بالاسماعيليين  
 نسبة الى اسماعيل رئيسهم الذي كان يقتال النفوس بطرق وحشية على مثال

ما يجري من النهيست والقوضيين في هذا العصر وطلب اليهم ان يقتلوا الافضل فقتلوه ولم يلبث ان قتل هو ايضاً بايدي رجال تلك الشذمة البطالة

واغتم اسماعيل فرصة اشتغال الصليبيين بالحروب فاستقل بالقرى الجبلية القريبة من دمشق واستفحلت شوكته بها والتف عليه كثيرون فبنى الحصون والمعقل وارهب السكان من نصارى ومسلمين وضرب عليهم الجزية فاعطوها له صاغرين آنحلاً من فتكه وبأسه وفي سنة ٥٣٤ هجرية اتعد بعض دهاته الى الحاكم بامر الله فقتلوه وهو ذاهب الى زيارة احدى عشيقاته من البدو بعد ان حكم ٣٠ سنة بالاسم لا بالفعل

ومات الافضل (١) عن ابن وحيد خلفه في حكم مصر فعلاً كما كان ابوه اما الآمر باحكام الله فلم يكن له اولاد ذكور فلما مات وكانت زوجته حبلى نادوا بآبن عمه عبد المجيد بن القاسم الحافظ لدين الله نائباً للملك الا انها وضعت انثى فبايعوه باخلافة ولقبوه بالحافظ لدين الله

وقبل وفاة الافضل حدث زلزال عظيم شعرت به البلاد المصرية من اقصاها الى اقصاها تهدمت بسببه كنيسة المختار والمقول ان للافضل يداً في ذلك لانه اغتم فرصة حصول الزلزال وهدمها اذ كانت قائمة في وسط بستان جميل

(١) ان الافضل هو الذي امر سنة ١١٠٧ مسيحية باستبدال التاريخ القبطي بالتاريخ الهجري في سائر دواوين الحكومة .

وظلت الخلافة الفاطمية تنتقل من واحد الى آخر بطريق الاغتيال  
 وقتل الكبراء زمناً هذا مقداره وقد قتل ابن الافضل وحفيده وفيما  
 كان المسلمون يتنازعون كان الاقباط آمنين شرم

وتوفي البطريرك مغاريوس سنة ١١٢٩ مسيحية بعد ان شغل منصب  
 البطريركية اربعة وعشرين سنة ونيق وكانت كل سني حيوته سرا ورخاء  
 على امته وبعد وفاته بقي الكرسي خاليا نحو سنتين لاسباب لم تعلم حتى انه  
 لما استدعي الاساقفة للحضور كالعادة لانتخاب خلف له لم يحضر الا بعض الكهنة  
 والشمامسة وغيرهم من العلمانيين ولم يلب احد الاساقفة الدعوة فانصرف  
 المجتمعون على غير نتيجة وتوجه بعضهم الى كنيسة دير القديس مغاريوس  
 لينظروا في هذه الاحوال الخارقة العادة. وبعد ذلك انتخبوا رجلاً يدعى  
 غبريال كان يلقب بالعربي بأبي العلاسعد بن تارك وهو سليل عائلة قبطية  
 قديمة كان في اول امره علمانياً وصرف زمناً في خدمة الحكومة فلما عزل  
 صار شماساً في كنيسة القديس سرجيوس في بابليون فحصل على وقار كثير  
 نظراً لمعارفه العلمية وتقواه وكان يعرف العربية كمعرفة القبطية وشغف  
 بجمع الكتب القديمة

وفي ذلك الوقت كان الخليفة الحافظ لدين الله مشغولاً بوضع حد للقلاقل  
 التي كانت قائمة بين رعيته بشأن تولية وزير للدولة فلكي يرضي جميع الاحزاب  
 اسند منصب الوزارة الى رجل ارمني هو شقيق البطريرك الارمني فهدأت  
 احوال الاقباط وتعزز مركز المسيحيين. فقام ذلك الوزير بمهمة خير قيام

واشتهر بمودته للمسلمين غير انهم غدروا به بعد ذلك وثاروا عليه بحجة ان  
 للمسيحيين من النفوذ بسببه ما يمكنهم من السلطة ويعيد البلاد الى  
 قبضة ايديهم .

وكان القائم بهذه الثورة رجل يدعى رضوان لطمعه في الحصول على  
 الوزارة فلما رأى الوزير الارمني الملقب بتاج الدولة ما كان ابى ان يكون  
 سبب نزاع يؤول الى فتنة وهياج فاستغنى من منصبه ورجع الى طيبة ليقيم  
 مع اخ له كان حاكماً القوصية فوجد ان رضوان سبقه اليها وقتن اهلها على  
 المسيحيين وقتل اخا تاج الدولة شر قتلة . وابتسكان المدينة على تاج الدولة  
 ان يحل بمدينتهم فلما رأى ذلك هاج به الغضب وعزم على ان يجمع انصاره  
 ويحاصرها ولكنه عاد فاتنى عن عزمه وذهب الى احد الاديرة ليعيش  
 فيه مترهباً

وفي ذلك الوقت كان رضوان يتقدم برجاله على مصر القديمة وبابليون  
 والقاهرة ويأمر جيوشه بسلب المسيحيين ونهب امتعتهم وجعل همه الضغط  
 على الاقباط ومصادرتهم والادعاء عليهم بانهم غير اكفاء للوظائف فضاغف  
 الضرائب المقررة عليهم . ولكنه فاته انه بذلك افسد شؤون الحكومة التي  
 لم تكن تستغني عن الموظفين من الاقباط في الاعمال الكتابية اذ كان لزومهم  
 للوظائف الكتابية كالزوم اعمدة الكنائس للجوامع التي شادها المسلمون  
 في عصور الاضطهاد ولكن خطة الوزير رضوان العوجاء لم تفلح لان  
 المسلمين اتسهم تقموا عليه وطردهوه فخرج اسفاً قبل ان يتم له ما كان قد

دبره من ذبح الاقباط والارمن الذين استوطنوا مصر بكثرة على عهد بدر  
الجمالي امير الجيوش .

فارتبك الخليفة في اختيار وزير لدولته وكان يود ارجاع تاج الدولة  
ولكنه خاف من انه اذا اعلن هذا العزم ينقم عليه المسلمون فارسل اليه سرا  
يرجوه ان يعود الى مركزه فابى العودة بدعوى انه صار راهباً ولكنه  
يقبل بان يساعده في الثورة بغير ان يخرج من ديره .

وكان عدد الارمن في مصر عظيماً وتقوؤم متزايداً من زمن الوزير  
بدر الجمالي فلما مات بطريركهم طلبوا من البطريرك غبريال ان يرسم لهم  
اسقف اطيح الارمني بطريركا وان يرسم تاج الدولة اسقفاً بدلاً منه  
وكان البطريرك غبريال عاقلاً بصيراً بعواقب الامور فخشي معارضة  
الكنيسة الارمنية له واعتبارها ذلك تطفلاً منه فابى ولكنه لما رأى الارمن  
مصرين وقد رغبوا الى بعض الاساقفة ان يجيئهم الى طلبهم عاد الى  
الرضى واجابهم الى ما طلبوا وكان جميع الذين تقدموه يعتذرون عن قبول  
التقدم والرسوم لدى رسامة اساقفة او بطاركة ثم يعودون فيقبلونها اما  
هو فابى القبول قطعياً ولم يأخذ من الثلاثة والخمسين اسقفاً الذين رسمهم  
في عهده القصير الذي لا يزيد عن ستة عشر سنة مليماً واحداً

وفي ذلك الوقت أتى اليه وفد من قبل امبراطور الحبشة يحمل  
خطابين مهمين أحدهما اليه والآخر الى الخليفة يعترض فيهما امبراطور  
الحبشة على القانون الكنائسي القاضي بقصر عدد اساقفة الحبشة الموجودين

بثلاثة مطراتها على سبعة فقط ويطلب التجاوز عن هذا القانون  
 ح بالمزيد . وقد كان قانون الكنيسة القبطية يحظر زيادة الاساقفة  
 ببشعة عن هذا العدد خيفة من ان تستقل الكنيسة الحبشية عن أمها  
 سة المرقسية لانه اذا بلغ عدد الاساقفة اثني عشر فانه يجوز لهم  
 نخبوا منهم بطريركا وربما كان غرض امبراطور الحبشة بذلك  
 اض الوصول الى هذه الامنية . وقد كان الاسقف الحبشي الذي  
 ح لدرجة المنارانية يسافر الى مصر ليرسمه البطريرك نفسه اما الآن  
 ان الحبشة يجب ان يكون من الاساقفة المصريين ويرسمه البطريرك  
 له الى هناك

والغالب ان هذا الخوف كان في غير محله لان علاقة الممالك المسيحية  
 بها كانت مبنية على أسس المحبة والاحلاص فرأي امبراطور الحبشة  
 سة بلاده لا تخول الاساقفة السبعة الوقت الكافي للاشراف على  
 ت الامة الدينية فرجا البطريرك ان يكف عن تحديد العدد . وأرسل  
 سة بناء على الحاح امبراطور الحبشة الى البطريرك يطلب منه التساهل  
 لا امبراطور في مطالبه فابى البطريرك قبول ذلك الطلب واعتذر الى  
 سة مينا له ان قبوله بذلك يؤول الى فتور العلائق وخروج البلاد من  
 سلطته . فاقنع الخليفة بذلك ومهما يكن البطريرك غبريال مصيباً  
 شاحة في انه أضرب بالحبشة ومنع تقدمها وصلاحها .

وبعد ذلك سن البطريرك غبريال قانوناً يحتوي على ثلاثين مادة

واضافه على قوانين الكنيسة المرعية يحرم في احداها على الاكل  
 حضور الالعاب والمراقص ونحوها وفي غيرها منعهم عن الرقص وال  
 في ايام الاعراس وتأجيل الاحتفال بالاكليل الى المساء ومنع في  
 اخرى الصلوة على الموتى في ايام الاحاد وممارسة سر المعمودية في  
 الصلوة في الكنيسة وألغى عادة دفن الموتى في الكنائس وحتم على  
 في المادة الرابعة والعشرين منه بعدم السماح لغير زوجاتهم وام  
 وعماتهم وخالاتهم وجداتهم بالسكنى في منازلهم ولم يذكر بناتهم لا  
 داخلات ضمن الدائرة الاكثر قربى

وتوفى البطريرك غبريال سنة ١١٤٦ مسيحية وانتخبوا له خلفا  
 معروفا بشدة التقوى والنسك وكان اميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة  
 بالقبطية او العربية غير انه كان يحفظ القديس عن ظهر قلبه فلم يمنع  
 من انتخابه لشدة لياقته لذلك المنصب الخطير فرسموه في كنيسة باب  
 باحتفال عظيم غير انه لم يطل زمنه فتوفى مسموما . قيل ان الذي اقبل  
 سمه واحد من الرهبان اتباعه ممن لم يحتمل صرامة تأديبه ورسم الاس  
 بدلا منه واحداً من الاثنين اللذين كانا مرشحين للانتخاب عند  
 وفي سنة ١١٤٨ مسيحية نشبت حرب صليبية اخرى انزعجت  
 قوس الناس وتهددت مصر ايضا وبيان ذلك ان الكونت روجير الثاني  
 سيسليا وقائد النورماندين وصل بجيوشه برا الى حدود مصر شمالا و  
 الاسكندرية فجاءه غير انه رحل عنها بجيوشه لسبب غير معلوم



وفي ذلك الوقت ظهر رضوان مرة أخرى يعثو في البلاد ويشن  
 على السكان وجعل نفسه حاكماً على الأربع مدن. أما الخليفة الحافظ  
 في قصره ولم يبد مقاومة. ولكن رضوان لم يلبث هذه المرة سالماً  
 في لاذي طويلاً اذ قام عليه احد اعدائه وقتله وبعد ذلك بقليل توفي  
 بن ثمانين سنة تاركاً اربعة اولاد ارضدهم المدعو اسماعيل بن منصور  
 لامر الله المعروف بالظافر



## الفصل الحادي والخمسون

انشقاق مرقس بن قنبر

سنة ١١٤٩ ميلادية و ٨٦٥ للشهداء و ٥٤٤ للهجرة

جلس اسماعيل ابو منصور الملقب بالظافر على عرش الخلافة القاطمية  
 بعمره وقتئذ ثمانية عشر سنة فقط وكان كثير الميل الى دواعي اللهو  
 والالتهاء بالجوارى وصرف حياته في هذا العمل غير مراع  
 مملكته ولا ناظراً الى اللدائس التي تحدث في بلاطه غير حاسب  
 ساباً مع عليه انها توول الى خراب مملكته وبتقدم جيوش الصليبيين  
 لم يبد حراً كما كانه شاعر بقرب انجلال دولته . وكانت شؤون  
 مصرية موكولة لوزيره المدعو عباس الذي نال الوزارة  
 اذ فاز بقتل خصمه وصار صاحب القدر المعلى في الحكومة

المصرية وكان يمكن للظافر ان يعيش عمراً طويلاً ولو بلا عمل يذو  
 في مملكته ويتمتع بملاذه الدنيوية مثل المستنصر لما كان يسمى وراه  
 العالمية التي حطت من مقامه الا انه لم يرق له ذلك بل سعى الى  
 بظلمه لعدم امتناعه عن العبث بشرف عائلة وزيره عباس الباطش  
 مهملاً فلم يحتفظ على نفسه وغرق في شهواته واهوائه فافضى ذلك  
 قتله وذلك انه بعد جلوسه باربعة سنوات اي سنة ٥٤٩ هجرية شق  
 وزيره العباس ذلك السلوك السيء سيما ماشاع يومئذ على السنة الذ  
 من انثلام عرضه كما ألمعنا فراد العباس ان يتخلص منه فدعاه الى وليما  
 داره و اشار الى ابنه بقتله قتلته سراً وكان ذلك في شهر محرم سنة  
 هجرية ولكي يخفي حيلته اتى الى قصر الخليفة وطلب مقابلته  
 انه لم يعرف عن امره شيئاً فبحثوا عنه فلم يجدوه فسألوا عنه الح  
 فقلن انه لم يبت عندهن تلك الليلة فتحققوا مقتله ولكي يثبت العب  
 حيلته وينفي التهمة عنه وعن ابنه اخرج يوسف وجبريل اخوي الف  
 واتهمها بقتل اخيهما امير المؤمنين فاكبر ذلك وانكراه وكانا  
 صادقين في هذا الانكار فقتلها في الحال على هذه التهمة . اما ابن الف  
 فكان طفلاً صغيراً اسمه عيسى لا يزيد عمره عن خمسة سنوات وهذا  
 شاهد مقتل عميه ورأى جثتيهما تنخبط بالدماء على الارض فزع من ذلك  
 المنظر واضطرب اضطراباً شديداً حتى صار كالمعتوه وبال على كتف العبا  
 الذي حمله وقتل وسار به في وسط الامراء ونادى قائلاً هذا ابن مويلا

المقتول فاطيعوه فقبلوا طاعته وبويع خليفة في الحال وسموه الفارز الناصر  
بالله وردوه الى حضن امه مصر وعا محتاجاً

فاترد بعد ذلك العباس بالتصرف في كل شيء لكنه شعر بشططه  
لانه علم ان اهل القصر علموا بمكيدته وصاروا يدبرون له الحيلة في قتله  
مع ابنه وبعد ان اهاجوا الجيش عليه وخصوصاً الفرق السودانية كاتبوا  
بذلك طابع بن رزيك الارمني الملقب بالصالح وكان وقتئذ حاكم المنيا  
( منية خصب ) واستقدموه الى كرسي الخلافة وولوه الوزارة بدل  
العباس الذي لما رأى الخطر محققاً به خرج لساعته من القاهرة مع ابنه  
نصر وحمل ما امكنه حمله من المال وفر هارباً مع جماعة يسيرة من اتباعه  
الى الشام وذلك في ١٤ ربيع اول سنة ٥٤٩ هـ . فكتبت اخت الظاهر وراءه  
للافرنج بعسقلان ليخرجوا عليه ويمسكوه وجعلت لهم مالا جزيلاً نظير  
ذلك . فخرجوا عليه واخذوا ماله وولده وقتلوه بعد انهزامه مع اصحابه  
امامهم ثم ارسلوا ابنه نصر لاخت الظاهر بمصر داخل قفص حديد مع  
رسل فسلموه لرجالها واستلموا المال الذي وعدتهم به مكافأة لهم  
على قتل العباس . ثم أخذ رجال اخت الظاهر نصراً وجلدوه بالسياط  
وحرقوه . وصلبوه على باب زويلة وانزلوه بعد موته يوم عاشوراء سنة ٥٥١  
اما الصالح فبعد ان قدم بجيوشه الى القاهرة تكفل بالخليفة الطفل  
وشؤون المملكة بدل العباس ولكن طمعه لم يقف عند حد محدود حتى  
لما رقي الى درجة الوزير الاكبر تافت نفسه الى العلي فلقب نفسه الملك

الصالح . ولكن لم يتم بما يبرهن تعزيز دعواه لان الدلتا الشرقية  
كانت في ذلك الوقت مهددة بالغزو يغير عليها فيألق الافرنج الذبن  
بعسقلان وغزة ولم يكن بجسر ان يحاربهم اوان يقف في وجوههم لما فيه  
من الجبن ولذلك اشترى راحته بدفع جزية لملكهم بيت المقدس .

وضايق الاقباط مضايقة شديدة ووقع عليهم ضرراً بالغاً كان تأثيره  
عليهم اشد وقعاً من الاضطهاد الحقيقي السابق فارتعدت فرائصهم وحل  
بهم الوجع والاضطراب

وبيان ذلك ان مدينة المطرية كانت تعتبر لدى الاقباط مقدسة نظراً  
لزيارة العذراء المباركة والسيد المسيح لها كما ورد في الانجيل ولا يزال كثيرون  
من انحاء العالم يترددون على زيارة هذا الاثر الشريف وجعلهم من البلاد  
الغريبة وفيهم كثيرون من انكثرا هذا فضلا عما اشتهرت به من البساتين  
الجميلة والحدائق الخضراء والرياض الغناء والينابيع الدافقة والروائح الزكية  
كل ذلك مما بحث على اشتهار صيتها كأنما هي خصت ببركة السيد المسيح وكانت  
المطرية اشبه ببايلون من حيث سكنى الاقباط بها وبناء كنائسهم فيها .  
وفي تلك الايام اغتصب الملك الصالح احدى تلك الكنائس وحوّلها جامعا  
وفي تلك الاثناء كانت الكنيسة القبطية تقيم الصلوات وتكثر من  
الاحتفالات الدينية فحدث ان رهبان بعض الاقاليم اضافوا على الصلوة  
التي تتلى على القربان المقدس لفظة معطي الحياة فاعترض اسقف ابرشية  
سمنود على هذه البدعة ورفع الامر الى غبطة البطريك فامر هذا بعقد

مجمع من الاساقفة وبعد النظر في ذلك قرروا صوابية الاضافة واتقضت  
 المشكلة على سلام الا انه حدث في جو الكنيسة مشكلة اخرى  
 ويان ذلك انه قام بعضهم يومئذ واعترضوا على استعمال البخور في  
 الكنائس الذي يقوم باحراق اللبان في المبخرة. ومن المعلوم ان البخور  
 لم يكن يستعمل في الاجيال الثلاثة الاولى من العصر المسيحي وهو عادة  
 وثنية الا ان المسيحيين صاروا يستعملونه في كنائسهم من بعد القرن الرابع  
 بدعوى انه يطرد الروائح الكريهة الناجمة عن ازدحام جماهير المصلين ولم  
 يكونوا يباركونه قبلاً ولا يعلقون عليه كبير اهمية ولكن من بداءة الجليل  
 السادس صاروا يباركونه فيقول الكاهن عند ما يحمل المبخرة فليبارك الرب  
 هذا اللبان لازالة كل رائحة كريهة وسامة وليبارك في وقوده لرائحته الزكية  
 ومن ذلك الوقت صار يعتبر طقساً دينياً كأنما هو وسيلة لاصعاد صلوات  
 الشعب الى العرش الاعلى حتى اعتاد الكاهن ان يقول فتكن صلواتي امامك  
 كبخور لبان يارب

وكذلك الاعتراف السري امام الكاهن فانه عادة عامة في جميع الكنائس  
 المسيحية الا انها سرت في الشرق قبل سريانها في الغرب ولم تكن فريضة  
 الزامية الا في اواخر القرن الرابع. وذلك انهم رأوا ان اعتراف الانسان  
 علناً يفضي الى فظائع هائلة. ولهذا نهى أنبا باسيليوس مطران اورشليم  
 احدى النساء عن الاعتراف جهاراً بخطية الزنى خوفاً من ان يبلغ ذلك الى  
 سماع زوجها فيقوم عليها ليقتلها ومن ذلك الحين اخذ المسيحيون يعترفون

سرا امام الكاهن وصار للكاهن ان يميز بين الخطايا الواجب الاعتراف بها  
 علناً وتلك التي يجب ان يعترف بها سرا وبمرور الزمن صار الرؤساء الروحانيون  
 يقيمون كاهنا لكل كنيسة كبرى يختص باقتبال الاعترافات وصار هذا  
 الأمر فرعا دينيا من فروع التقاليد غير انه النقي من الكنائس الشرقية  
 وبالجملة من الكنيسة المصرية في نهاية القرن الرابع . ولم يزل الاعتراف  
 سرا امام الكاهن جاريا في الكنائس القبطية حتى يومنا هذا انما بغير قاتون  
 خاص به كما في الكنائس الغربية كما وانه لم يكن يتحم وقوعه قبل تناول  
 الاسرار المقدسة وذلك لانهم يعتقدون ان الانسان لا يدخل في مصاف  
 الرجال ويناقش الحساب على الخطاء الامتى تزوج ولذلك كانوا يبادرون  
 الى تزويج الاحداث ومتى تزوج الحدث لا يتناول السر المقدس قبل ان يعترف  
 امام الكاهن سواء في منزله او في الكنيسة . اما قبل الزواج فانهم كانوا  
 يعتقدون ان الفتى يكون قاصرا ويحرسه سر المعمودية من الوقوع في الخطية .  
 وكان المعترفون بعد الاعتراف بخطاياهم العلنية التي لا يخشون الاباحة بها  
 يركعون ويعترفون في سرهم بخطاياهم السرية التي لا يتقدمون على التصريح بها  
 وفي اثناء ذلك يطلق البخور ويطوف الكاهن بالمبخره حول كل الكنيسة  
 والهيكل وتكرار هذه العادة صار الناس يعتقدون ان البخور من لوازم  
 الصلوة وانه يحمل اعتراف الخطاة الى امام عرش الله

وزاد الاعتقاد في البخور بهذا المقدار في القرن الثاني عشر للمسيح

حتى ان العامة كانوا يستغنون عن الكاهن في اقتبال الاعتراف ويحرقون

اللبان في منازلهم ويجثو الواحد منهم لدى المبخرة ويتوسل توسلات شديدة  
 معترفا بخطاياهم بخشوع وتقوى وهو يزعم ان البخور يرفع توبته الى المولى  
 ويستنزل رحمته تعالى عليه . وسبب ذلك ان الاعتراف لدى الكهنة تسبب  
 عنه فضائح مشينة وكان الشعب ينظرون اليه بعين الريبة وخصوصا اذا  
 بدا من النساء فجرت العادة ان يعتبر البخور حاملا للاعتراف ووسيلة  
 الى جلب الغفران

فقام كاهن قبطي في عصر البطريك يوحنا الخامس وقاوم هذه  
 العادة مقاومة شديدة وكان يدعى مرقس بن قنبر (١) تميزاله من رجل  
 يدعى مرقس كان في زمانه بطريكا

وكان ابن قنبر كاهنا بأقليم الصعيد رسمه اسقف دمياط وكان رجلا  
 فصيحاً نبيلاً يخطب في الشعب فيختلف الالباب بقوة البيان وفصاحة  
 الخطاب وكان يحث الشعب على وجوب الاعتراف السري ونوال الحل من  
 الكاهن وجاهر بان لا مقدرة للبخور على العتق من الخطايا

ولما كان الاعتراف لدى المبخرة جائزا بأمر بطريركي كان جهاد بن  
 قنبر عبثاً فضلاً عن كونه مثيراً لسخط الاساقفة والعلماء فاعتصبوا عليه  
 وطلبوا الى البطريك ان يحرمه . فتمهل يوحنا الخامس في حرمه لانه لم  
 يراه مخطئاً وانما اوقع عليه تأديبا بصفته سيء الاخلاق . وبعد ذلك اتصل

(١) ترى ترجمة مرقس بن قنبر باسهاب لزيد في تاريخ ابي صالح من صحيفة

الى البطيريك ان بن قنبر قد هجر زوجته وانتظم في سلك الرهبنة لالة  
 الا لكونه طامعاً في الحصول على درجه الاسقفية فالبطيريكية فلا تكون زوجته  
 حجر عثرة في سبيل رقيه فلما علم البطيريك بذلك ايقن بصحة دعوى  
 المشتكين عليه فحرمه وقطعه من الكنيسة ولكن بن قنبر لم يكثر بهذا  
 الحرم بل عكف على الوعظ والتبشير فالتف حوله جمع كثير لدرجة خيف  
 معها وقوع الشقاق بين الشعب . وقد قاوم عادة الختان التي كانت جارئة  
 يومئذ بين الاقباط بدعوى انها من بقايا تقاليد اليهود ومخالفة لتعليم  
 ووصايا الرسل فصار لابن قنبر وقار عظيم لدى جميع اهالي الصعيد وذكر  
 اسمه على كل شفة ولسان

ومات البطيريك يوحنا الخامس في تلك الظروف الحرجة وخلفه  
 مرقص بن زعره تميزا له من مرقص بن قنبر فلما جلس على كرسي البطيريكية  
 كتب اليه اساقفة الصعيد بشأن مرقص بن قنبر الذي كان عاكفاً على عقد  
 الاجتماعات وتحريض الشعب على وجوب التيقظ الديني ورفض الخرافات  
 المصنعة فاستدعاه البطيريك ولامه على ذلك واثان له انه مخطيء في فهمه  
 فتأثر من نصائحه وسجد له ووعدته بالكف عن ذلك فخله البطيريك من الحرم  
 واعاده الى وظيفة الكهنوت ولكنه لما رجع الى مركزه اجتمعت الناس  
 عليه وابتهجوا برجوعه واظهروا تعصيدهم له فوقع بين نارين اما ان ينقاد  
 الى مشورة البطيريك ويخسر التأثير الذي له او ان يثابر على عمله ويخالف  
 البطيريك وبعد التأمل رحجت كفة الامر الثاني على الاول فشرع يبشر



كالعادة فاقبلت اليه الجماهير بالهدايا والتقدم من نقود ومحصول « وكنفوا  
 عن تقديم العشور للخدام القانونيين  
 فلما رأى البطريرك ما كان خاف من استفحال الفتنة فعقد مجمعا مؤلفا  
 من ٦٠ اسقفا واقر على حرمة فخره وجرده من رتبة الكهنوت  
 فلما رأى ذلك مرقس بن قنبر نهج في المسألة نهجا غريبا اسف على  
 حصوله فيما بعد اسفا لا مزيد عليه وهو انه وقع دعواه الى الحكومة  
 الاسلامية وقال انه لم يعط بشيء ينافي القوانين الكنائسية وطلب اعادة  
 النظر في دعواه بحضور الحكام المسلمين فظهر الحكام استعدادا للتدخل  
 في ذلك الامر واكن البطريرك واساقفته رفضوا تدخل الحكومة  
 رفضا باتا بدعوى ان تلك المسألة دينية محضة وبعد ذلك رضى البطريرك  
 بقبول تحكيم مخائيل بطريرك انطاكية (١)

فسعى مخائيل في فض الخلاف بالحسنى ولكنه لم يرض الطرفين  
 لانه اشار بان يقلل البطريرك من اهمية الاعتراف السمي وان يتنازل بن  
 قنبر عن المبالغة والتهويل فادى ذلك الى فتور العلائق قليلا بين بطريركية  
 مصر وانطاكية اما ابن قنبر فانه لما رأى ان بطريرك انطاكية لم يقم بتعزيده  
 لم ينتظر الى ان ياتيه الحكم بالقطع من الكنيسة بل ذهب مع عدد غفير  
 من اتباعه الى الكنيسة الملكية اليونانية وقد كانت في ذلك الوقت منحطة  
 ولم يكن لبطاركتها قوة نافذة في مصر وكانوا يتركون رعيتهم القليلة العدد

(١) بطريركية انطاكية من القائلين بان للمسيح طبيعة واحدة

ويقضون معظم العمر في القسطنطينية والرعية غائصة في بحار الخرافات  
والجهالة وعمما قليل ندم بن قنبر على ما فعل وعاد يتوسل الى البطريرك  
فقبله في حضان الكنيسة وحله من الحرم الذي اوقعه عليه . وعرف بن  
قنبران افعاله الاخيرة اضاعت تفوذه لان القبطي يشعر ان انحرافه عن الايمان  
الارثذ كسي وعدم اخلاصه لكنيسته ليس من الايمان . قال ذلك الى اعتقاد  
الاقباط فيه انه غير بطل فلم يصبر على تلك الاهانة الاديبة خشية من حسن  
السمعة والاحدوثة فرجع الى الكنيسة اليونانية وعاد الى العصيان ولكنه  
لم يلبث طويلاً حتى تاب ورجع فلم يشأ البطريرك قبوله لانه خان الكنيسة  
ثلاث مرات فوقع ذلك المسكين في ظلمة دامسة ويأس عظيم  
وكل ذلك نظر عدم ثباته على مبداء واحد ولم نعلم عنه بعد ذلك  
الموت الاديبي شيئاً الا انه مات (١) بعد ذلك بسنين طويلة وكانت تلك  
الاعوام حتى عام ١١٦٠ مسيحية (٥٥٥) هجرية ذات حوادث عظيمة  
وكثيرة في مصر اضعفت شأن البلاد . وفي تلك السنة توفي الخليفة وعمره  
احد عشر سنة ولم يحكم الا ست سنوات فقط واقام الوزير الملقب بالملك  
الصالح عبد الله ابن يوسف بن الحافظ لدين الله خليفة وهو قاصر وبايعه

(١) المقول انه لم يممت الا بعد تولية البابا النوسنت رأى (الذي بلا عيب)  
الثالث بابا على روميه وقرر ضرورة الاعتراف السماعي في الكنائس الغربية لدى  
الكاهن لا امام البخور وطابق في ذلك اعتقاد ابن قنبر وكان انتخاب هذا البابا  
سنة ١١٩٨ مسيحية ولكن ذلك المبدأ لم يعمل به بين الكنائس المصرية

بالخلافة ولقبه بالعاقد لدين الله وهو الوارث الثاني للخلافة وفي زمانه  
ضعفت شوكة الدولة الفاطمية وكان هذا الخليفة العاقد لدين الله آخر من  
سُمي من الفاطميين ولما كان النفوذ جميعه بيد الوزير الصالح لقب نفسه  
سلطان بابلون ولم يعد الصليبيون بعد يسمعون بلفظة خليفة من ذلك الحين



## الفصل الثاني والخمسون

حريق بابلون

سنة ١١٦٠ مسيحية و ٨٧٦ للشهداء و سنة ٥٥٥ للهجرة

ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الا سنة واحدة وتوفي سنة ٥٥٥ هجرية  
مقتولاً بمساعي أخت الخليفة السابق وبوفاته وقعت مصر في ارتباكات  
عظيمة وهبطت الى مهاوي الضعف حتى كان رجال حكومتها يتفقدون  
الصليبيين مبالغ وافر ترضية لهم حتى لا يفزوم من جهة غزه او عسقلان .  
وبويع ابن الفائز مكان ابيه لكنه لم يحكم الا زمناً قصيراً وكان وقتئذ اثنان  
مرشحين للخلافة وهما الامير ضرغام الملقب بابي الاشبال وشاروا وكان  
هذان الرجلان في مقدمة الآمرء الذين كان انشأهم الملك الصالح طلائع  
ابن رزيك في وزارته وكان يدعوهم البيروقية . وما زال ضرغام يرقى الى ان  
صار حاجباً . اما شاور فتولى الوزراه . فطمع فيه درغام واراد ان يسلبه  
وظيفته فتحفز الاثنان بجنودهما للاقتال . وبعد ان لبث شاور

في الوزارة تسعة اشهر ثار ضرغام في رمضان سنة ٥٥٨ هـ  
 وطرده من القاهرة بعد ان قتل بكره فهرب الى الشام والتجاء الى  
 والي دمشق وكانت يومئذ تابعة للدولة التركية التي تأسست في القرن  
 السابق وسلطانها هو اتابك نور الدين الذي غزا سوريا وكان عدو الصليبيين  
 الالاد فاستجد شاور باتابك نور الدين المعروف بالخليفة العباسي في بغداد  
 ليرد اليه وزارة مصر فاجابه الى طلبه وغزا مصر وقد كان في نيته ان يفعل  
 ذلك قبل ان يدعوه اليه شاور. فاتفق نور الدين مع شاور على ارسال حملة  
 عسكرية الى مصر تحت قيادة رجل مشهور يدعى اسد الدين شير كويه.  
 وكان شير كويه كروياً وبطلاً مقداماً من قبيلة الروادية وهي اشهر قبائل  
 الاكراد وكان هو وأخوه نجم الدين ايوب مخلصين في خدمة الاتابك  
 نور الدين وكان يثق بهما ثقة تامة. فدعاهما الى قياده الحملة الى مصر.  
 فلما تاهب شير كويه للسفر طلب منه ابن اخيه يوسف نجم الدين ايوب ان  
 يسير معه الى مصر فابى والده نجم الدين شقيق شير كويه ان يسير مع عمه  
 في تلك الاخطار نظراً لحداثة سنه ومنعه نور الدين ايضاً ولكن يوسف  
 صمم على الرحيل في طلب العلي والمجد. ولعل المقادير دعتُه الى هذا  
 التصميم ليم له ما كان مسطوراً في الغيب من الشهرة فان سلطته امتدت الى  
 اقصى الممالك الاسلامية وصار البطل الضرغام الذي سارت بذكره  
 الركبان في كل اين وان وهو السلطان صلاح الدين الايوبي وكان مولده  
 في قلعة اكرت سنة ٥٣٢ هـ بحريه.

ولما آانس والده فيه اصراراً على الذهاب مع عمه صرح له وقام  
شيركويه بالجيوش ومعه ابن أخيه وشيعة نور الدين بنفسه حتى حدود  
مصر بقصد ان يوم الصليبيين الذين أمامه انه آت بجيوشه لمحاربتهم كي  
ينكمشوا من ذلك الوهم ولا يتحشون بحملة شيركويه ويصل سالماً  
الى مصر

وقبل ان يقوم شاور الى مصر مع الحملة ويفارق نور الدين  
وعده ان يدفع له ثلث ايراد الحكومة المصرية مكافئة له على اعادته الى  
منصب الوزارة

اما ضرغام فاستقر في الوزارة بعد هروب شاور الى دمشق ولقبه  
الخليقة العادل لدين الله بالملك المنصور فشكره الناس في بادىء الامر  
لانه كان فارساً جميل الصورة لطيف المحاضرة الا انه كان سريع التبيح  
ينتقم لاقل سيئة من اصحابه حتى انه لما بلغه ان رفاقه البرقية يسعون الى خلعه  
وتولية الوزير شاور بدله جمعهم في دار الوزارة وقتلهم ليلاً بالسيف عن  
اخرهم وكانوا نحو سبعين اميراً عدا الذين يلوذون بهم فضعفت البلاد  
بموت ذوي الرأي من اكارها فقته المصريون سيما بعد حملته على الافرنج  
وذلك ان ارموري او امالريك ملك الصليبيين في اورشليم طلب من ضرغام  
المتأخر من الجعل الذي تعهد المصريون بدفعه لقاء الهدنة من زمن  
السلطان الصالح طلائع وهو عبارة عن ٣٣ الف دينار تدفع سنوً بالبلدوين  
ملك الصليبيين باوروشليم . فلما تأخر ضرغام عن دفع تلك الجزية قام

الافرنج على مصر بجيش جرار ليفتحوها فارسل اليهم ضرغام اخاه هماماً  
بقوة عسكرية الى الحدود فخار بهم فغلبوه وتبعوه الى قاعة بليس فبادر  
همام الى قطع جسر النهر ففاضت المياه على الارض وغمرت جانبا عظيماً  
منها فصارت حاجراً بينه وبين الاعداء

وبعد هذه الواقعة قدم اسد الدين شركوبه من الشام برجاله البواسل  
فلما رأى الافرنج ما كان خافوا وعادوا من حيث اتوا اما ضرغام فلما علم  
بقدم شاور وعرف انه سقيع بين نارين نار الافرنج ونار سلطانه دمشق  
أرسل الى أموري ملك الافرنج باورشليم ووعدته بمضاعفة مقدار الجزية  
اذا هو اعانه على سلطان دمشق. وقبل الوصول الى نتيجة فاجأه شيركوبه  
وشاور بجندهما على مقربة من قلوب يوم الخميس ٦ جماد آخر سنة ٥٥٥٩ هـ  
فلما رأى ضرغام ان لا قوة له على دفع ذلك الجيش العرمرم هرب  
الى القاهرة وحشد طائفتي الريحانية والجيوشية واستعد للقاء شاور الذي  
بعد ان أقام بضعة أيام بجيشه في قلوب سار الى القاهرة وعسكر بمحي  
الارثكية فخرج عليه ضرغام بكل قوته فهزمه شاور شر هزيمة وسار الى  
مصر القديمة . ومال المصريون الى شاور كما هي عادتهم في مثل هذه  
الاحوال فنصروه وخصوصاً بعد مارأوا من ضرغام جررا زائد المقدار  
اذ كان يعيث بالحقوق ويستحيل مال الايتام . واستمر شاور في مطاردته  
والفتك برجاله فلما رأت رجال ضرغام ان لا قبل لهم بالوقوف امام تلك  
القوات أغاروا على شاور فانحلت عصبتيه سيما بعد ان أمر العاضد المحاريين

بالكف عن القتال . فصار درغام يدق الطبول وينفخ في الابواق من فوق الاسوار فلم يخرج اليه أحد . فوقف على باب الذهب من ابواب القصر ومعه ٥٠٠ فارس وتوسل الى الخليفة حتى يشرف عليه فلم يجبه أحد وظل كذلك حتى العصر وتفرقت عنه الناس ولم يبق معه سوى ٣٠ فارساً وأخيراً ورد اليه مكتوب يقول كاتبه فيه انج بنفسك . ومن ثم دخل جيش شاور الى القصر فهرب ضرغام الى باب زويله فادركه الناس ورجلوه عن فرسه بين القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة تيمسه وقطعوا رأسه وكان ذلك يوم ٣٠ جماد الثاني من تلك السنة . وهرب أخوه الى المطرية فقتلوه وقتلوا أخاه الثاني عند بركة الفيل وبقى ضرغام ماتي على الارض يومين وبعد ذلك حملوه ودفنوه في القرافة .

وانحازت جميع الناس الى شاور فرأى انه ملك البلاد والنفس بالطبع امانة بالسوء فجنحت نفسه الى المعالي فنكث عهده مع سلطان دمشق وابي بجم تلك الجزية الراية وهي ثلث ايراد الحكومة المصرية وامر شيركويه بالخروج برجاله من بلاد مصر حالاً فاستأ شيركويه من ذلك وابي القيام بجنده وظل معسكراً امام القاهرة جملة ايام وبعد ذلك قام حتى وصل الى بلبس من اعمال الشرقية وعسكر فيها فاتشرت جنوده كالجراد في طول البلاد وعرضها ترتكب الفظائع والقسوة لافرق في ذلك بين مسلمين ومسيحيين نكاية في شاور الذي اعلم شيركويه انه ساع في عقد معاهدة مع الصليبيين لاجراجه بالقوة من مصر حتى يستقل بالسلطان

ويستغنى عن جيوش السلطان نور الدين الذي كان سبباً في رجوعه الى باب  
تلك النعمة .

وظلت جنود شيركويه تسوم الاقباط عذاباً حتى ترك بعضهم  
دينه واعتق الاسلام واضاع المسلمون وطنيتهم وسعوا في استرضاء  
الأتراك بدلاً من ان يتحدوا مع الاقباط ويقاوموهم . ولم تغم النخوة  
في صدور رجال الفريقين من مسلمين وأقباط للمحاربة عن اعراضهم  
ومقتنياتهم والمدافعة عن نساءهم وبناتهم اللاتي كن يبعن الجوارح في اس  
جيوش شيركويه الا انه لما ازداد الضغط على الاقباط قاموا قواماً  
كرجل واحد في بعض الايام لدفع الظالمين فاقتتل الفريقان واستشهد  
من الاقباط كثيرون في ذلك الحين

اما شاور فارسى الى اموري ملك الصليبيين يستنجده في اخراج كويه  
شيركويه وجيوشه من مصر . فاجاب اموري الطاب فعاد الى مصر بعيش  
ان كان قد رحل بجيوشه الى سوريا وحاصر بلبس التي كان يعسكر فيها  
شيركويه بجنده . وبعد حصار شهرين . اتفق قيام السلطان نور الدين به  
نفسه بجيش جرار الى مصر لنجدة شيركويه فلما علم الصليبيون بذلك  
خافوا وطلبوا الى شيركويه ان يخلى بلبس ويسترجع اسراه ويعود الى علم ش  
سوريا .

ولما كان شيركويه غير عالم بتقدم السلطان نور الدين قبل هذات  
الشروط ورضي من الغنيمة بالاباب . وعاد الى سوريا فالتقى بنور الدين



باب الصليبيين وهو قادم الى نجدته فانضم اليه ونصره عليهم غير ان  
 ساره على الصليبيين لم يقلل من اشتياقه الى افتتاح مصر وكان لا يفتأ  
 نور الدين على المبادرة بذلك نظرآ لما راه من خصوبة ارضها ووافر  
 ضمتهم افطمحت نفسه الى امتلاكها والتمتع بخيراتها وكان اشتياق شيركويه  
 ففتح مصر لا يقل عن شوق الاتابك نور الدين الذي كان يريد من  
 شيركويه بجنده اليها ان يفتتحها لسببين الاول - لينجد شاور  
 في استغاث به ويعيده الى الوزارة والثاني - المعرفة باحوال مصر  
 والمبالغة عن ضعف جنديتها وارتباكها وكان قد اتفق مع شاور سرا  
 يسلمه مصر فعيطيه ثك ايرادها

ولم يكن الصليبيون اقل معرفة بما لمصر من الخصب والجمال من  
 كوية وسلطانه فبدلوا المجهود في اقتاجها . وقطعوا الطريق على  
 ش نور الدين السائرة الى مصر . فلم يبال نور الدين بذلك وقطع  
 طريقها وبلغ حدود مصر ودخلها في ربيع اول سنة ٥٦٢ هجرية . قبل ان  
 به الصليبيون ويقطعوا عليه الطريق فعادوا الى غزوه فالعريش فبليس ولما  
 الى بليس كان نور الدين وشيركويه قد بارحها وعسكر ابقرب القاهرة  
 العلم شار بذلك خاف خوفاً شديداً وعلم انه ان لم يسارع الى ملافاة  
 لم تقع مصر في يد الاتابكة وبعد ذلك علم ايضاً بقدم جيش نور  
 ذلك ومجيء جيوش الصليبيين وراءها في سنة ١١٠٦ مسيحية وليس  
 بين ريقين مطمع الا في الاستيلاء على بلاده . ففضل مخالفة الصليبيين على

الانحياز الى الاتراك ولو كانوا من ابناء جنسه فسلم اليهم القاهرة واتحد  
 معهم على قتال شيركويه وكان شيركويه معسكراً على بعد اثني عشر ميلاً  
 من القاهرة فرأى انه لا يستطع بعد عبور صحراء المقطم ان يهجم على تلك  
 المدينة الحصينة فقطع النيل وعسكر على الضفة الغربية . فلما دخل الصليبيون  
 الى القاهرة لم يوافقوا شاور على ما اراد الا بعد ان تعهد لهم بزيادة الجزية  
 السنوية وعقد الطرفان معاهدة بذلك بواسطة مندوبين من كلا القومين فدفق  
 لهم شاور ٢٠٠٠٠٠٠ دينار وتعهد ان يدفع مثل هذا المقدار بعد مدة  
 يسيره

الا ان ذلك لم يقنع الصليبيين لانهم عرفوا ان شاور سريع التقلب  
 وربما لا يلبث ان ينتقض عليهم خصوصاً وانهم علموا بما صار منه مع السلطان  
 نور الدين وكيف انه نكث وعده ولم يدفع له ثلث ايراد مصر في نظير  
 نصره اياه على ضرغام وتوطيد قدمه فلم يرضوا ان يقبلوا شروطه الا  
 بحضور الخليفة نفسه فاجتهد شاور ان يقنعهم باستحالة ذلك بالنظر لعظم  
 مركز الخليفة وانه لا يجوز في شرع المسلمين ان يمثل أحد بين يدي امير  
 المؤمنين الا المؤمنين بالله ورسوله وبما ان الافرنج مسيحيون فلا يجوز  
 لهم الوقوف امام خليفة النبي صلعم .

ولكنهم لم يقنعوا بتلك الخدع وابوا الا ان يكون ما طلبوا فرضي  
 شاور بذلك وانتدب الافرنج الذين اعتمدوهم لمقابلة الخليفة منهم هوج  
 صاحب قيصيرية وجوفري فيلكس ووليم بنز وغيرهم من اشراف

الصليبيين واجتهد شاور في تنظيم الحرس وزخرفة السراي التي يقيم فيها  
 الخليفة ليوم الصليبيين حتى يخشوا من عظامته وصف الجنود السودانية  
 عن الجانبين ورتب الذخائر والنفائس والجواهر والاسلحة في الدهاليز  
 بصورة مدهشة حتى صار الافرنج من مشاهدة تلك الحجارة الكريمة  
 والاواني الزجاجية وانواع الوشي والتطريز والكلل المزركشة والستائر البديعة  
 المرفوعة على باب الحجر التي يجلس فيها الخليفة . فلما بلغوها ورفعت  
 الاستار سجد ثلاثاً يشاور وقبل الارض ثلاثاء والقي سيفه ودخل الى  
 الخليفة والقي سيفه ودخل الى الخليفة واستأذنه بدخول مندوبي الافرنج  
 فسمح لهم بالدخول بعد ان اعطاهم شاور التعليمات عند كيفية مقابلته .  
 فقابلوه ورضي الطرفان بتلك الشروط . ولكنه لم يكتف الافرنج بذلك  
 بل طلبوا ان يعاهدهم الخليفة على ذلك بمصافحتهم باليد علامة على الرضى  
 فاعلمهم رجال البلاط ان ذلك لا يمكن نظراً لان يد الخليفة اطهر من  
 ان يمساها غير المؤمنين فاصر الافرنج على الطلب فصافحتهم الخليفة علامة  
 على الرضى والاتفاق فاقنعوا بذلك وذهبوا الى حال سبيلهم وفي اثناء  
 ذلك تقدم شيركويه لياً وعسكر في الجيزة امام مصر القاهرة . فاراد  
 اموري ملك الصليبيين ان يصنع جسرا من القوارب ويعبر بجنوده عليه  
 ويهاجمه فكانوا كلما ابتدوا في بنا الجسر يشغلهم شيركويه عن اتمامه فبقى  
 الجيشان على هذه الحالة نحواً من خمسين يوماً تمكن فيها شيركويه من  
 الاستيلاء على ضفة النيل الغربية وارتحل بجيشه نحو مصر العليا فسلمه

اياها اهلها بغير معارضه وتبعه الصليبيون بعد ما تركوا حاميات في جميع  
 حصون القاهرة حتى سراي الخليفة . ولما ادرك الصليبيون والمصريون  
 شيركويه التحم الفريقان في معركة عند مضيق يدعى البابين وافتتلا يوما  
 كاملاً فانصر شيركويه وطاردهم فعادوا عنه الى القاهرة وكر بجيوشه ووراهم  
 بعد ان ترك حامية في مصر العليا وسار لاختضاع مصر السفلى وفتح الاسكندرية  
 واقام عليها اخيه يوسف صلاح الدين . ولما سمع الصليبيون في سوريا ان  
 اموري فتح القاهرة وصار على جانب عظيم من القوة جاؤوا اليه يطلبون  
 ان يتاسمهم في خيرات مصر

ولما رأى شيركويه تكاثر عدد العدو عليه وانه لم يعد في طاقته مقاومتهم  
 بما بقي لهم من الرجال سيما بعد ان قطع الصليبيون عنه سبل المدد من سوريا  
 اتحد مع شاورو الصليبيين وتعهد ان يخلي مدينة الاسكندرية لشاور على شرط  
 ان تتحسب جنود الصليبيين والسوريين الى سوريا وان تبقى مصر لشاور  
 وحده فقبل الفريقان بهذه المعاهدة ورحل شيركويه وابن اخيه الى دمشق .  
 اما الصليبيون فابوا مبارحة القاهرة الا اذ تعهد لهم شاور بدفع مائة الف  
 دينار (عبارة عن ستين الف جنيه انكايزي) في نظر خروجهم منها بذلك  
 فترك الصليبيون قوما منهم في القاهرة الى ان يقوم شاور بدفع المبلغ وخرجوا  
 وشاور غير مصدق من شدة الفرح ولما انسحب اموري الى سوريا وجد  
 اخوانه الصليبيين حانقين عليه انه اضاع الجزية الكبرى التي كان يلزم ان  
 يتقاضاها من مصر ومع انه لا يزال باب الامل مفتوحا للعودة الى فتحها

اذا تأخرت الجزية لكن ذلك لم ينقذه من الندم وتوبيخ نفسه على ما فعل  
 اذ اخلص للدين عاهدوه غير مخلصين وصمم على العوده لفتح مصر  
 واتفق ان حامية الصليبيين في القاهرة اخذت نحاول الاستيلاء على  
 مصر غير مبالية بتلك المعاهدة فكتبوا الى ملكهم اموري ان يمد لهم بجيش  
 لاستلام امور مصر سرا قبل ان يعلم بذلك نور الدين ويرسل جنوده  
 السوربة لما كستته فما اتم ان وصل ذلك الكتاب اليه وجاء مطابقا لما  
 يضمه حتى اسرع وجند جيوشه وكر راجعا الى مصر بغتة فوصل بليس  
 بعد عشرة ايام وحاصرها ثلاثة ايام . ثم دخلها برجاله فامنعوا فيها سلبا  
 ونهباً وقتلوا كل سكانها ما عدا الذين استحيوهم ليسترقوم وكان اموري  
 يريد بذلك القاء الرعب في قلوب مسلمي القاهرة . وزحف اموري بقوة  
 بأس الى القاهرة فوصلها في خلال يومين ولم يبال بتعب الجنود  
 وروي بعض المؤرخين ان جنوده تأملت من مشهد سبي بليس فلم يمكنهم  
 متابعة المسير قبل ان يستريحوا وتزول من مخيلتهم صورة ذلك النظر الفظيع  
 وقال بعضهم ان اموري لم يكن ينوي فتح مصر بل يتصد تقرير ضريبة  
 على شاور اكبر من التي فرضها عليه فشهد بذلك السبيل الى فتح باب  
 المخبرات مع شاور فتحير شاور واخيراً كتب الى نور الدين يستجده  
 فاراد نور الدين ان يذهب بنفسه لكنه خاف ان يقتال احد الاعضاء  
 بلاده فارسل اليه نجدة تحت قيادة شيركويه

اما اهالي القاهرة فلما سمعوا بما فعل الصليبيون باهالي بليس يد

حصارها (١) ثلاثة ايام اقساموا ان يدافعوا عن بلادهم حتى اخر نسمة  
من حياتهم

وكيفما كان الحال فان تاخير شاور في دفع الجزية الاولى في الحال  
اضرر بالاقباط ضرراً لا يوصف فانهم كانوا دائماً اول من يقع عليه الارزاء  
واخر من يتألم من نتائج سياسة حكام الاسلام الخرقاء الذين حكموا مصر  
زمناً طويلاً.

وكانت مصر ذات اربعة اركان بالنظر للتدابير الحربية فصارت  
ركنين فقط . من الشمال للقاهرة او مصر القديمة . ومن الجنوب لبابليون  
والفسطاط وبين هاتين النقطتين البيوت الجميلة والحدائق الغناء . وكان نصف  
سكان القسم الشمالي اقباط ونصفهم مسلمون . اما قسم العاصمة الثاني  
وهو الجنوبي اي الفسطاط وبابليون فكان كل ساكنيه اقباطاً . وكانت حامية  
الصليبيين التي تركها اموري قبل خروجه من مصر تحتل القاهرة  
وترآى لشاور ان ديانة الاقباط والصليبيين واحدة لا تختلف عنها

(١) اتفق اكثر من واحد من مؤرخي اوربا ان يمددنة بلوزيوم  
هي التي نهبا اموري في هذه الغزوة ليست ببليس مع ان المؤرخين المصريين  
يذكرون صريحاً ان مدينة ببليس بلدة صغيرة لم تكن معروفة كثيراً عند كتاب  
الغرب مثل بايلتون فلدلك ظنوا ان ذكرها جاء خطأ والواقع انها كانت في ذلك  
الحين من ضمن حصون مصر العظيمة وعلى كل حال فالمدينة ان كبريتان فيلوزيوم  
قائمة في طريق القادمين من سوريا الى الاسكندرية و ببليس في طريق  
القادمين الى القاهرة

كثيرا في الاصل والمبدأ فتخوف من ذلك كثيرا وحسب  
 لذلك حسابا كبيرا فتوهم ان المسيحيين احتاطوا به من كل  
 صوب اقباط كانوا ام افرنج وتصورانه لا بد ان يأتي يوم يقوم  
 فيه المسيحيون فيستأصلون المسلمين ويخرجونهم من املاكهم  
 في مصر في حين انه يخلص لا موري ويقوم له بدفع الجزية فلما تمكن  
 منه هذا الوهم دعا مسلمي مصر الى القيام بحرب دينية عامة ضد المسيحيين  
 كلهم واشعل النار في بابليون حتى لا يعسكر فيها الصليبيون وقطع النيل  
 حتى يمنع ورود المدد على الاعداء ومرت ايام وليالي او الدخان يتصاعد  
 من تلك المدينة العظيمة الى السما (١)

(١) حاول بعض المؤرخين اثبات حصول الحريق في ضواحي القاهرة ولكن مما  
 لا شك فيه ان مدينة بابليون وجزء عظيم من الفسطاط مع الصحراء التي بين  
 هذه والقاهرة حُرقت وذهبت في ذلك الحريق اشهر كائس الاقباط في ذلك العصر  
 وهي دير ابو سيفين القائم في ذلك العهد على شاطئ النيل بين الفسطاط وبابليون  
 وقد اعيدت الكنيسة والدير في مكانها الاصل على شاطئ النيل غير ان النيل  
 تحول عن مجراه للطبيعي الى الخلف قليلا والطريق الذي تهدمت فيه اسوار الدير  
 القديم تحري عليها الان سكة حديد حلوان. ولما كانت الاسوار قديمة المهتدة وقوية  
 البنيان ولم تاكل النار الا جزءا منها فبقي اثارها باقية الى الان نحو الشمال الغربي  
 من جامع عمرو القريب منها جدا ولم نسمع كما ولم يذكر التاريخ ان جامع عمرو  
 اصيب في ذلك الحريق كما ولا كنيسة العذراء وانبا شنودة القائم داخل صور  
 ابي سيفين ومسند كنيسة القديس مقاريوس الحالية يدل على انها كنيسة العذراء  
 وليس كنيسة القديس المذكور المعروفه بابي سيفين وحُرقت في بابليون

وخرب جزء عظيم من القسطنطينية تماماً واستمر اللهب يأكل في  
 المدينة اربعة وخمسين يوماً بدون انقطاع. ولم يستطع احد أن يحصي عدد  
 الذين هلكوا في النار ولا أن يخبر عما حل بالمسيحيين الهاربين الذين  
 يظن أنهم عبروا النهر الى بلاد الجيزة (١). وامتدت النار الى مسافات  
 مترامية حتى كان لهيبها المرعب يفرع الناظرين اليها من الاقباط المساكين.  
 وبعد ان فيت الامتعة والموجودات انطقت ولم تترك الا اثاراً بالية واطلالاً  
 خاوية وتلالاً تعلوها الاتربة ولم يظهر منها غير بعض قباب الكنائس والمنازل  
 التي كانت قائمة داخل الاسوار الصلبة الباقية من حصن الرومانيين المتهدم  
 وكان ذلك المنظر يومئذ تنفتت له الاكباد حسرة على شقاء البلاد التي  
 اتابها الشقاء والدمار وحل بها نخراب والبوار. والمنقب في اطلالها قليلاً يجد  
 كثير من النقود والسبح والعقود والحبوب والشقافة ونحو ذلك. ولم يكن في  
 وسع الاقباط وقتئذ ان يعود الى بناء كنائسهم الا في مكان او اثنين من  
 مما التقطوه من الحجارة المتفرقة والنسيفساء الجميلة التي كانت لم تزل باقية  
 في مواضعها يحرسها الكهنة الذين لم يهربوا من النار. ووجدوا ايضاً ستة  
 كنائس باقية داخل حصن الرومانيين لم تصب بضرر ففرح بها الاقباط  
 فرحاً عظيماً وتعزوا بها عما اصابهم من الخسائر  
 ولا تزال مدينة بابليون تذكر الى الآن باسم الكتيبة الموجودة في

(١) من ضمن الذين هربوا من هذا الحريق بطريرك الارمن اذ قد هرب  
 اسلى وريا والتجأ الى كنيسة باروشليم كما يقول ابو صالح المؤرخ



مصر القديمة التي تدعى كنيسة بابليون  
وهي الان كنيسة حقيرة سورها من الطوب المتهشم وهو مما يدعو  
الى الاسف والتحسر على زوال ذلك المجد البازخ العظيم



## الفصل الثالث والخمسون

الفتح الكردي

سنة ١١٦٨ مسيحية ٨٨٤ للشهداء و٥٦٤ هجرية

ولم يهدأ شاور عن اعماله وتدابيره اثناء حريق القسطنطين بل كان  
مستمرًا في مشاغلة الصليبيين بواسطة مخابراته مع اموري قائد جيوشهم  
وازداد نشاطًا في ذلك لما جائته الانباء بعودة شيركويه بجيشه الجرار الى  
مصر فحاول الاتحاد مع اموري واقناعه بان وجودهم بهذه الصنفة في مصر  
لا تآمن منه قدوم نور الدين ايضا بجيشه بقيادة شيركويه فلم تدخل هذه  
التدابير في ذهن الملك اموري فعرض عليه شاور مبلغًا وافرا من النقود  
مقابل انسحابه الى سوريا. ولما كان اموري معروفًا بالطمع وحب المال  
قبل منه ذلك تحت شرط ان يجعل قيمة الجزية المتفق عليها من مائة الف دينار  
الى مليون دينار فقبل شاور بذلك رغم ارادته ولكن فضلا عن قبول شاور  
بتلك الجزية الفادحة فان اموري رفض الاسحاب قبل ان يدفع له  
شاور على الاقل مبلغ المائة الف دينار فورًا وباقي المليون يدفعه له على اجل

مسمى فدفع له شاور ما اراد فانسحب بجيشه الى سوريا محبة للمال . فاستاء  
رجال جيشه من ذلك الانسحاب ونقموا عليه لعدم دخولهم القاهرة التي  
كان الصليبيون يعتقدون باهميتها ويحلمون بغزوها ونهب ما فيها من الكنوز  
والنعمان ولكن لا عجب فان التاريخ ملآن بامثال اموري الذين يبيعون تعب  
الجنود ونخر النصر والفتح بمبالغ مالية قليلة الاهمية

ولما سار اموري قائد الصليبيين قاصدا سوريا بجنده التقى عند بليس  
بالقائد شيركويه قادم بجيش جرار من قبل الاتابك نور الدين يتعصد  
تخليص مصر من يد شاور وذلك لان الخليفة العاضدا تهنز فرصة اشتغال شاور  
بمخبراته مع اموري في موضوع الجلاء عن مصر وغرق هو ايضا في مخبرات  
سرية مع الاتابك نور الدين وتم العاهدة معه على انه اذا كان يخيه من شاور  
واستبداده يعطيه ثلث خراج مصر . فقبل منه نور الدين تلك المعاهدة على  
شرط انه عند وصول شيركويه بجنده الى مصر يوليه وزيراً بديل شاور بعد  
هزيمته . وعلى ذلك اسرع شيركويه بجنده فرحاناً الى مصر فالتقى بجيوش  
الصليبيين عند بليس كما قدمنا فتحارب الجيشين وانتهى الامر بانهزام  
اموري واسراعه بالرحيل الى سوريا فاقم شاور واغتاز سرا من انتصار  
شيركويه الذي بعد فرار الصليبيون دخل القاهرة في ربيع الثاني سنة ٥٦٤  
هجرية بابهة عظيمة وقصد سراي الخليفة رأساً . فرحب به الاهالي والخليفة  
معاً بصفته مخلصهم من ظلم شاور

وبعداً خلع عليه الخليفة واكرم مشواه بالهدايا الفاخرة له ولسائر جنده .

فاغتاط شاور من ذلك الاكرام ولكن لم يعد في وسعه اظهار ذلك الغيظ  
والجنود السورية حوله كالتفاف السوار على العظم . فكتظم الغيظ وتظاهر  
بالوداد والمحبة لشيركويه وصار يزوره في معسكره على نية ان يدعو به الى  
وليمة عنده فيقضي عليه فيها . ولكن ابت المقادير الا ان تظهر ليوسف  
صلاح الدين الايوبي ابن اخ شيركويه بعض نوايا شاور اعمه وبلغ ذلك  
ايضاً مسامع كبار الجند السواري فدبروا لشاور ما كان يدبره لاميرهم  
شيركويه وعند بلوغه معسكرهم بقصد زيارة شيركويه قبضوا عليه واكلوه  
بالحديد ولما علم بذلك شيركويه امرهم ان لا ياتوا به سؤاً ولكن الخليفة  
العاقد لما علم ان رجال شيركويه قبضوا على شاور امرهم ان يأتوا برأسه اليه  
فجزوا رأسه بالسيف وارسالوها له في الحال وبعد ان راها وارتاح ضميره  
وامر سكان القاهرة بنهب سرايه وكل ممتلكاته

وبعد ان انسر الخليفة العاقد جداً لنجاته من وزيره الذي جعله  
باستبداده وسؤ تديره رقاً بل اذل من الرق . ولى شيركويه وزيراً له  
بدله اتماماً للمعاهدة التي بينه وبين الانا بك نور الدين ولقبه بالملك المنصور .  
وكان امر توليته يوم الاربع ١٧ ربيع الاول سنة ٥٦٤ هجرية . وبعد  
استلامه زمام مصر ضغط على الاقباط وامرهم بشد الزناير على اوساطهم  
ومنعهم من ارخا الذوابه المعروفه بالعزبه . ( القلنصوه )

ولكن لحسن حظهم لم تطل مدة وزارته اذ عاجلته المنية في ٢٢ جماد  
الثاني سنة ٥٦٤ هجرية فلم تدوم مدة احكامه الا شهرين وخمسة ايام فقط

وبعد وفاته احب الخليفة العاضد ان يبين محبته لشير كويه فولما كان شاور  
 ابن اخيه يوسف صلاح الدين ولقبه بالملك الناصر وكان لا يزال شاباً . فكان  
 الخليفة يفضل الوزراء الشبان عن سواهم لزمعه بمقدرتهم على جذب ثقة الخند  
 اليه فيأمن شرهم . ولكن لم يدر في خلده ان ذلك الشاب اليافع سيكون  
 اشد نفوذاً واعظم تأثيراً في الجند ممن تقدمه من الوزراء لانه كان لين  
 العريكة فصيحاً متواضعاً وكان متمسكاً بالتقاليد الاسلامية القديمة  
 ومتطرفاً جداً في تادية فروضه الدينية . وكان يحترق ويزدري الرفاه  
 والنم . كما كان يستخف ويهزأ بالعلوم والفنون على السواء . ويعتقد ان  
 الصناعات الفنية والفنون الجميلة ضرب من عمل الشيطان . انما مطامعه في  
 الشهرة العالمية كانت لا تحمد . وقد قوى فيه ذلك الطبع لانه كان قد حلم  
 مدة حدائه انه لا يموت قبل ان يكون سلطان دمشق وبابلون اي سوريا  
 ومصر او المملكة البابلونية كما كانوا يدعونها . ولحسن حظه وتمهيداً لما يكنه  
 له المستقبل انه اتى مع عمه الى مصر رغم ارادته . ولكن لو لم يحضر ابوه  
 وعمه الى مصر واخذوه معهم لم يكن له حظاً تولى الوزارة المصرية بعد  
 عمه شير كويه ولما كانت قوة الجند المعنية ليست في يد الخليفة  
 العاضد . بل كان فقط شاغلام مركز الرئاسة الدينية العظمي وكان كل  
 الفاتحين كأنهم يحجون اليه مع تبعهم وخضوعهم خليفة بغداد العباسي .  
 وكان الخليفة العاضد مقيماً في قصره كسجيناً . وامم مراكز الحكومة كان  
 يشغلها اتباع صلاح الدين

ولما استلم صلاح الدين زمام الوزارة عصته الجيوش السورية لحدائه  
سنة فمالهم اليه لينه ورقته فعادوا الى ولائه والضرب بسيفه .  
وعمل الحسدي في قلب جوهر الخصي الملقب بمؤمن الخلافة وحدثته  
نفسه بخلع صلاح الدين وأخذ مركزه ووافقته على ذلك امراً مصر  
وجنودها وانفقوا على ان يستدعوا الصليبيين الى مصر حتى اذا خرج  
صلاح الدين بجنده لطردهم اتحدوا مع هؤلاء لطرده هو وجيشه من  
مصر . ثم ارسل مؤتمن الدين كتاباً مخبوءاً في نعل حذاء مع رسولاً الى  
الافرنج فقابل ذلك الرسول احد اصحاب صلاح الدين فاشتبه فيه لانه  
رجلاً رثاً وحاملاً حذاءً في يديه وليس على الحذاء اثر المشي فاخذ منه الحذاء  
ومزقه فوجد الكتاب بين النعل فحمله الى صلاح الدين الذي علم بعد  
التحقيق ان الذي كتب ذلك الكتاب يهودياً فامر بقتله فاسلم فغنى عنه  
فقص له ما كان من موامرة مؤتمن الدولة ضده . فاعرض صلاح الدين  
عنه حتى انتهز فرصة خروج مؤتمن الدولة الى بستانه في الخرقانية فارسل  
عليه قوة عظيمة من الرجال فقتلوه يوم الاربعاء ٢٥ ذي الحجة سنة ٥٦٤ واتوا  
برأسه الى صلاح الدين فهاج جميع المصريين لذلك بما فيهم الجند ضد  
صلاح الدين واجتمعت طائفة العبيد والطوائف الريحانية والجيوشيه والفرنجية  
امام جيش صلاح الدين الذي جمع مع أخيه طوائف الغز وغيرهم وقام  
القتال سجالاتاً بين الطرفين وآل الامر الى انهزام صلاح الدين لولم يدركه  
جسن طالعه بقتل قائد طائفة العبيد فهبطت غزيمتهم وهجمت عليهم طائفة

الغز هجوم الاستقلال حتى كسروهم وطردهم الى باب الذهب. وكان  
 الخليفة العاضد وقتئذ يشرف على الواقعة من اعلى منظرة بالقصر وصار  
 يحرص الجنود المصرية التي باعها القصر بري الشباب سرأ على الغز  
 وجنود صلاح الدين حتى هلك منهم كثيرون او كادوا ينهزمون امام السوردانيين  
 فلما علم بذلك صلاح الدين أمر باحراق المنظره فاحضر اخوه شمس الدولة  
 النفاطين لخرقها تخاف الخليفة العاضد على نفسه وخرج من المنظره وصاح  
 قائلاً ( امير المؤمنين يلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد والكلاب  
 اخرجوهم من بلادكم ) فخارت بذلك عزائم العبيد وظل صلاح الدين  
 واخيه شمس الدولة يعلان فيهم بالسيف والنار قتلاً وحرقاً ويطاردهم حتى  
 باب الزويلة وكان مغلوفاً فحصروا فيه ودار فيهم القتل يومين حتى صاحوا  
 الامان فامنوهم يوم السبت ٢٨ ذي القعدة سنة ٥٦٥ ففتح لهم باب زويلة  
 وهرب من بقي منهم الى الجيزة وتبعهم شمس الدولة بالسيف حتى لم يفلت  
 منهم الا الشهداء وبهذه الواقعة المروفة في التاريخ بواقعة العبيد تلاشت  
 سطوة العاضد وكان هو اخر خليفة تلاشت على يديه الدولة الفاطمية. ومن  
 غريب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبنى القاهرة يدعى  
 جوهر وهو جوهر القائد الشهير والذي كان سبباً في تقليص ظل تلك  
 الدولة وكان خراب القاهرة على يده يدعى جوهر ايضاً وهو مؤتمن  
 الدولة الذي قام بمؤامرة ضد صلاح الدين وفشل. وهكذا بعد ان اسنصل  
 صلاح الدين جرثومة الفساد من البلاد كافأ أخوه شمس الدولة طوران

شاهد لما اظهره من البأس في واقعة العبيد بان اقطعة اقليمي قوص واصوان وكان  
 دخله منهما سنويا نحو ٢٦٦٠٠٠ دينار فاشتد ساعده فغزى النوبة وابرهم وسي  
 وغنم وعاد سنة ٥٦٨ هـ ثم خرج الى اليمن سنة ٥٦٩ وفتحها عنوة ولقب بالملك  
 المعظم وخطب لنفسه بعد الخليفة العباسي

اما الاتابك نور الدين فعظم سلطانه وقويت شوكته باغتزاز صلاح  
 الدين وانتصاراته فأتى مصر واراد معاكسة الصليبيين وانشاء دولته بمصرية وقام  
 تجول بها في البحر الابيض المتوسط ثم اتى بذلك الاسطول الى شواطئ  
 سوريا بقصد منع مرور تقاصدي الارض المقدسة ولكي يستولى على الامداد  
 الذي يرد الى الصليبيين الذين تضايقوا من ذلك شديدا الذين بعد المداولة  
 فيما بينهم اقرروا على انتداب فردريك بطريرك مور مع يوحنا اسقف  
 عكا لاستمداد قوة ملوك فرنسا وانكلترا وايطاليا وباقي الامم المسيحية  
 ولكنهم لم يفلحوا في ذلك. فارسل امبراطور القسطنطينية اسطولاً مؤلفاً من  
 مائة وخمسين مركبة شراعية جرّين ملان المون والذخائر والجنود واحدوا  
 بجند عسقلان وقام الجميع براً وبحراً الى مصر بقيادة اموري حتى وصلوا  
 دمياط وعسكروا بينها وبين البحر في شهر صفر سنة ٥٦٥

فاحب اموري ان يأخذ دمياط هجوماً فلم يفلح لانها دافعت دفاعاً  
 هائلاً فالتزم بمحاصرتها فغش في الحصار كما فشل في الهجوم لان  
 الدمياطيون كانوا مستكملين المورن والعدد فلم يبالوا بالحصار الذي طال  
 امده حتى نفذت مؤونة الصليبيين فتصدوا الدخول في قم النيل ليأتوا

بالراد فصدتهم سلسلة قوية من الحديد ممكنة من أحد الطرفين بباريس  
 المدينة وانظر الآ خر بيرج هائل منيع الجانب وكان قد وضع ذلك  
 الحاجز مسلمو هذا دمياط نكاية بالصليبيين . فوقف الصليبيون في موضعهم  
 ينتظرون المدد من سوريا عبثا بينما كانت الامدادات تصل الى الدمياطيين  
 تباعا من القاهرة بهمة صلاح الدين . اما الصليبيون فلما لم يصلهم مددا قام  
 الشقاق بين العناصر المختلفة المؤلف منها مجموعهم سيما بين الفرنسيين  
 والسوريين واليونان . ودب فيهم الجوع الذي افضى الى انفصام عرى  
 اتحادهم فكانوا يتخاصمون على كسرة خبز ويمضغون افنان النخل حتى اتصلوا  
 انفصالا تاما . ولسوء طالعهم قامت انواء وزوابع بحرية وامطار متواصلة  
 جعل جندهم البري كانه في طوفان ومر اكبهم البحرية تلاطمت وتلاجت  
 من بعضها وكسرت بعضها وصارت بين قوتين جاذبتين . تكاثر  
 اعصار النوء في النيل حتى جعلته سريع الجري من جهة وتهبج العواصف ومياه  
 البحر المتوسط ضد مجرى النيل من جهة اخرى فتحطمت المراكب عن  
 اخرها الا ماندرا منها ومع كل فان تعاستهم زادت باشتغال النار في باقي  
 السنين فاحترقها

فبعد ان قاسوا احوال تلك المصائب والجوع مدة خمسين يوما انسحبوا  
 عائدن بخفي حنين بعد ان تعهد لهم المسلمون بعدم معارضتهم ولا مطاردتهم  
 بالقتال اثناء انسحابهم الى سوريا .

وكان صلاح الدين قد وصل من القاهرة بعد انسحابهم بقليل ومعه



جيشاً جراراً بمعداته ليكون مدادا للقوة الموجودة في دمياط فشق عليه أمر  
انسحابهم قبل القضاء عليهم ووبخ الامراء ونوابه وقواد جنسده الذين  
سمحوا لهم بالانسحاب.

وفي السنة التالية جرد صلاح الدين جيشاً عظيماً وقام به الى سوريا  
بمقاصد الانتقام من اعدائه فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ وحاصر ديرا قديماً  
للنصارى معروفاً في التاريخ بقلعه داورن وهو على بعد اربعة امثال من غزة  
واتخذ حصناً له فلما علم بذلك اموري ملك الصليبيين وهو في عسقلان وقشند  
اتي بجيشه لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان ولما بلغ صلاح الدين  
ذلك سار لملاقاته في الطريق وقامت واقعة بين الطرفين كان قوس النصر  
فيها حليف صلاح الدين فنزل على غزه واستولى عليها. فاستبشر المسلمون خيراً  
بانتصار صلاح الدين المتوالي ولم يطمع في خلاف غزه بل اكتفى بها انتقاماً  
بثأره فقط ثم ترك فيها حامية كافية لها وعاد الى القاهرة في ربيع سنة  
١١٧٥ م سيحياً

ولما قويت شوكة صلاح الدين في مصر وعظم تفوذه حتى انكسف  
امامه تفوذ العاضد الذي أصبح خليفة اسما على غير مسمى. فلاح لنور الدين  
تخليفة بغداد ان الاسلام في مصر اضحى في غنى عن سلطة الخليفة الناطمي  
العاضد التي اصبحت لا معنى لها

فبعد وصول صلاح الدين من غزه بقليل وصله امر من خليفة  
الكرنسي وهو الاثايك نور الدين في بغداد يطلب فيه منه ابطال الخطبة

في مصر بأسم العاضد خليفة القاطميين وان يخطبوا عوضا عنه للمستضيء بنور  
الله الخليفة الثالث والثلاثين من بني العباس في بغداد . فاعتذر صلاح الدين  
بعدم امكانه تنفيذ ذلك الامر فورا خوفا من قيام احزاب الدولة الفاطمية  
عليه وحصول مالا يحمد عقباه . ولم يقل ذلك صلاح الدين حبا في الخلافة  
الفاطمية أو خوفا من قيام الاحزاب عليه كما يدعي بل كان من حسن سياسته  
انه يود وجود الخليفة العاضد في مركزه رسما فقط فيستفاد من ضعفه  
وعدم تقوذه رجوع كل القوة والسايطان اليه في امور مصر  
فبقاء العاضد في مركزه ولو انه خليفة ضعيف في العقيدة والتقاليد الاسلاميه  
افضل لصلاح الدين من تتبعه خليفة العباسيين قوي البطش حتى لا يقدر على  
مخالفته في امر فيصبح وقتئذ مسيرا في مصر لا مخيرا وشبه مستقل  
كما هو .

ولكن اعتذاره لم يصادف قبولا لدى نور الدين ووجه امره  
اخر يحتم عليه تنفيذ الامر الاول فجمع صلاح الدين امرائه ومشيريه  
واطلعهم على امر نور الدين فبعضهم وافق والآخر استعظمه واخيرا قام  
من بينهم امير فارس اسمه امير عالم وحرص صلاح الدين على وجوب  
اتباع امر نور الدين واخذ هو على عاتقه مباشرة تنفيذه .

وقد كان يوم الجمعة الاولى من محرم سنة ٥٦٧هـ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١١٧١  
مسيحيه توجه امير عالم الى ا كبر جوامع القاهرة وصعد المنبر وخطب  
في الناس وصلى باسم الخليفة المستضيء بامر الله العباسي فلم يعارضه احد

من العباسيين

فانصر صلاح الدين لذلك سروراً عظيماً وأمر باعادة ذلك في جميع  
جوامع القاهرة والنسطاط يوم الجمعة الثاني فقبل الجميع الخطبة وبذا دخلت  
مصر تحت حماية الخلافة العباسية الدينية التي قاعدتها بغداد بعد ان كانت  
انفصلت عنها مدة ٢٠٧ سنوات . ولم يؤثر تغيير الخليفة على سكان  
مصر بشيء لان الامر عندهم سيات لان غرض العنصرين المسلم والقبطي  
وجود حكومة حية تعطيهم الحرية في فلاح الارض وتشيرها طالما يدفعون  
ضرائب لها على اطيابهم ولا يجنون منها مقابل ما يدفعون نظراً  
للحروب وضباع الامن فالنرم الاتراك والاكراد والماليك والعرب  
الذين تتكون منهم الطبقة العليا من سكان مصر ان لا يهتموا بامر الخلفاء بل  
مالوا للخضوع تحت سيادة صلاح الدين ووردوا توليته سلطاناً عليهم  
لعلمهم ان حروبه لا تنتهي فيغنمون من وراءها الغنائم الكثيرة .

ولم يخيب صلاح الدين ظنهم اذ وزع عليهم وعلى امرائه وجنوده  
كل الذخائر والكنوز تعلق الخليفة العاضد التي كانت ثمينة جداً لانه بعد  
ان نهب ناصر الدولة ذخائر الخليفة المستنصر التي لا تثن من مائة سنة  
مضت قبل زمن العاضد تمكن في اثناء الخلفاء الذين اخلفوا المستنصر  
ان يجمعوا كثيراً من الكنوز والمجوهرات الثمينة التي نهبت عن يد صلاح  
الدين في عصر اخر خليفة من الخلفاء الفاطميين وهو العاضد المسكين وفي  
اثناء المائة سنة المذكورة تألف عند الخلفاء مكتبة جديدة جمع فيها من

الكتب القديمة عددا عظيما من ايدي الذين لا يدرون بقيمتها واتصلت اليهم  
عفوا من زمن ناصر الدولة وكان صلاح الدين ينظر الى الكتب بالعين  
التي كان ينظر بها الخليفة عمر .

ومزق صلاح الدين كتب تلك المكتبة التي تبلغ المائة الف مجلد  
على علماء عصره من المسلمين المصريين على امل ان يكسب بذلك محبتهم  
وثقتهم به . ولم يزل موجوداً الآن من المجلدات المذكورة محفوظة في  
مكتبة ليدن العظمى وكان لم يزل الى عهد قريب في هذا العصر بضع  
كتب موجودة بخط اليد باللغة العربية تدل على عظمة مكتبة الدولة الفاطمية  
اما الخليفة العاضد فقيض عليه صلاح الدين واستغنى الفقهاء في قتله  
فافتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد واتباعه من انحلال العقيدة وكثرة  
الوقوع في الصحابة والاشتهار بذلك

ولكن تركه صلاح الدين بدون قتل لان بقاءه وموته على حدسوى  
اما العاضد فن حسرتة وحرزته من الاحتقار والاهانة التي لحقت به فضلا  
عن ضياع الخلافة من يده سقط في مرض عضال ثم حجز عليه في احدى  
غرف القصر الداخلية وكان ذلك المرض قاضيا عليه اذ توفي بعد ايام قليلة  
من تلك الحسرة يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ٥٦٧ هـ

وهكذا الدهر دولاب والدول كالأفراد تموت وتحيي فماتت تلك  
الدولة الفاطمية العظيمة الشأن بموت الخليفة العاضد لدين الله ولكن كان  
موتها في حالة الخجل والضعف وانحطت من نفسها كانه انحلال الشمعة تحت

شعلتها بعد تلك العظمة والسؤدد التي رآها خلفاؤها بعد ان عاشت نيف  
ومايتان سنة طبقت اثناءها الافاق في شهرتها وجلالها التي لم يحلم بها  
يوايوس قيصر امبراطور الرومان العظيم الذي كان يقول - (قد اتيت -  
وفتحت ودوخت مصر العظيمة) فسبحان الحي الباقي

### الفصل الرابع والخمسون

سنة ١١٦٨ مسيحية و ٤٨٨ للشهداء و ٥٦٤ للهجرة

سلطنة صلاح الدين يوسف

وصرف السلطان صلاح الدين معظم ايام حكمه في الحروب. فكان  
دائماً يقوم بغزوات شديده وحملات منكرة ضد الصليبيين في سوريا من  
جهة ومن جهة اخرى ضد ابن مولاة نور الدين . وانتهت تلك الحروب  
بان صار المسلمون يخطبون باسمه في الجوامع بالنيابة عن الخليفة العباسي  
وبهذا العمل قد اعلن سنة ١١٧٤ مسيحية ( ٥٧٠ للهجرة ) استقلاله  
سلطاناً على سوريا ومصر وجزء من اسيا الصغرى مستثنياً من ذلك بيت  
المقدس الذي كان مقر الصليبيين وحصنهم الوحيد وقتئذ كما كانت بعض  
مدن عظيمة اخرى في حوزتهم . ثم عاد الى مصر سنة ١١٧٦ مسيحية  
يستطلع احوالها ولم يمكث فيها طويلاً بل كر راجعاً الى فلسطين واقام  
جروباً عظيمة فيها تعزيزاً لسلطنته ولم تكن حروبه قاصره فقط على فلسطين  
بل تعداها الى جنوب سوريا ليظهر حدود مملكته الجديدة من الاعداء

وفي اثناء اشتغال صلاح الدين بحروبه في سوريا لاح لملك النوبة  
 المسيحي ان يغزوا مصر نظرا لما شعر به من الضيفات والعذابات الشديدة  
 التي كانت محيطة باخوانه الاقباط سيما بعد حرق بابليون وخاصة من  
 زيادة عسف وظلم جبابرة الاسلام اثناء حروبهم ضد بعضهم  
 فتقدم بجيوشه الى حدود مصر من جهة وادي حلقات ثم تقدم الى  
 اصوان فدخلها عنوة وكان من المحتمل تقدمه من اصوان الى الشمال  
 قاصدا مصر العليا ومنها يدخل العاصمة ولكن لم يتعدده عن عزمه الا  
 ماسمعه من انقراض الدولة الفاطمية الخاملة وقيام سلطان قادر قاهر في  
 الحروب وعلى اتقاضها . ولما بلغ صلاح الدين امر حملة ملك النوبة هذه  
 اصدر امره في الحال بتسير حملة قوية ضدها وارجاع ملك النوبة من  
 حيث أتى . فلما علم ملك النوبة بقيام جيش صلاح الدين لمقاتته فتبصر  
 في الامر بنفطانته وحزمه واختار ان يرضى من الغنيمة بالاياب فانسحب  
 متقهرا نحو الجنوب ثانيا قبل ان تدركه جيوش الاعداء وينظره للمواقب  
 قدر يعلم ان قوة وعدد رجال جيوش صلاح الدين تفوق مامعه بكثير  
 فرأى ان الانسحاب في مثل هذه الظروف هو الحكمة بعينها . ولكن  
 ابت المقادير الا ان تعانده اذ لحقته جيوش صلاح الدين وهو منسجبا  
 قبل ان يفارق الحدود المصرية وضربت مؤخر جيشه فالتزم ملك النوبة  
 بالمقاومة والتجم الثريقتان في موقعه هائلة ولم يقدر يتغلب احدهما على  
 الآخر فلما رأى قواد الجيشين انهم خسروا خسارة عظيمة جدا بدون

انهزام احد الطرفين التزموا بالكف عن القتال وتقهقر جيش ملك النوبة  
 للجنوب وجيش صلاح الدين الى الشمال حتى عاد للقاهرة .  
 ولما علم صلاح الدين بعدم اقتدار حملته هذه على قهر ملك النوبة  
 استشاط غيظا ولم يقتنع بما احدثه جيشه بجيش النوبيين من الخسائر  
 الفادحة فاستقدم اخيه شمس الدولة وعهد اليه قيادة حملة قوية وامره  
 بالسفر الى النوبة والاقتصاص من ملكها واهلها جزاء اقدامهم على  
 غزو مصر .

فقام شمس الدولة بتلك الحملة اذعانا الامر اخيه وسار بها حتى وصل  
 الى حصن دير ابراهيم ( المعروف محله الآن ببلدة ابريم ) وكانت اول حدود  
 النوبة وحاصره ثم فتحه بعد حصار ثلاثة ايام وكان في ذلك الحصن قلعة  
 ذو طوابي منيعة جدا قائمة على سفح الجبل تجاه اول بلدة من بلاد النوبة  
 وكان لهذه البلدة كنيسة عظيمة باسم العذرا مريم وكان مشيدا على بابها من  
 الخارج صليبا كبيرا جدا .

فلما دخل شمس الدولة الى تلك البلدة برجاله اباح فيها السلب والنهب  
 وسبي اهليها واطلق سراح الاسرى المسلمين الذين كانوا وقعوا في قبضة  
 ملك النوبة وقت حملته هذه الاخيرة على مصر . وبعد ان انتهى شمس  
 الدولة من قتل ونهب اهالي تلك المدينة التعيسة صار يبيع المسيحيين  
 الباقين فيها احياء يبيع الرقيق ثم نهب مقتنيات الكنيسة وخزيتها وكل ما  
 فيها من الاشياء الثمينة وبعدئذ اوقع ذلك الصليب العظيم من فوق القبة

وحرقة وحول الكنيسة الى جامع للمسلمين وجعل برجها العالي ماذنة له  
 اما اسقف تلك الابروشية فقبض عليه شمس الدولة وسامه عذابات  
 الية جداً كي يعترف له عن ثروته التي ظنها تخبأت. ولكن تحقق له بعد  
 ذلك انه لم يكن عند هذا الاسقف شيئاً مخبئاً فكف عن عذابه ثم باعه  
 رقاً مع باقي من باعهم من المسيحيين .

وكان شمس الدولة يريد ان يغزوا اثيوبية . ولكنه علم ان  
 ذلك ليس امراً سهلاً كغزو مصر فلم يتوغل الى ابعد من هذه البلدة  
 وهي دير ابريم . واخيراً عزم ان يتركها ويعود ثانياً الى مصر لان  
 الحركاد ان يقتله هو ورجاله . غير انه كان ضمن قواده رجلاً كردياً  
 يدعى ابراهيم طلب منه ان يملكه هذه النقطة عوضاً عن تركها بعد ان  
 تعب في فتحها فاجابه شمس الدولة الى طلبه وملكه هذه النقطة وتركه فيها  
 وترك معه حامية من جيشه وكر راجعاً الى الشمال مع باقي الجنود حتي  
 وصل قوص فعسكر فيها واتخذها مقراً له .

اما ابراهيم ومن بقي معه من الجنود الاكراد المتبربرين فظلموا  
 في دير ابراهيم وعاثوا في تلك الجهة فساداً وقد مضى عليهم سنين هناك  
 تضوها في السلب والنهب والقتل وقطع الطرق وتقليع المزروعات وسرقة  
 المواشي فصرخ الاهالي منهم الى ملكهم فالتزم هذا بان يرسل سفيراً من  
 قبله الى شمس الدولة في قوص ومعه عبد وجارية بصفة هدية فطلب منه  
 عقد الصلح معه حتى يعود الصفاء والسلام بين البلدين كما كان



فلما وصل ذلك السفير بهديته الى شمس الدولة وعرض عليه الخطاب الذي معه من سيده ملك النوبة قبل منه شمس الدولة الهدية الا انه اعطى للسفير بدلها زوجان من نبال الحرب فقط علامة على ازدرائه بما موريته ولم يشأ ان يجاوب ملك النوبة بشيء . ثم انه لحظ من ميل مسيحي النوبة الغريب في طلبهم الصلح والسلام ضعف حالة تلك البلاد ودخله الطمع فيها فاوفد مع السفير عند عودته رسولا بقصد الوقوف على حقيقة الميل لعقد الصلح واعطاه تعليمات سرية ليتجسس احوال بلاد النوبة عند وصوله اليها ويعود فيخبره بحقيقة احوالها ودرجة استعدادها للحرب والقتال والمكاشفة والنزال وكان ذلك الرسول رجلاً حليياً يدعى مسعود فلما وصل الى بلاد النوبة لاقى حظاً وراحة اكثر مما كان ينتظر . لانه ولو ان ملك النوبة لم يشأ مقابله الا انه سمح له بالعودة لبلاده سالماً ولم يبد له اقل شيء يجرح احساسات الاسلام كما ابدى شمس الدولة لسفير ملك النوبة .

وقبل ان يعود مسعود الى مصر قابل الملك بنوع الصدفة وكان حينئذ وحده راكباً جواداً بسيطاً لاشي من ابهة الملك عليه . فلح مسعود على الملك ان يقترب منه ويسلم عليه فضحك الملك وامره ان يضع يديه فوق بعضها بشكل صليب ثم سمح له بالسلام عليه . وبعدئذ امر باعطائه خمسين رطلاً من الدقيق واطلقه لحال سبيله الى مصر .

ولم يتجول مسعود في بلاد النوبة اكثر من مدينة دنقلا التي قال عنها

انها لا تحتوي على شيء يستحق الذكر سوى قصر الملك. ولكن كيفما كان الحال فان اميال صلاح الدين كانت كاميال جوهر الذي تقدمه في حكم مصر وهو عدم الرغبة في ضم ممالك السودان المسيحية على مملكته

وبعد ذلك بزمن قليل غرق ابراهيم الكردي مع كثيرين من اصحابه عند عبورهم النيل اثناء استعدادهم للسطو على احدى البلاد. فالتزم باقي رجاله ان يتركوا حصن دير ابريم ويعودوا لمصر فعاد النوبيون وامتلكوه كما كان

وفي سنة ١١٧٦ مسيحية الموافقة ٥٧٢ للهجرة قام اقباط مدينة قفط بشيء من التمرد والعصيان ضد الاسلام فاطفأ نار تلك الفتنة قبل استفحالها العادل أخو صلاح الدين الايوبي الذي جاء الى تلك المدينة التعميسة الحظ وشرع في الاخذ بشار المسلمين من الاقباط بافطم الطرق - وذكر المقرئ في تاريخه ان العادل هذا قصد الاخذ بشار اخوانه المسلمين بواسطة صاب ثلاثة آلاف رجلاً قبطياً من سكان قفط على الاشجار المحيطة بها واستعمل أحزمتهم وعماماتهم واسطة لصلبهم بافطم أنواع الصلب والهلاك

وفي عام ١١٨٢ ميلادية (٥٧٨ للهجرة) توفي ابن الاتابك نور الدين فكانت وفاته من حسن حظ صلاح الدين وفرصة مناسبة في استقلاله بملك مصر وسوريا لانه لو عاش ابن نور الدين المذكور لآخاف صلاح الدين في سلطنته ولكن بموته صارت السلطنة لاولاد صلاح الدين الذي

فرح لذلك فرحا لا مزيد عليه وحمل في الحال حملات شديدة ضد الصليبيين فاتصر عليهم وأخذ منهم في سنة واحدة بين عامي ١١٨٥ و ١١٨٦ بلاد طبرية والقيصرية وحيفا ويافا وسدوم ويبروت وعكا وبعض مدن كثيرة أخرى صغيرة وفي عام ١١٨٧ تقدم بجيشه الى بيت المقدس ففتحها وأسر ملكها . لان بيت المقدس كانت خالية من القوة التي تمكن من مقاومة حصار جيش العرب لها . وكان جل ما في داخلها فريق من العوام والفقراء الذين لا طاقة لهم على القتال ولم يكن لها جيش سوي ١٤٠٠ رجلا من الفرسان فدافعوا عن المدينة مع الكهنة المسيحيين والشمامسة الذين كانوا يعتقدون انهم يدافعون ويجاهدون جهادا دينيا وفرضا واجبا عليهم للمحافظة على هذه المدينة المقدسة ولكن عاد الشعب فالتفت حول البطريرك وعلا صياحه وضحجه وهاج ضد الكهنة من داخل المدينة طالبا التسليم بشروط مناسبة وبعد جهاد دام أربعة عشر يوما سلم البطريرك المدينة تحت شرط انه بعد ان يدخلها المسلمون لا يأخذون سكانها المسيحيين أسرى بل تكون قاعدة الصلح ان يودي كل مسيحي عشرين ديناراً فدية عن نفسه وكل مسيحية عشرة دنانير وكل طفل دينارين فمن أحضر فديته نجا بنفسه والا أخذ أسيرا وكان بين الاهالي أربعة عشر الف نفس غير قادرين على دفع الجزية المفروضة عليهم فأطلق صلاح الدين سبيل بعضهم دون فدية لانه رأى لا يصلحون لاي عمل وأسر النصف الآخر بعد ان نكس الصليب القائم على قبة الصخرة وكان عظيم الحجم

وقد وافق يوم دخوله المدينة واستلامه أياها ليلة المعراج ١٧ رجب  
سنة ٥٨٣ هـ ففرح المسلمون لذلك فرحا عظيما وتقاطروا من كل صوب  
يهنئون سلطانهم على ما أحرزه من النصر وعلى سقوط أورشليم في يده  
وخضوع سوريا كلها لسلطانه ما عدا مدن ترسوس وطرابلس وانيوخ  
التي كانت باقية في يد المسيحيين

وما بلغ ملوك أوروبا خبر سقوط أورشليم للمرة الثانية في يد  
الاسلام بعد بنائها ٩٦ سنة في يد المسيحيين حتى هالهم الامر واستولى  
عليهم الرعب المنزع فاجتمعوا متحدين مع بعضهم بعضا لقتال جيوش  
صلاح الدين واعادة الحرب الصليبية كما كانت حيث قام امبراطور الغرب  
فردريك بروسيا حاملا صليبه وكتب الى صلاح الدين يدعو الى القتال  
ويقول له انه من سلالة الرومانيين القدماء وخليفتهم أي السيد المطلق  
على مملكتهم شرقا وغربا . فاجابه صلاح الدين بكتاب لا يقل عن كتابه  
حماسه وتفصل طالبا منه القتال قائلا له باعجاب وغطرسه ( لم يكن قصد  
المسلمين التسلط على المسيحيين وقهرهم فقط في الشرق بل في عزمهم  
مهاجمة أوروبا واكتساحها كلها وسوف تؤخذ كل بلادك منك بقوة  
الخالق سبحانه وتعالى . . . . لان المسيحيين باتحادهم الديني قاموا ضدنا  
مرتين في بابلون . ومرة في دمياط وأخرى في الاسكندرية . . . .  
وأنت لاشك تعلم كيف انتهى الحال بالمسيحيين وردوا على أعقابهم  
خاسرين في كل جملة ) وذييل كتابه هذا بامضائه الحامل لثلاثة عشر لقباً

أعطاهما لنفسه كلقب (المخلص) و(المصالح) و(منظم العالم) و(مصحح القانون)  
و(منقح الشريعة) الخ

وما وصل هذا الكتاب الى الامبراطور فردريك حتى قاد جيشاً  
عمر ما من جميع أمم اوروبا وسار به لمقاتلة المسلمين ولكن سوء الطالع  
أدركه فغرق في الطريق وكانت هذه الحادثة أول صاعقة وقعت على رأس  
هذا الجيش في مسيره بينما كان المقيمون من الافرنج في فلسطين قد  
حاصروا مدينة عكة في شهر اغسطس سنة ١١٨٩ دون ان ينتظروا مجيء  
اخوانهم الصليبيين القادمين لنجدتهم من اوروبا ولم يكن في وسع صلاح  
الدين طردهم عنها فاستمروا على حصارها مدة سنتين . ولو ان صلاح  
الدين أرسل ليتقدم أسطول مصر الراسي في الاسكندرية محملاً بالمؤن  
والذخائر وجمع كل قواه حول المدينة لما استطاع خلاصها من أيدي  
المحاصرين لها لان الصليبيين أوجهة فردريك قد أتوا من اوروبا وهم  
الفا فارس وثلاثون الف مقاتل من المتدربين فاشتركوا مع أفرنج فلسطين  
في تضيق الحصار على المدينة وكان بين الصليبيين القادمين من اوروبا  
الملك فليب ملك فرنسا وريكاردوس (قلب الاسد) ملك انكلترا

ولما رأى صلاح الدين انه لا يستطيع مقاومة تلك القوة الهائلة  
اضطر ان يسلم المدينة تحت شروط اشترطها عليه الصليبيون لاتمس  
بشرفه ولا بشرف الاسلام هذه ومفادها أولاً تسليم المدينة وثانياً تسليم  
الصليب الحقيقي الذي صلب عليه السيد المسيح وأخذه المسلمون يوم فتح

اورشليم وثالثاً اطلاق سراح الفئتي نفس من اشرف المسيحيين اسرهم  
 صلاح الدين وخمسماية شخص من طبقات مختلفة من المسيحيين ورابعاً  
 ان يقوم المسلمون بدفع ٢٠٠ الف دينار بصفة غرامة حرية

فقام صلاح الدين وكبار المسلمين الذين معه بتنفيذ الثلاث بنود  
 الاولى من شروط الصلح . اما البند الرابع وهو الغرامة الحرية فقد  
 تأجل دفعها الى وقت آخر لعدم وجود قيمتها في خزانة الحكومة مسلماً  
 بدلها للصليبيين كل اشرف المسلمين واولادهم بصفة اسري تحت امر  
 ملكهم . حتى تسدد هذه الغرامة الكبيرة . فقبل ريكاردوس (قلب الاسد)  
 ذلك الاقتراح من صلاح الدين ولكن لما ابطأ في تنفيذ البند الثالث كما  
 وفي تسديد الغرامة الحرية كوعده قام ريكاردوس ملك الصليبيين وصاب  
 اولئك الاشرف المسلمين وكانوا ٢٧٠٠ علنا خارج مدينة عكا انتقاماً من  
 صلاح الدين ومن المسلمين .

وقد خسر الصليبيون اثناء ذلك الحصار الطويل ستة بطاركة ومطارنة  
 واثني عشر اسقفًا واربعين اميراً بدرجة ( كونت ) وخمسماية من النبلاء  
 والاشرف بخلاف باقي الطبقات والدرجات الاخرى من كهنة وعلمانيين  
 اما المسيحيين الذين كانوا اسرى عند صلاح الدين وعددهم ١٢ الف نفس  
 فقد خلا سبيلهم بعد كل تلك الحوادث بالرغم عن ضعف ايمانهم بالله  
 وارسلهم الى بابلون في مصر بحراسة قوه صغيره من الجنود التركية .  
 واتفق في هذه الاثناء ان قام الملك ريكاردوس بحرسه الى داخلية الواقعة

على مقربة من دائرته لمعرفة البلاد ما فيها واكتشاف اثارها ( وهو مع  
قلة الجنود التي كانت معه يومئذ فان شهرته في القوة والبأس قامت مقام  
القوة الحربية الكافية له بحيث ان الجنود الاتراك الذين كانوا يحرسون  
الاسرى بمجرد ما وقع نظرهم على علم ريكاردوس دب في قلوبهم الرعب  
والارتجاف فتركوا الاسرى وفروا هارين من وجهه ولما رأى ريكاردوس  
ذلك انقض على المسلمين الذي كانوا مع الاسرى المسيحيين وامر حرسه  
بذبحهم واسر عشرين ضابطاً منهم واطلق سراح الاسرى جميعهم  
ودام العداء سنة من الزمان بين ريكاردوس وصلاح الدين الايوبي حتى  
تعبا من جراء ذلك العداء واتفقا اخيراً على تقديده دامت مدة ثلاث  
سنوات واشترط ريكاردوس انه في خلال تلك الثلاث سنوات يصرح  
للمسيحيين بزيارة القبر المقدس فقبل صلاح الدين بذلك وقامت جمعيات  
وفريق عظيم من المسيحيين والمخار بين الصليبيين لتأدية فريضة الحج  
قبل عودتهم الى أوروبا . اما الملك ريكاردوس فاعتبر نفسه غير مستحق  
لتلك الزيارة لاعتقاد انه عجز عن فداء القبر وتخليصه من ايدي المسلمين  
وخرج المسيحيون للحج في السنة الثالثة برئاسة اسقف سولسبري  
الانكايزي الذي كان تقابل مع صلاح الدين وتحصل منه على رخصه  
بذلك وكان كهنة الكنيسة اليونانية في ذلك الحين وما قبله هم القائمون  
بخدمة القبر المقدس . فلما وصل اسقف سولسبري لهنالك اعتبر اولئك  
الكهنة هراطقة وسعى حتى وضع بأمر صلاح الدين كاهنين وشمامسين من

الكنيسة اللاتينية التابعة لبابا رومية لخدمة كنيسة القبر المقدس وعين مثل  
هؤلاء ايضاً لخدمة كنيسة بيت لحم وانا صرية .

و بعد انقضاء الثلاث سنوات الهدنة دام السلم مستمراً بين صلاح الدين  
وريكاردوس . وفي يوم الاربعاء ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ تم الصلح بينهما  
بعد مداوات ومخاطبات يطول شرحها . ونادى المنادون ان البلاد  
الاسلامية والنصرانية واحده فمن احب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد  
الطائفة الاخرى فله ذلك دون خوف ولا حذر . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً  
فرحت به الطائفتان وعادت الصلات الى مجاريها وعم السلام في ربوع  
سوريا وصار الزائرون يفتدون الى بيت المقدس من كل صوب . ثم توجه  
السلطان صلاح الدين نفسه ليتفقد احوال تلك المدينة وتودد تودداً عظيماً  
مع ريكاردوس قلب الاسد حتى صار صديقين حميمين حيث انس كل  
منهما في صاحبه العزم والحزم والبطش والمقدرة . ويقول بعض المؤرخين  
انهما لم يتصادقا الا لما تعرفا ببعضهما بواسطة الرموز الماسونية فتحققا لهما  
الاخا . ولولا ذلك لما تساهل البطل صلاح الدين مع النصاري الى  
هذا الحد .

على ان المنية مع عجزها على مهاجمة ذلك الباسل في ساحة الحرب والقتال  
لم تخش مهاجمته وهو على فراشه بين اولاده واخوانه  
ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان لملاقاة الحجاج فعاد الى منزله ضعيفاً  
ثم اصابته الحمى الصفراء فزادته ضعفاً الى ان توفاه الله في مدينة دمشق



صبيحة الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ الموافق سنة ١١٩٣ ميلادية  
 فحزن عليه ريكاردوس قلب الاسد حزناً شديداً لانه توفي قبل ان  
 يرجع ريكاردوس الى انكلترا بستة شهور .

وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ ان فقد الخلفاء الراشدين  
 (رضي الله عنهم) وغشى القلعة والملك والسلطنة والدنيا كلها وحشه عظيمه  
 وكان الناس يتمنون فداء ذلك العزيز بنفوسهم الذي مات بعد ان عاش ٥٧  
 سنة وحكم ٢٤ سنة في مصر و١٩ في سوريا ومن يتأمل في تاريخ  
 صلاح الدين وحياته العملية في العالم يندهش كيف انه في بحر الاربعة وعشرين  
 سنة التي اقامها في مصر قد رفع نفسه بمواهة من ضابط صغير في حمله  
 عسكريه كردية اتت اتفاقاً الى مصر الى ان ملك على عرش السلطنة  
 الاسلامية التي اسسها في مصر وسوريا بجده واجتهاده وهو ليس كل ما  
 كانت تسمح اليه نفسه العزيزه ولكنه بما ان النفس خلقت تطلب المزيد  
 بل بلغت من نيل ما نمت فان السلطان صلاح الدين كان يطعم في اكتساح  
 روسيا والهند وضمهما الى سلطنته وما اخره عن ذلك الا هادم اللذات .

واجتمع في تشييع جنازته خلق عظيم جدا ودفنوه باحتفال عظيم داخل الدار  
 التي كان مريضاً فيها . وقرت شقيقته المدعوة ست الشام الصدقات الكثيرة  
 من جيبها الخاص . لان بعض المؤرخين يقولون انهم لم يجدوا في خزينته  
 خصوصية الا ديناراً واحداً و٤٧ درهماً من الفضة ولم يجدوا أثراً للذهب  
 وغيره من الحجارة والذخائر الثمينة التي يتركها عادة السلاطين امثاله وذلك

مما يدل على فرط كرمه لانه كان يجود بكل ما اتصل اليه يده على ذويه واقارب  
 وفي الغالب ان الملك الذي يطمع بالاعتداء على أملاك غيره لا يتاح  
 له ذلك الا بعد ان يرى مملكته الاصلية في حالة الرغد والهناء وهكذا كان  
 حال صلاح الدين في مصر في اوائل حكمه واثناء الحروب التي كان  
 يقيمها الساطان في فلسطين لم يكن يدفع مرتبات للجنود بل في الغالب  
 كانوا يأخذون اجرتهم من سلب البلاد التي يفتحونها وما كانت  
 مصر تمد الجنود المحاربة في فلسطين الا بتقليل من المال اما المؤونة والذخائر  
 فكانت ترسل لهم عن سعة

وجبايرة الاسلام الذين كانوا يعيشون في مصر على السلب والنهب  
 وقطع الطرق قد فارقوا مصر وانضموا لجيش صلاح الدين المحارب في  
 فلسطين حيث وجدوا ان هناك مغماً أوفى وبنغيابهم عن مصر عادت البلاد الى  
 قوتها الاصلية الصحيحة وعاش أهلها في هناء وسلام

ومما يذكر عن سيرة صلاح الدين انه في اثناء حروبه بفلسطين اسند  
 عرشه في مصر الى بهاء الدين أحد خصيانه السود حيث كان يثق به  
 وباخلاصه الثقة التامة. وأطلق عليه المصريون بعد تناوله مسند الوزارة  
 لقب قرقوش ( اعني العصفور الاسود او طير الشحرور). وسموه بذلك  
 وازدراء به اذ قد استأوا من ان عبداً جاهلاً أمياً مثله صار ملكاً عليهم  
 وصاروا مكافئين بطاعنه لان عادة المصريين في احترام وتبجيل اجدادهم واسلافهم  
 العظام لم تكن قلت اهميتها عندهم او بطلت وكان اول ملاقاه المصريون

من المسلمين والاقباط على السواء من احكام بها الدين قرقوش استهزاءه  
 بقبور موتاهم وامتهانها وتدنيها وانتهاك حرمتها بحفرها ونبشها ولم يكن  
 قصده من نبش القبور البحث على الذخائر والكنوز كما كان يفعل  
 السلاطين والوزراء الذين تقدموه بل كان عمله هذا خالي من  
 الغرض المذكور لانه كان يعتقد ان وجود الكنوز بين القبور  
 من الخرافات والحكايات الفارغة و فقط كان غرضه من هذا الصنيع اغاظة  
 المصريين وكرها لهم من انهم يبض البشرة وهو اسودها فاستنزل بصنيعه  
 هذا سخط المصريين عليه حالة كون السلطان صلاح الدين اوصاه بعد  
 ان ولاه لضرورة استجلاب رضائهم له واكد عليه بضرورة تطهير وتقوية  
 الترع والخلجان لري الاراضي بالراحة ليزيد محصول البلاد ويعيش  
 الاهلون في نعيم ورخاء . وفي الواقع لو كان عمل هذا القرقوش الجبار  
 بجزء مما اوصاه به صلاح الدين فخاز رضا المصريين وممنونيتهم . وقد  
 اوصاه صلاح الدين ايضا ان يعيد بناء سور القاهرة وبعض عمارات واصلاحات  
 اخرى عمومية التي تحتاج الى احضار حجارة كثيرة وعمل عظيم .

ولكن جهل ذلك الوزير الغبيء وسوء فكره باحوال البلاد التي  
 يرأسها انه امر بقطع احجار جديدة من الجبال البعيدة بينما كانت السهول  
 الواسعة التي في غرب النيل ملاءة بالحجارة المقطوعة الجاهزة على مسافة  
 عدة اميال وتلك الحجارة المنحوتة الجاهزة هي بقايا خرائب مدينة منفيس  
 القديمة القريبة من مدينة القاهرة الجديدة . لانه كان حطم بجهره كل

الحجارة الموجودة في ذلك المتسع العظيم ودكها في الارض ماعد الحجارة  
الكبيرة الحجم منها التي لقيت على جانبي النيل لعدم مكانه تحطيمها اودكها  
في الارض. واتى بالحجارة الجديدة المقطوعة من الجبل مع بعض من  
تلك الحجارة القديمة واستعملها في اعمال عمومية كثيرة لم يزل اثرها باقياً  
الى اليوم منها الجسر الذي اقامه على النيل بين الجيزة والاهرام وكان هذا  
وكان هذا الجسر مركبا من اربعين قنطرة وقد اختفى اثره الان ولكن سد  
المياه لم يزل اثره باقيا لان. ويرى في بولاق مصر وقلعة القاهرة الحالية  
التي بناها صلاح الدين الايوبي على انقاض القلعة القديمة التي بناها احمد  
ابن طولون لم يزل شاهدة حتى الآن على سفح جبل المقطم باعمال وعمارات  
ذلك السلطان العظيم ومن اثار صلاح الدين ايضا البئر المعروفة بجوار  
القلعة ببئر يوسف ثم تلك القناة الباقية العظيمة التي كانت تحلب المياه من  
النيل الى المدينة

وبني ايضا صلاح الدين شونا واهراء ومخازن عظيمة للغلال بقرب  
الفسطاط ولم يزل بقايا خرائبها الى الان موجودة عند مصر القديمة وهذه  
النقطة معروفة عند المصريين باسم (مخازن يوسف الصديق). (١)  
وارتأى بهاء الدين ان يبني سورا عظيما يحيط باربعة اجزاء المدينة

(١) بناء على اعتقاد المصريين ان تلك الاهراء هي (مخازن يوسف) قد  
اعتادوا بان يفهموا السواحين الذين يزورونها ان بني تلك المخازن والبئر العظيمة  
الموجودة بالقلعة هو البطاركة يوسف قبل خروج الاسرائيليين من مصر

وهي بابلون والنسطاط والقاهرة ومصر ويبقى خارج ذلك السور العظيم  
حصن الرومانيين الموجود في بابلون. ولكن لم يتم ذلك المشروع اما العجز  
قراقوش عن تجهيز ادوات البناء او لعدم مصادقة صلاح الدين عليه. والذي  
عمله قراقوش بناء على مصادقة صلاح الدين هو ترميم سور مصر والقاهرة  
وتقويته وترك النسطاط وخرائب بابلون خارج ذلك السور.

واتفق في مدة حكم السلطان صلاح الدين ان حاكم الاسكندرية اراد  
معارضة ومنع أحد الاعداء من ايقاف مراكبه وربطها قرب سور المدينة.  
فهدم ذلك العدو على مهل الاربعماية عمود التي كانت الى ذلك الحين قائمة  
على خرائب سرايوم والتي حجارتها في البحر وبهذا العمل مهد السبيل  
الى الاقتراب من سور المدينة. ولم يبق من تلك الاعمدة الاثرية العظيمة الا  
عمود واحد يسمى الان عامود بومبي وقد رآه عبد اللطيف المؤرخ العربي  
عند زيارته تلك البقعة. واطهر حزنه المنقرط عند ما شاهد بقايا الاربعماية  
عامود المائة قطعاً على شاطئ البحر.

ولما كان بهاء الدين يسوق المصريين مسلمين ونصارى معاً للسخرة  
في تلك الاعمال وبناء السور كرهه العنصران كرها شديداً. اما الاقباط  
فلم يضطهدهم اضطهاداً حقيقياً بل ضايقتهم مضايقة شديدة بقدر ما امكنه.  
واول عمل اتاه ضدهم انه رقت كل الموظفين منهم في جميع دوائر  
الحكومة. واخيراً عاد وارجعهم من نفسه لما رأى ما رآه  
غيره ممن تقدمه في حكم مصر استحالة انتظام الاعمال المصلحية سيما

الحساية منها بدونهم . ثم عمده بعد ذلك الى الاستبداد بهم حيث امرهم  
 بتعليق اجراس في اعناقهم وصلبان كبيرة في صدورهم وحرّم عليهم اقامة  
 معالم الزينات والاحتفالات الدينية والاعياد . وبهذه الاعمال كان مكرهاً  
 وممقوتاً منهم ومن عامة الشعب المصري عموماً . وكان العوام يتقمون  
 لنفسهم منه بان صاروا يمثلونه العوبة في ملاعبهم وكانوا يستعملون كل  
 مواهب فطنتهم وزكائهم في هجوه وتقريعه حتى جعلوه اضجوة وسخرية  
 وصار لا يذكرون اسم قراقوش الا ويصجبه الهزاء والسخرية . وهكذا صاروا  
 يستعملون طرقاً شتى على انواع مختلفة . حتى ان ذلك الوزير المشهور بقراقوش  
 مع انه كان حاكماً على جباية الاسلام صار اسمه يذكر على توالي لاجيال  
 حتى اليوم يذكر مع الاحتقار والهوان حتى ان المصريين الآن  
 يتحدثون في انديتهم او يمثلون في مراسيمهم صور جهل وحماقه وورذائل حكامهم  
 السابقين يذكرونه بكل هجو وتقريع مصحوباً بالاضاحيك الهزلية  
 ويصورونه في هيئة تمثال سخري مضحك جداً وهو ما يسميه الآن  
 عامة المصريين واولادهم باسم اراجوز . والعباب اراجوز الموجودة الآن  
 بمصر هي من آثار ما كان يلعبه المصريون سابقاً بذلك التمثال تحقيراً بقراقوش  
 الذي تحرف اسمه الان عند اللاعبين باسم اراجوز . وكانت لعبة قراقوش  
 أو اراجوز أو الالعاب التي مثلها المصريون في عهد بهاء الدين ونقلها الانكليز  
 عن المصريين في ملعب البنش والجودي ولم تزل تظهر عند الانكليز الآن  
 في معارضهم . انما كان مبدأها عند المصريين هو انهم يعلمون عربه

صغيرة وفيها تلك الالعوبة السخرية ويسمونها باسماء والقاب رمزية  
ويقصدون بها الاستهزاء بالحكام الظالمين . وقليل من المصريين الآن  
من يعرف ان اصل لعبة اراجوز التي يتفرج عليها صغارهم هي رمزاً عن  
بها الدين قراقوش ذلك الحاكم الجاهل الظالم



## الفصل الخامس والخمسون

النزاع والفتن بين الكنيسة الحبشية

وامها الكنيسة المصرية

سنة ١١٩٣ مسيحية وسنة ٩٠٩ للشهداء و٥٨٩ للهجرة

توفي صلاح الدين عن ستة عشر ولداً وابنة واحدة تدعى مؤنسة  
تزوجت بابن عمها ناصر الدين محمد ابن سيف الدين . اما الاولاد  
فقام النزاع بينهم بشأن الملك وجرت مخاصمات وحروب فيما بينهم كما هي  
العادة عند الشرقيين في مثل هذه الاحوال وانتهت تلك الحروب الاهلية  
بين اولاد صلاح الدين واخوته بتقسيم الملك فيما بينهم غير ان الحصاص  
لم تكن متساوية فان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتنع الباقون  
بمقاطعات صغيرة وتم كل ذلك بموافقة الامراء . فكانت سورية نصيب  
ابنه الاكبر وهو المدعو نور الدين ولقب بالافضل واماماني اولاده المدعو  
ابو الفتح فلقب بالملك الظاهر غيات الدين وكان نصيبه حلب وسوريا الغربية  
ومن ضمنها حوران وتل باشر وعيراز والمنبج وابنه الثالث المدعو عماد

الدين عثمان فلقب بالملك العزيز وكان نصيبه مصر . وبذا تم تقسيم الدولة  
الايوية الى ثلاث دول هي الايوية الحلبية والدمشقية والمصرية .

وبعد ذلك التقسيم عرف كل من اولاد صلاح الدين الثلاثة .  
نصيبه . وظهر ان اعداء صلاح الدين كانوا غير قادرين على التظاهر بالعداوة امامه  
وهو على قيد الحياة فزرعوا بذور الشقاق بين اولاده فثبتوا ضد تيار تلك  
العوامل في بادئ الامر ولكن بعد ثدقام بينهم الشقاق والتحاسد والتباغض  
بتأثير ذوي المناسد

وكان ممن اثروا على الملك العزيز حاكم مصر عمه المدعو سيف الدين  
الملقب بالملك العادل .

ففي سنة ٥٩٢ هجرية راى ذلك الم (الملك العادل) وهو حاكم الكرك  
والشوبك وقتئذ ان ملكه صغير بالنسبة لاخوته واولاد اخيه صلاح  
الدين . فصار يتداخل رويداً رويداً في شؤون مصر وحكومة ابن اخيه  
الملك العزيز حتى صار له تفوذ عظيم وتأثير كبير عليه ثم حرصه على خلع  
الملك الافضل اخيه الاكبر عن دمشق وسائر سوريا الغربية والشطوط  
البحرية واورشليم ودمشق وبالاجمال عن كل الحصص التي كانت من نصيبه  
كي يتولى هو بدله نخلعوا الافضل المسكين فقمر من دمشق الى بغداد ليستجد  
الخليفة الناصر لدين الله

ولكن لم يكد الافضل يصل الى بغداد حتى شعر العادل بوخذ ضميره  
له على عمله فدعا ابن اخيه الافضل ثانياً ونازل له عن ملكه المغتصب



وزاد في مرضاته بان تنازل له ايضا عن املاكه الاصلية في الكرك  
والشوبك. ثم أشار الملك العادل ومن يلو ذبه على الملك العزيز عثمان بان  
يهدم اهرام الجيزة التي لم يكن باقيا بدون هدم منها وقتئذ الا تلك الاهرام  
الثلاث الكبيرة الباقية تقاوي الدهر حتى اليوم. فسمع الملك العزيز  
مشورتهم واصدر امره في الحال بالهدم. فوجدوه عسيرا فابتدأوا اولاً بهدم  
الاصغر منها المعروف بالهرم الاحمر. فاستحضر الانعام وقاطعي الاحجار  
وجمع فعلة من الفلاحين والقرى المجاورة للاهرام وجعل لهم اجوراً باهظة.  
وجعل مباشرة ذلك العمل العظيم تحت ملاحظة بعض امراء كثيرين فأنهوا  
لجنة مهمة لذلك وخبأوا حولاً تحت الاهرام حيث يقف الترامواي هناك  
الآن وابتدأوا بالعمل

اشتغل أولئك العملة واللائحمون والقطاعون مدة ثمانية اشهر بتمامها شغلاً  
متواصلاً وبعد تمام تلك المدة رأوا انهم يضربون في حديد بارد اذ قد روا  
ذلك العمل الشاق فاستنتجوا ان ماتم هدمه هو بنسبة حجر واحد في كل  
يوم ولم يهدموا في الثمانية اشهر الا قسماً صغيراً من قشرته الخارجية وجعل  
فيه خرق لم ينزل ظاهراً الى اليوم.

واخيراً رأت لجنة الامراء ان اتمام الهدم محال فضلاً عن انه راحت  
نفقات طائلة على اتمام هدم ذلك القسم الصغير فانه فقط تشوه تشويهاً.  
فاقرت على الكف عن الهدم وكان ذلك سنة ٥٩٣ هجرية فقابل المصريون  
ذلك الخذلان بالهزء والسخرية وزار استهجانهم لهؤلاء الحكام الجيلاء

واحتقروا كل مشروعاتهم

لكن الملك العزيز لم يثن عزمه ذلك الخذلان امام الاهرام بل  
شرع في مشروع اقبح من الاول واليك البيان

كانت ايام فيضان النيل في بلاد مصر سيما في القاهرة تعد من ايام  
الاعياد عند المصريين عموماً والاقباط منهم خصوصاً اذ ورثوها من  
أجدادهم الفراعنة العظام الذين كانوا يقدسون النيل تقديساً وذلك لانه في  
زمن الفيضان تمتلئ الترع والخلجان ولا سيما خليج القاهرة الذي يحترقها.  
ولما كان الاحتفال بايام الفيضان عيداً عظيماً عند المصريين من اجيال عديدة  
صار ذلك الاحتفال عندهم قاعدة دينية وطنية. لان في الروايات والاساطير  
القديمة شيئاً كثيراً يدلنا أن المصريين كانوا في مدة عبادتهم الوثنية  
اي الاجيال التي تقدمت المسيح كانوا يؤلهون النيل ويقدمون  
له سنوياً ذبيحة بشرية هي عذراء طاهرة ولذلك تفصيلات عظيمة  
لا محل لها هنا

أما وقد دخلت الديانة المسيحية أرض الفراعنة فابطلت تلك العادة  
الشنيعة وحول كهنة الاقباط ذلك العيد الديني الى امرأ أخف ضرراً  
بأنوع البشري اذ قرروا استبدال القاء العذراء حية في النيل بوضع يد  
عذراء محنطة في مياه النيل بشرط ان تكون العذراء المائتة مشهورة بأنها  
طاهرة سالحة اعتقاداً منهم بان ذلك يقدس ويبارك النيل. وبالاجمال  
فانه مهما اختلفت تلك العوايد واساليب الاحتفال بالنيل فان ايام فيضانه

كانت تعتبر لدى المصريين اعياداً وطنية عمومية حتى يومنا هذا. والسائحون الذين يزورون مصر قلما يشاهدون احتفال المصريين بذلك العيد لانه لا يتفق وقوعه وقت زيارتهم لها فقي تلك الايام تقيم له الحكومة مهرجانا هائلاً ويشترك معها الاهالي في ذلك الاحتفال العظيم المعروف عندهم بليلة (جبر الخليج) فترى الذهبيات مزدانه جميعها من اسفلها الى اعلاها بالانوار الملونة الجميلة وتمشي تتمخطر كالعروس يمينا وشمالاً في عرض النيل وعلى ظهرها كل دواعي الانس والطرب والذين عليها هائمون فرحاً وسروراً بين عزف الموسيقى وارسال السواربخ النارية في الفضاء وبالاجمال فانه يكون منظرأً جميلاً جداً فائق الوصف

وكان ذلك الاحتفال في زمن صلاح الدين الايوبي في طور التغيير والانقلاب لانه بعد أن كان ذلك الاحتفال خاص بالاقباط سرت تلك العادة منهم بحكم المعاشرة الى المسلمين وصار يحتفل العنصران به احتفالاً هائلاً فكانت تحصل منازعات ومشاجرات عنيفة من كثرة عدد المحتفلين والمتفرجين وكثرت فيه الخلاعة وانواع الفساد والفجور بين الاهالي . ومع تكبير ذلك الاحتفال الاثري العظيم بعوامل الانحطاط الادبي فان عوام المصريين كانوا ولم يزلوا يعتبرونه اعز واعظم الاعياد الوطنية فهم من قديم الزمن يستأون جدا من امر ابطاله . وقبل عصر صلاح الدين بمئتي سنة كان الخليفة الحاكم بامر الله قد سعي في ابطاله فلم ينجح مع انه كان في عصره ذا صبغة دينية مسيحية اكثر مما كان عليه في زمن صلاح

الدين . وجاء ملك العزيز ابن صلاح الدين وامر سنة ٥٩٤ هجرية بابطال هذا العيد ومنع الاحتفال به منعاً كلياً واستخدم لتنفيذ امره طرقاً وحشية قاسية فلم ينجح ايضاً لان الناس بعد أن استرحوه مرات عديدة ولم ينجحوا جاهدوا بالعصيان ضد الملك العزيز ولكن عاجلته المنية فمات ولم يتم شيئاً مما نوى وكانت وفاته في ٢١ محرم سنة ٥٩٥ هـ

واستمر المصريون يعيدون سنوياً بايام فيضان النيل ولم يعد أحد من محبي المناظر الجميلة يحرم من رؤياه سنوياً . وكان قد مضى زمن طويل على الكنيسة الملكية في البلاد المصرية بدون بطريرك نائب عنها حتى آلت الظروف الى قرب تلاشي حقوق تلك الكنيسة في مصر واشتد الخطب على اتباعها المتفرقين . فلما انس كبار الاكبروس في القسطنطينية علامات السلام والامان في ديار مصر على عهد الوزير بهاء الدين (قراقوش) وتأكدوا انه لم يعد بعد خطر على وجود بطريركيتهم في مصر ولدواع سياسية رأوا ضرورة اعادة فرع كنيستهم المصرية ثانياً بقدر الامكان

فرسم بطريرك القسطنطينية رجلاً يدعى مرقص بطريركاً على فرع الكنيسة الملكية اليونانية في مصر ثم اعطاه تعليمات اهمها ان الوظيفة الكهنوتية التي اسندت اليه لا يجب ان يتخذها وظيفه للتعيش ويقعد عطلاً بلا عمل كما كما كانت سابقاً بل يتعين عليه الجهد والعمل على استرجاع ولم شعث قطيعه المتشتت في مصر ثم من وجهة سياسية عليه أن يبذل ما في وسعه في استرجاع واعادة النفوذ اليوناني في تلك البلاد (مصر)

فلما حضر مرقس الى مصر وأسس كرسي بطركيته ثانياً صار يرسل  
 خطابات غربية لبطريرك القسطنطينية عن حالة اتباعه المصريين الذين مضى  
 عليهم زمن طويل لم يسمع عنهم شيئاً. ومن جملة ما أدهش البطريرك مرقس  
 وكتب عنه في مراسلاته أنه وجد طرق الصلاة وخدمة القديس هي  
 الطريقة القديمة المعروفة باسم طريقة ماري مرقس واستفسر بطريرك  
 القسطنطينية عن السماح بممارستها أو ابطالها فأجابه البطريرك بان كل  
 شيء من الرسوم الدينية يلزم أن يكون حسب طقوس الكنيسة الملكية  
 ويلزم ابطال طريقة ماري مرقس وابدالها بطريقتي القديسين يوحنا فم الذهب  
 وباسيليوس. وباقي الطقوس الخاصة باسكندرية كتب عنها مرقس أيضاً  
 وقال انها طقوس قديمة جدا وتختلف عن الطقوس التي تمارس وقتئذ  
 بالقسطنطينية فأجابه البطريرك بتغييرها أيضاً وبالاجمال أمره بابطال كل  
 الطقوس والرسوم التي كان يستعملها المصريون

وكان الموجود وقتئذ على كرسي الكنيسة المرقسية القبطية الوطنية البطريرك  
 يوحنا السادس الذي خلف مرقس بن زعره سنة ١١٨٩ وكان وقت  
 انتخابه بطريركاً حديث العهد في ممارسة الكهنوت ويقال عنه انه  
 كان متزوجاً. الا أنه في زمن انتخابه كان أرملًا. مع انه من الضروري  
 عند الاقباط أن الذي ينتخب بطريركاً لا بد أن يكون اعزب من بدء حياته  
 لكن فصاحته وبلاغته وعلمه العالي أكسبته الافضلية في الانتخاب على  
 المترشحين لذلك المركز السامي من رهبان الدير والصوامع فم انتخابه

بطيركا . ولما كان مثل من تقدمه من البطارقة الذين لم تكن كل اختباراتهم  
ومعارفهم محصورة فقط داخل أسوار الصومعة التي عاشوا فيها وخرجوا  
منها بل كان عارفاً بكل ما تقتضيه معارف ذلك الوقت . وهكذا كان  
يوحنا السادس رجلاً مما بكل ما جريات الاحوال فضلا عن علمه الواسع  
ولذلك ساس الكنيسة المرقسية بكل حكمة ونظام .

وبعضهم قال عنه أنه كان رجلاً تاجراً قبل انخراطه في سلك طر هبنة .  
وكيفما كانت أحواله فإنه يستدل عنه أنه كان ذامواهب خاصة اهله لذلك  
المركز ويظهر أنه استخدم تلك المواهب في الاعمال الخيرية المحضة . ولم  
يعلم عن سني بطيركته الا ولى الا الشئ القليل . ولكن بعد وصول البطيرك  
اليوناني الجديد خاف الشعب المسيحي كله من أقباط ويونانيين  
من تجدد الاضطهاد . لانهم علموا أن الملك العزيز لم يكن يقصد  
فقط ابطال عادة الاحتفال بوفاء النيل ولكن كان يرغب في اقتفاء خطة الحاكم  
بامر الله بخصوص اضطهاد المسيحيين . ولكنهم عادوا فتنفسوا الصعداء  
بموت الملك العزيز فجأة قبل تميم نواياه لانه كان قد ابتدأ في ايجاد المظالم  
والمنكرات ووزاد الضغط على الاهالي حتى صاروا في حالة سيئة سيما من غلوا وازم  
المعيشة فجاءت المنية للعزيز منصفة المظلوم من الظالم

وقيل ان سبب موته فجأة انه كان ذهب للقنص والصيد في الفيوم  
ففقز به جواده قفزة هائلة فاصابه من جراها تلك القفزة ارتجاج في المخ

مصحوباً بحمي شديدة فحمله رجاله الى القاهرة وتوفي فيها الساعة الرابعة من ليلة الاحد سنة ٥٩٥ هجرية كما تقدم الذكر. ففرح المصريون عموماً والمسيحيون خصوصاً بموته .

مات العزيز وله صبي صغير في السنة الرابعة من العمر وقد خلفه على الاريكة المصرية سنة ١١٩٨ مسيحية و ٥٩٨ هجرية واسمه ناصر الدين محمد ولقب بالملك المنصور وتعين وصياً عليه عمه الافضل

لكن ذلك لم يرق في عيني الملك العادل اذ رأى ان الملك الجديد الذي هو في مهد الطفولية سيكون حجر عثره في سبيل مطامعه فقدم من دمشق الى القاهرة بجيش جرار ليتولى الوصاية عليه ويكون نائباً عنه في الملك حتى يتيسر له اغتيال مملكة مصر من ابن اخيه . فلما وصل القاهرة طلب ثبات حقوق الوصاية على هذا الملك الطفل بدعوى انه جده الاكبر وعم وصيه الافضل . فحاول الافضل اقناعه بغلظه فلم يقتنع ونادى بنفسه سلطاناً سنة ١١٩٩ مسيحية (سنة ٥٩٦-٧ هـ) ولما استاء الافضل من ذلك حاصره في قصره بالقاهرة فحاول العادل الفرار فتماز بذلك وكر راجعاً الى دمشق ظافراً من الغنيمة بالاياب

وفي تلك الايام عاش المؤرخ العربي الشهير المدعو عبد اللطيف البغدادي . فكتب تاريخاً مهماً عن احوال مصر وقد ترجم هذا المؤلف الى اللغة الانكليزية والفرنساوية وكان عبد اللطيف كاتباً ماهراً وطيباً حاذقاً لانه صرف معظم حياته في مطالعة المؤلفات اليونانية القديمة سيما مؤلفات

ارسطاطاليس الحكيم . وقد حضر عبد اللطيف من بغداد الى القاهرة  
 مجذوبا باموال الشوق الى رؤية ثلاثة من مشاهير رجالها وقسئذ في العلوم  
 والاداب اذ كان يتوق الى ذوي العلم والادب وخصوصا الى النابغين منهم  
 ومن أولئك الثلاثة الذين جاء عبد اللطيف على شهرتهم رجل يدعى  
 ميمونيدس كان يهوديا اشتهر بالعلم وترك ورائه اسما ذائعا  
 وكان موسى ميمونيدس من اسبانيا ولد في بلدة قورنوه من اعمال  
 الاندلس ولما كبر وترعرع اعتنق الدين الاسلامي في موطنه غير ان بعض  
 المؤرخين يقولون انه عاد الى ديانة اسلافه بعد ان اتى الديار المصرية  
 بجهة النسطاط . واول ما بدأ به عبد اللطيف عند قدومه الى القاهرة انه  
 زار اهرام الجيزة قبل ان يتشوه خارجها باعمال الهدم التي قام بها الملك  
 العزيز ولما شاهد ما وصفها وصفنا مسبقا وذكر انها منقوشة من جميع جوانبها  
 بنقوش هيروغليفية يتعسر على المسلمين فك رموزها وألف بعد ذلك  
 موءلتا في النباتات المصرية ووصف اثار الدلتا وذكر جاموس البحر في فرعي  
 النيل وأسهب على الخصوص في اثنين منها وقال انهما كانا سبب تلف  
 عظيم في فرع النيل الذي يصب في دمياط وان الحكومة المصرية لما اعيت بها الحيل  
 في قتلها ارسلت الى بلاد النوبة واستقدمت طائفة من الصيادين الحاذقين  
 في صيد ذلك الوحش الضاري فحضروا وظفروا بصيدهما بمهارة فائقه  
 وقتلوهما واحضروا جثتيهما الى القاهرة فرآهما عبد اللطيف وكتب وصفهما  
 وصفا دقيقا . وكان عبد اللطيف كثير الاعجاب بالمباني المصرية الفخيمة



ونقوش احجارها العظيمة وقصور الامراء التي تناطح السحاب ونخامتها واتساعها  
وكثرة حماماتها الجميلة واقبيتها المثينة حتى بعض البيوت والقصور كانت تهدم  
اماتك الاقمية والحمامات فلم يصيبها اذى وبقيت تلك الانار الفخيمة والنظامات  
الهندسية من عهد اسلاف عبد العزيز الى ذلك العصر حتى ادهشت ذلك  
الحكيم الشهير والمؤرخ الحاذق عند رؤيته اياها لانه كان يسمع بشهرتها  
وهو في دمشق. ووصف عبد اللطيف في تاريخه المجاعة العظيمة التي حلت  
بمصر وصفاً دقيقاً وذكر الوباء الذي عقبها من سنة ٥٩٧ - ٥٩٨ هجرية  
اي سنة ١٢٠٠ مسيحية

ومما اثبتته في وصف تلك المجاعة ما يأتي قال

كان هم بهاء الدين امير الجيوش منصرفاً الى استخدام انقاض المباني  
المصرية الاثرية الفخية التي هدمها في بناء اسوار القاهرة عوضاً عن  
تطهير الترغ والخلجان وتيسير وسائل الري في البلدان. وكان نتيجة ذلك الغلظ  
الفاحش أن النيل لم يف بالمراد اذ كان فيضانه قليلاً في تلك السنة التي  
كان مشغولاً فيها ببناء السور ثم هبط سريعاً وترك البلاد جدياً ولم تدخل  
المياه الى الترغ والخلجان بته لعدم العناية بتطهيرها فحل الشرق وبارت  
الاراضي الزراعية وترك الفلاحون التعساء حقولهم واجتمعوا في المدن  
والبلدان وحلوا على ضفاف النيل ولما لم يكن لديهم نقود أو غلال يعولون  
عليها فشت فيهم المجاعة وكان الفقراء يعيشون على لحم الكلاب والخليل  
بعد أن مات منهم كثيرون رجالاً ونساء واشتدت بهم الفاقة الى ان صار

بعضهم ياكلون اولادهم ونفاقم الخطب الى ان صارت اللحوم البشرية تباع  
في الاسواق . وكان تجار تلك اللحوم يصطادون النساء بالخداع ويختطفون  
الاطفال ويذبحونهم ويقدمون لحمهم في السوق للبيع كالحم الخراف  
والعجول . قل عبد اللطيف المؤرخ وقد شاهدت بنفسي جثث جملة اطفال  
شوية مدروضة للبيع واخيراً اطاعت الهيئة الحاكمة على تلك الفظائع  
الشيعة فاراد بهاء الدين وضع حد لتلك الضحايا البشرية فامر بالتقبض  
على تجار تلك اللحوم وقتلة النساء والاطفال وامر بحرقهم احياء في النار .  
فاحرق منهم ما يشيف عن ثلاثين رجلاً في بحر يضة ايام في مدينة القاهرة  
وحدها . وكل صفحة قلبها من تاريخ عبد اللطيف عن مصر تجدها  
مشحونة بتفاصيل تلك الفظائع المريعة . وبالاجمال فان مجاورة جامع  
احمد ابن طولون كانت دائماً مملوءة من الجزارين بائعي اللحوم البشرية وكانوا  
دائماً يقفون منتظرين من يمر بهم من النسوة أو الاطفال حتى يقتنصوه  
اذ ينقضون عليه اتقضاض الصاعقة ويذبحونه ويسلخونه وكان يقع في  
مخالبهم كثير من الخلق وقد خص عبد اللطيف بالذكر بائع كتب وقع  
بين أيديهم وكان سميناً كثير اللحم فوصف كيفية القبض عليه وذبحه وصفاً  
وافياً لا محل له هنا . وذكر في كتاباته الصادقة أن تلك الذبائح البشرية  
لم تكن قاصرة فقط على القاهرة بل كانت فاشية في كل مدن  
القطر المصري وأخصها بالذكر اصوات وقوص والقيوم والمحلة  
الكبرى والاسكندرية ودمياط . وكانت جثث الذين يموتون جوعاً

تلقى بدون دفن على قارعة الطريق وكان ينزع اللحم عن عظم كثير منها  
ويباع للاكل وتلقى العظام في الطرق فيعثر فيها المارة كما يعثرون في حجار الارض  
وأصبحت قرى كبيرة خاوية من السكان ولم يبق الا قليل من الاغنياء الذين  
احتاطوا لانفسهم فغزنوا شيئاً من المؤونة فانهم هم الذين بقوا أحياء ووضعوا  
أيديهم على القرى والبلاد التي هلك ذووها وكان اولئك الاغنياء محتفظين  
على بعض البذور للزراعة وقد اضطروا الى تأجير بعض الناس لحمل الجثث  
المائة والقائمها في النيل فتلوث ماؤه بميكروبات الجيف فكان ذلك سبباً  
في انتشار الطاعون كما سترى .

وجعل أولئك الاغنياء قطعة من العملة الفضية لكل من يحمل عشرين جثث  
ويلقيها في النيل وكانت الضباع والسباع توفر عليهم مشقة نقل الجثث في  
بعض الاحيان اذ كانت تنزل الى القرى ليلاً وتأكلها . حكي أن صياداً  
من مدينة تانيس « احدى مدن الدلتا القديمة » انتشل في يوم واحد  
اربعمائة جثة كانت طائفة على وجه المياه . وقال عهد اللطيف أن الوفا من  
من الناس كانوا يبيعون انفسهم وأولادهم ارقاء للحصول على لقمة من  
العيش تحفظهم من الموت وأخبره بعضهم أن خمسين عذراء وقعن فريسة  
لأنياب المفترسين وثبت من الاحصاء الذي صار بعد ذلك انه لم يبق  
من طائفة الصناع وأرباب الحرف بعد تلك المجاعة اثنان في المائة  
وكانه قدر على الديار المصرية في تلك الايام أن تكون مهبط البلاء والشقاء  
فقد حل الوباء بعد تلك المجاعة العظيمة ومد ذراعه كمنجل الحاصد فحصد

الذين ابقاهم الجوع حصدا فقل عدد السكان في القطر المصري قلة واضحة يدل على ذلك ان الذين كانوا يجنزون يومياً في مصر الاسكندرية بلغ سبعمائة عدداً هذا عدداً العمد العمد الذي كان يدفن بغير جنينز أو يترك من غير دفن كاية واسف عبد اللطيف لان الحكومة والاهالي لم يستدعوه لاطهار مقدرته في انجاز ذلك الشعب وختم تاريخه ببيان شاف عن الدمار الذي الحقه الطاعون بالبلاد وقد علمنا من مصادر اخرى انه بعد أن كتب تاريخه غادر البلاد المصرية وتوجه الى دمشق وتركها تطلقى على حجر الجماعة . وفوق هذه الارزاء والنكبات فان الاضطهاد في ذلك الحين كان على اشده على الاقباط اصحاب الحرف المعمارية كقناشي الاحجار ورؤساء البنائين والبنائين الذين ادهشت صناعتهم عبد اللطيف المؤرخ فهاجر مئات منهم الى بلاد الحبشة حيث اكرم الامبراطور وفادتهم واستخدمهم في بناء الكنائس .

وعلاوة على مصائب الجوع والاضطهاد والوباء فان فظائع الحرب قامت على قدم وساق في شمال الدلتا لان الطليبيين بعد ما فشلوا في استرجاع فلسطين دفعتين من ايدي الاسلام في خريف سنة ١٢٠٣ مسيحية و ربيع سنة ١٢٠٤ اعادوا الكرة على مصر فدخلوها من فرع النيل الغربي عند رشيد وتوغلوا في البلاد حتي عسكروا عند مدينة فوه ثم تفرقوا في عرض الدلتا وصاروا يذبجون السكان من نصارى ومسلمين على السواء . فالتزم استنف فوه المدعو كيلوس ان يدبر طريقه ليهرب وينجو بنفسه لانه يظهر ان شعبه تفرق

ايدي سبا او ذبحه الصليبيون . ويظهر ان المصائب في ذلك الوقت قد عقدت  
 خناصرها على خراب مصر فاصابتها زلزلة عظيمة مرعبة اثناء ذبح الصليبيين  
 للمصريين وكانت تلك الزلزلة هائلة جدا حتى شعر بها سكان سوريا واسيا  
 الصغرى حتى حدود العجم . وكان العادل في ذلك الحين موجودا في  
 سوريا فاسرع الى مصر لمطاردة الافرنج . وبوصوله لم يتم حربا في وجههم  
 بل فتح باب المخابرات السياسية بينهم وانتهت تلك المخابرات الى معاهدة  
 مفادها ان يسلم الملك العادل الى الصليبيين يافا ولدة والرملة في سوريا  
 نظير جلالهم وبعد تلك الحوادث قدم وفد من امبراطور الحبشة الى  
 البطريك يوحنا السادس بطلب رسم مطران جديد لتلك البلاد . وكان  
 البطريك شديد الرغبة في انتخاب مطران يكون ذا كفاءة تامة لذلك  
 المنصب الكهنوتي السامي المهم الكائن في بعيد الاقطار . ولكن العوائد  
 القديمة المتقدمة كانت تحتم عليه ان لا ينتخب لذلك المركز الديني الرفيع الا  
 من طبقة الرهبان ولا يمكنه انتخاب رجل من طبقة القسوس الذين يرى  
 فيهم الكفاءة والاهلية . ولذا التزم ان يدور على الصوامع المصرية  
 المختلفة وصار يتمتع الرهبان الذين فيها فرداً فرداً وينتخب اسماء  
 الرهبان الذين يرى فيهم اللياقة للترشيح في الانتخاب وكتب قائمة باسمائهم  
 وابتدأ ان ينظم طريقة انتخاب دقيقة ليختار اهم راغب في الصوامع المصرية  
 واديرتها . لكن ذلك لم يرق في عيني المندوبين الاحباش حتى ملوا كثرة  
 الا تظار فاشاروا على البطريك ان يسرع في تعيين ذلك المطران . ثم

كتبوا الى سلطان مصر وارسلوا له هدايا عظيمة وطلبوا منه ان يكاف  
البطيريك يوحنا بان يسرع في انتخاب المطران حتى يعودوا به الى بلادهم  
بدون تأخير

لكن ذلك لم يؤثر في البطيريك لانه عدل بالمرّة عن انتخاب راهب  
غير لائق لذلك المنصب ولم يبالي بذلك الاستعجال. وتصادف ان اسقف  
فوه كان بلا قطع لان شعبه قتل كاهن في حرب الصليبيين كما قدمنا.  
وكان ذلك الاسقف ذا خبرة تامة بشؤون وظيفته واخلاق عالية وافكار  
سامية فرأى البطيريك انه اكثر لياقة لذلك غير ان تعيينه مطراناً للجبشة  
يعد مخالفاً لقوانين الكنيسة القبطية التي يصعب نسخها لكن لما كان  
مبدأ البطيريك سامياً ولم يعارضه احد في ذلك ترقى الاسقف كيلوس  
الى رتبة مطران باحتفال عظيم وسافر في الحال الى مركزه السامي الجديد  
مع سفراء الاحباش.

ولما وصل حدود الديار الجبشية استقبله الامبراطور والشعب  
الجبشي استقبالاً عظيماً. وصنعوا له موكباً مشى فيه الامبراطور نفسه  
على قدمه ثلاثة ايام من مدينة اكسيوم الى العاصمة وكان يتقدم ذلك  
الموكب العظيم كل اساقفة وكهنة وشمامسة الاقطار الجبشية يجرسهم  
جيش جرار من الجنود والضباط الاحباش وثناء مسير الموكب في الطريق  
خصص الامبراطور للمطران مظلة من الحرير الغالي القيمة المطرز بالذهب  
وكان يحملها اربعة من كبار الاساقفة الاحباش وظل هذا الموكب

المهيب العظيم سائراً على الاقدام حتى وصل عاصمة الديار الحبشية .  
 وكتب احد مؤرخي المصريين الاقباط الذي كان مصاحباً  
 الاسقف في سفره وصفاً مدققاً لذلك الاحتفال البهي والمجد والعظمة  
 التي كانت تحيط المطران في كل الاوقات . وبعد استلام المطران كيلوس  
 مقاليد الكنيسة الحبشية صار يسوسها ويديرها باحسن انواع الادارة  
 وسلك مع الاحباش وامبراطورهم احسن سلوك واستمر مدة اربع سنوات  
 على هذا السلوك الحسن والبطيريك يوحنا في مصر يسمع عنه كل ثناء  
 ومدح . ولكن بعد مضي تلك المدة حضر جلاء الى القاهرة فاندش  
 اليطيريك من ذلك ولما ساله عن سبب ترك مركزه وحضوره جلاء بدون  
 مناسبة أجابه ان اسقفاً حبشياً وهو شقيق الملكة اغتصب منه مركزه قهراً  
 وقد نجا بحياته وحضر الى وطنه . ولكن ذلك لم ينع البطيريك وارتاب  
 في صدق الخبر فامر المطران كيلوس بالاقامة في القاهرة وارسل مندوباً  
 الى الحبشة ليستفسر عن الحقيقة ويحقق الامر مع الاحباش فراح  
 المندوب وبعد غياب سنة تماماً عاد حاملاً للبطيريك رواية تخالف رواية  
 المطران كيلوس على خط مستقيم . ومضمون تلك الرواية ان اواني  
 الكنيسة الكاتدرائية في مدينة اكسيوم قد سرقت وكانت مصنوعة من  
 الذهب الخالص وان المطران كيلوس اتهم حامل مفتاح خزينة الكنيسة  
 بسرقتها . وانه بمجرد الشبهة وسؤ الظن فيه القي القبض على ذلك  
 الكاهن الحبشي المسكين وسجنه ثم امر بحمله بالسياط حتى

مات . فوجب ذلك التصرف الممقوت استياء الاحباش عموماً فتألبوا  
واحدثوا مشاغبات هائلة ضد المطران كيلوس ولما لم يعد في وسعه دفع  
القرية عن نفسه فر هارباً الى مصر

وارسل امبراطور الحبشة مندوبين من قبله ايضاً مع مندوب البطريرك  
الى مصر ليؤيدوا تلك الحقيقة للبطريرك ويطلبوا منه تعيين مطران اخر  
خلاف كيلوس . وامدهم ايضاً بهدايا ثمينة للسلطان العادل لان السلاطين  
والخلفاء المسلمين الذين كانوا يحكمون مصر كانوا يحذرون اتصال المخبرات  
والمواصلات بين كنيسة السوڤان والحبشة وبين امها الكنيسة القبطية  
المصرية دون ان تقوم هاتان الكنستان بدفع جزية عظيمة لحكام مصر نظير  
ذلك الترخيص وبين تلك الهدايا التي ارسلها امبراطور الحبشة مع سفره للعادل  
ملك مصر ثلاث حيوانات جايبة وهي اسد وفيل وزرافة وفي ذلك الوقت كان  
الملك العادل غائباً عن مصر ووشغولاً في حروبه مع الافرنج في سوريا  
فتناول ابنه الكامل ولي عهده على مصر تلك الهدايا بمزيد الشكر واصدر  
الواو امر بالتريخيص للبطريرك بانتخاب مطران جديد للحبشة

أما البطريرك يوحنا فقبل ان ينظر في أمر تعيين المطران الجديد اراد  
محاكمة المطران كيلوس اولاً . فعقد مجمعاً دينياً تحت رئاسته وبعد المداولة  
مع الاساقفة اعضاء المجمع حكم عليه بتجريدته علناً امام الناس من درجته  
الكنهوتية العالية . وقد عين يوماً مخصوصاً لتنفيذ ذلك الحكم في نقطة معلومة  
من احياء مدينة القاهرة فما جاء ذلك اليوم حتى ازدحم الخلق ازدحاماً



شديدا بين نصارى ومسلمين في نقطة التنفيذ ليشهدوا شلح المطران .  
وكان ازدحام الناس شديدا لشقهم الزائد برؤية ذلك المنظر الذي لم يسبق  
له مثيل . وكان كل فرد من المتفرجين يريد ان يستأجر حمارا مسرجا ليركبه  
الى ذلك المكان حتى يصل قبل سواه فما كان يجد ولو دفع اجرته ثلاثة دراهم  
( الثلاث دراهم كانت تعتبر اجرة غالية في ذلك الحين ) . وبعد ان امتلأ  
المكان من الجماهير الكثيرة حضر البطريرك وحوله الاساقفة والكهنة  
والشماسة وأحاطوا بالمطران كيلوس ووراءهم جمع من يسوقون رجلا للشق  
ولما وصلوا الى النقطة المعينة للتنفيذ . قرأ احد الاساقفة امام كيلوس  
قصة ذنبه وصورة حكم المجمع المقدس عليه بالتجريد ثم خلعوا عنه الملابس  
الكهنوتية باهانة وكان المنظر مؤثرا وبعد ذلك تفرق الجميع  
ثم انتخب البطريرك راهبا من دير القديس انطونيوس بدعى اسحق  
وارسله الى الحبشة فقبول هناك بكل حفاوة واکرام وساس كنيستها  
بحكمة فائقة ثم توفي بعد ان عاش اربعين سنة بين الاحباش في صفاء  
وهناء حتى اعتبروه في مصاف القديسين بعد وفاته . ومن اعماله المأثورة  
انه استحضر من مصر جماعة من الاقباط المشهورين بالنقش على الحجر  
فنقشوا له احجارا صخرية صلبة نقشوا جميلا وزين بها كل الكنائس الحبشية  
بناء وترميما وقد ادهشت تلك النقوش الحجرية الجميلة جماعة البر تغالين الذين  
زاروا البلاد الحبشية بعد زمن المطران اسحق المشار اليه باجيال عديدة .  
وكان الملك العادل اثناء تلك الحوادث مشغولا بمحاربة الصليبيين

في فلسطين وكان القائم باحكام وشؤون مصر ابنه الملك الكامل الذي كان  
 يجبه الاقباط حبا شديدا. حتى ان بعضا من الذين كانوا اسلموا ظاهريا في  
 ايام السلطان صلاح الدين لضغطه عليهم ابتدأوا يؤملون خيرا في الملك  
 الكامل ليصرح لهم ان يعودوا الى ايمانهم الاصيل ودينهم المسيحي اذ  
 لم يتركوا دينهم الا خوفا من الموت حرقا بالنار وهو القصاص الذين كان  
 يصيب كل من يحيد عن الدين الاسلامي في عصر صلاح الدين.

وكان في جملة اولئك الذين اعتنقوا الاسلام قهراً خوفا من الموت حرقا  
 راهب من دير وادي النظرون أجبره السلطان صلاح الدين على اعتناق  
 الديانة الاسلامية أو يذيقه المنون فاسلم وتعين كاتباً في الحكومة وكان  
 ذلك سببا لحصوله على شهرة في الاعمال الحسائية

فلما جاءت ايام الملك الكامل الذي أظهر عطفه على الاقباط كما قدمنا .  
 مثل ذلك الراهب المسلم الكاتب بين يديه وطلب منه الترخيص له بالعودة  
 الى الديانة المسيحية وقال له انه ان لم يقبل منه ذلك الطلب فانه يفضل ان  
 ان يموت شهيدا عن ان يبقى مسلما طول حياته فرأف الكامل بحاله واصدر  
 أمره برفته من ديوانه دون أن يمسه أحد بضرر ففرح الراهب فرحاً لا  
 يوصف واستقبله اهله استقبالا عظيما وتاب عن خطايا وع عن تظاهرة بالاسلام  
 وعاد الى الرهبة . وكان حينئذ قبطني آخر من مدينة طيبة قد أسلم قوة  
 واقتدارا فلما سمع بنجاح راهب وادي النظرون في مسعاه قدم هذا  
 أيضاً التماسا مثله الى الملك العادل يطلب فيه الترخيص له بالعودة الى

ديانته المسيحية . ولكن لسوء حظه ولتكذ طالع الراهب ايضاً انه ما كاد  
الكامل يصدر أمره ثانياً بالتصريح له الا وحضر أبوه الملك العادل جأة من  
سوريا فلما بلغه ما كان من أمر الراهب الذي عاد الى النصرانية استاء جدا  
وغضب غضباً شديداً بسبب حنو ورأفة ابنه ثم أصدر أمره في الحال الى  
ثلة من الجنود لمحاصرة دير وادي النطرون وأمر أحد ضباطه بقتل ذلك  
الراهب المسكين في الحال ان لم يبادر الى انكار ايمانه ويرجع الى الديانة  
الاسلامية فارتعدت فرائصه ولبى الطلب وانكر ايمانه ومن شدة خوفه  
تمادى في الانكار وصار يملق الى المسلمين ورجال الحكومة واخبرهم  
انه قادر على ارشادهم الى حيث يخبيء الرهبان ذخائرهم . وكان لما سمع الرهبان  
بقدوم المسلمين الى الدير انهم اخفوا آنية الكنيسة في بئر لاماء فيها ولم  
يكن في الدير ذخائر خلاف ذلك . واكد ارشمندرت الدير لجماعة  
الاسلام الذين جاؤا يفتشون على الذخائر وينهبونها بعدم وجود شيء مما  
تبالغ لهم . ولكنهم عثروا على البئر بارشاد ذلك الراهب الخائن  
فاستخرجوا منها كأس الإنفخار ستيا ( أي كأس العشاء الرباني ) وصينية  
الخبز التي يوضع عليها العشاء الرباني وحجاب الكنيسة المقدس وعادوا بها  
الى القاهرة . وبعد ذلك بقليل توسط في أمرهم الامل فامر العادل برد  
تلك الذخائر اليهم ففرحوا فرحاً عظيماً لذلك

وبعد ذلك بقليل توفي البطريك يوحنا وكان محبوباً من الجميع فزن  
عليه كل المصريين غير أنهم دفنوه بغير ان يحتفلوا به احتفالاً عظيماً لان

من عادة المصريين ان يعجلوا بدفن موتاهم ولما كان موته بغتة لم يتمكن  
 احد من اساقفة الابرشيات حضور جنازه  
 وكان احد اساقفة الكنيسة اليونانية في مصر يبكي عليه عند تشييع  
 جنازته بكاء مرأ وهو مما يدل على مكانته وعلو مقامه يشهد بذلك نفس  
 الذين كانوا يسمونه بالهرطقة حتى ان احد المؤرخين المسلمين شهد بعظمته  
 فكتب يقول ان من ضمن اصلاحاته انه النى العادة الجارية بدفع رسوم  
 الانتخاب ولم يلب مطالب الاسكندرانيين الباهظة . ونهى عن اخذ رسوم  
 تقليد الوظائف الكهنوتية . ولم يكن مديوناً بجميل أو معروف لمسيحي  
 واحد من شعبه طول حياته بل كان ذا فضل عم الجميع من رفيع  
 ووضيع وكان ينعض الرشوة وذلك من افضل السجايا التي يتصف بها حر  
 السمائل وكان يسخط على الذين يقبلونها وبقي الكرسي البطريركي المرقسي  
 خالياً من بطريرك يتبوأه لعدم اقرار الاساقفة على احد من المرشحين .  
 وكان في ذلك الوقت اثنان مرشحين للبطريركية احدهما يدعي بولس لم  
 يكن مشهوراً الشهرة الكافية والاخر رئيس شمامسة كنيسة المعلقة في  
 حصن بابلون . وغير هذين الرجلين كان ثالث يدعي داود ابن يوحنا بن  
 لقلق من اهالي الفيوم اشتهر بين الاقباط بزيادة مطامعه في الترقى وكان  
 له حظ وافر لدي مجمع الاساقفة الذي انعقد لانتخاب البطريرك الجديد  
 فشرع في الحصول على الكرسي البطريركي بكل واسطة مهما كان نوعها مع  
 انه لم يكن حائزاً للباقة لذلك دينياً او علمياً او ادبياً وقد سبق له ان اسقفه

حرمة بسبب اثارته شغباً في الكنيسة وكان قد رشح نفسه لوظيفة  
 مطرانية الحبشة فلم يقبل البطريرك السابق يوحنا السادس طلبه  
 وانتهره على تطفله وطلبه ما لا قبل له عليه فأثر ذلك في نفسه ايما تأثير  
 وكان باعثاً له على السعي بما فوق الطاقة للحصول على مركز البطريركية  
 ولم لو تكن الكنيسة القبطية مقيدة بقوانين وطقوس يتحتم اتباعها لفاز  
 داود بالحصول على كرسي البطريركية ولم يسبب سعيه متاعب تذكر.  
 ولكنه لسبب ذلك لم يفز بطائل اولاً لان شعبه غير موافق على لياقته  
 وثانياً لرفض الاساقفة الاقرار عليه . ولكنه اذا كان صديقاً حميماً لناظر  
 الحرية الذي كان قبطياً مسيحياً ولكنه لم يكن غيورا على طقوس الكنيسة  
 سعى في انالته بغيته وحض السلطان العادل على اصدار امره بسيامته  
 بطريركا فاصدر السلطان أمره بذلك وكان يوم الاحد فلما علم الاقباط  
 بذلك هاجوا هياجا شديدا . وحجز ناظر الحرية المذكور جمهورا من  
 الاساقفة ليلة الاحد ليفصمهم على سيامة داود بطريركا طوعا لمنشور  
 الملك العادل فتشاور الاساقفة في ذلك وانفقوا على ان يبلغوا كبار الامة  
 بذلك حتى يتخذوا التدابير الفعالة لمنع التداخل في الشؤون الدينية .  
 فلم يتأخر وجهاء الاقباط عن اجراء اللازم ولما وصلهم الخبر قاموا ليلا  
 ووصلوا الى سراي الملك الكامل وهم في شغب وهياج عظيمين فصحامن  
 نومه على ضوضائهم وهم ينادون وكان يومئذ في قلعة المقطم فقام بشفقته  
 المعهودة وخرج لاستقبالهم فتقدم اليه جماعة منهم وبأيديهم عرائض التظلم

يتوسلون اليه ان يعيشتهم ويمنع عنهم النكبة التي حلت بهم ويرفع المعاصب الذي يتهدد  
 كنيسةهم بالخراب وكان كل الاقباط متجمهرين في الخارج وفي يداهم مشاعل  
 موقدة وهم يصرخون طالبين من الكامل ان ينظر في شكواهم فلما وقف الكامل  
 على امرهم امر باسراج جواده وركب مسرعاً لمقابلة والده الملك العادل  
 والمحادثة معه في ذلك ووعدهم خيراً اما ما كان من امر داود وفاته علم بانه  
 لا بد من هياج الشعب خاف وهرب في فجر الاحد من القاهرة ومعه  
 اعوانه والاساقفة الذين كانوا يريدون ان يرسموه بطريركا وجاؤا الى بابلون  
 التي لم يبق منها بعد ذلك الحريق الذي تقدم ذكره غير كنيسة المعلقة التي  
 كانت الكتدرائية العظمى في ذلك اليوم وقد حفظت من النار لوجودها  
 داخل الحصن العظيم الذي لا تزال اثاره باقية حتى الآن . فدخلوها  
 واقاموا بها .

ولما وصل الكامل الى قصر ابيه العادل في القاهرة وجد ان داود  
 هرب منها فطلق يحدث اياه بتفاصيل المسألة ويبين له وجوه ستياء الاقباط  
 من قبوله بطريركا عليهم لعدم توفر شروط اللياقة فيه بحسب مذهبهم فقبل  
 العادل مطالب ابنه وأصدر أمره في الحال باستحضار الاساقفة من كنيسة  
 المعلقة حيث بدو منهم لا يتم سيامة داود بطريركا . فقام رجال الحكومة حالا  
 الى تلك الكنيسة وأمروا الاساقفة بالخروج حالا من الكنيسة والذهاب  
 الى القاهرة كامر الملك العادل فما صدقوا ان سمعوا هذه الدعوة التي كانوا  
 ينتظرونها بفارغ الصبر نظراً لمضايقة داود وناظر الحربية لهم والاحاح عليهم

بسيامته بطريركا .

فلما قام الاساقفة مع مندوبي الحكومة الى القاهرة حبطت مساعي داود وتأجلت - يامته الى اجل غير مسمى . وبعد ذلك اجتمع اربعة من من الاساقفة وحرموه وتعاهدوا ان لا يحضروا سيامته اذا اتفق اتمام ذلك بالرغم عنهم لانه ظهر لهم انهم لا يشقون بالملك المادل وكان داود يئذل قصارى جهده في دس الدسائس لنوال مأربه طالما كان الكرسي البطريركي خالياً من رئيس ديني يتبوأه

ومن تلك المساعي والدسائس أن ناظر الحرية صديق داود عاد الى استئناف مساعيه فأثر على افهام الملك العادل بان داود اوفق ما يوجد لذلك المركز الخطير وان الشعب موافق على هذا كل الموافقة وانه لا يعول على تظاهر الذين قاموا ضده لانهم من رعا ع القرم وصعاليك الامة ولا يروقههم الا الهياج واقلاق راحة الامن العام وبرهن صحة أقواله للملك بان رشا بعضاً وهدد اخرين من الاساقفة حتى تحصل على امضاء ثلاثة عشر اسقفاً منهم ونقول بملء الاسف ان اثنين منهم ممن اقسوا ان لا يحضروا سيامته امضيا على العريضة وفاز بالحصول على ختوم اربعين راهبا وجمهور عظيم من العوام وكتب ناظر الحرية عريضة مستوفية الشروط يطلب بها تعيين داود بطريركا فلم يسع السلطان العادل بعد ذلك الا ان أصدر أمره باجراء ما يريد ناظر حرية فقربت آماني داود ان تحقق . ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه فان المقادير عاكسته لان بقية الشعب لم توافقته على رأيه والتجأوا

الى ابن السلطان الملك الكامل بوساطة زعيمهم طيب العادل وكان قبلياً  
 أيضاً فسمى في افساد تدابير ناظر الحرية وحصل على توقيع كثيرين  
 من ذوي الحثيات بعدم اقرارهم على داود وطلب من الملك ان يطلق  
 الحرية للاقباط ليختاروا من يشأون حسب منطوق طقوسهم الكنائسية  
 فصار الطيب والكامل يشدان الجبل من جهة وناظر الحرية وأعوته  
 من الجهة الاخرى

فتحير الملك العادل من ذلك واخيراً اضطر ان يسلم الى ارادة ابنه  
 وطيبه فأمر بمنع اجبار الاقباط على قبول داود بطريكاً كما انه أمر ايضاً  
 بعدم تنصيب سواه فانتصر حزب الطيب والامة على حزب داود  
 وناظر الحرية وكانت نتيجة ذلك الشجار ان بقي الكرسي البطريركي بغير  
 حبر مدة طويلة



## الفصل السادس والخمسون

الصليبيون في مصر

سنة ١٢١٦ مسيحية و٩٣٢ للشهداء و٦١٣ للهجرة

جرت تلك الجوادث في مصر بينما كان الصليبيون يوغلون في فلسطين  
 في حملتهم السادسة على المسلمين سنة ١٢١٣ (٦١٠ هجرية) حيث ضايقوا  
 المسلمين مضايقة شديدة على حدود سوريا وامتلكوا أعظم مدائن سوريا  
 أطعمهم في ذلك انقسام الدولة الايوبية ولكن لما خلا الجو الملك العادل



خلع المنصور في شوال سنة ٥٩٦ هـ بعد ان حكم ٢١ شهراً ثم خلع الافضل عن  
 دمشق وقبض على زمام سلطنة مصر وسوريا وصير الامارات الصغرى  
 تحت سلطانه وجمع شتات القوات الاسلامية غير انه لما علم ان الصليبيين  
 يطمعون في المجرى الى مصر مرة اخرى ولا يرعون حرمة المعاهدة  
 السابقة التي تنازل لهم فيها عن مدن يافا واللد والرملة في سوريا نظير انسحابهم  
 من مصر استاء من نكثهم اليهود واتضح له انهم لم يقبلوها يومئذ الا  
 ليشغلوه عنهم فيبقى في مصر حتى يسيروا الى فتح حماة فلذلك خرج اليهم  
 في جيش عظيم والتحم الجيشان في موقعة دمويه هائلة وبلغه وهو يحارب  
 قدوم نجدة للصليبيين فتقهقر الى نابلس وتحصن فيها فطرده الصليبيون فعاد  
 الى سهول صفر وتمكن الاعداء من قطع طرق المواصلات عليه وجالوا  
 في سوريا يذبحون وينهبون حتى صيروها بلاقع ومن ثم حولوا وجوههم  
 الى مصر فوصلوها بحراً وحاصروا دمياط وكان ذلك يوم الثلاثاء ٤ ربيع  
 اول سنة ٦١٥ هـ وكانت عددهم يومئذ ٤٠٠ الف راجل و٧٠ الف فارس فحفروا  
 الخنادق وشرعوا في مهاجمة برج دمياط الذي امتنع فيه المسلمون واحاطوه  
 بسلاسل حديدية امتدت من البرج الى السور على النيل لمنع المراكب  
 الحربية القادمة من البحر المتوسط وبذل الصليبيون الجهد في امتلاك البرج  
 ليتسنى لهم العبور في النيل حتى القاهرة وكان في البرج كثيرون من المقاتلة  
 الاشداء فلما رأوا ضيقة الحصار قاتلوا مستقتلين وصاروا يرشقون الاعداء  
 بالسهم والحجارة والحرايب حتى دحروهم ولكن ورد المدد على الصليبيين

فاعدوا الكرة واستولوا على البرج وكان العادل اثناء ذلك يرسل الامداد  
 من الجنود السورية للدمياطيين ولما بلغ الكامل وقوع دمياط في تلك  
 الحرب بيد الاعداء وخروج ابيه منها وكان لم يزل في سوريا أمر والي  
 إقليم الغربية بجمع العربان وحشد جيش عظيم منهم علاوة على جيشه المنظم  
 وسار به حتى بلغ دمياط وفرق جنده حول السور ليحصر الافرنج ويساعد  
 جيوش ابيه الملك العادل ولكن الملك العادل كان سبق فتوجه الى القاهرة  
 خوفا عليها من فتك الصليبيين بها ولكنه مرض في طريقه ومات في جمادي  
 الاخرى فكم الملك عيسى ابنه خبر موته خوفا من انقلاب جنوده وقضاء  
 الصليبيين عليه واحتمل لذلك بان حمله في محفة وجعل خادماً وطيباً ركباً  
 بجانب المحفة والساقى يقدم الكاس كالمعتاد وبجمله الى الخادم فيشربه ويوم  
 الناس ان السلطان العادل شربه وظل كذلك الى ان وصل الى دمشق  
 فوضع الملك عيسى خزائن ابيه وجميع ما كان معه في قلعها واطمان عليها  
 ثم أعلن وفاة ابيه ودفنه بالقلعة المذكورة ثم نقله الى مدرسة العادلية  
 بمدينة دمشق .

ولما بلغ خبر موته الى ابنه الملك الكامل حزن حزناً شديداً وتبوا  
 العرش مكانه غير ان الجنود تمردت عليه وابت الخضوع له والاعتراف  
 به سلطاناً لانهم كانوا يكرهونه لمحبه في السلام ورفقه بالمسيحيين واختاروا  
 من بينهم قائداً كردياً ليتولى أمورهم ولو كان الصليبيون تقدموا الى فتح  
 مصر حينئذ لظفروا بما كانوا يؤملون بغير كبير مشقة غير انهم كانوا

منقسمين على بعضهم كالمسلمين

وكان كل منهم يريدان يكون رئيساً لان القاصد الرسولي الذي ارسله البابا وصل الى المعسكر واراد ان يسود رؤساء الجند فعارضه جان برين قائد الجيوش الاكبر وأبى أن يسلم وظيفته لاحد الاكليروس ومازال الصليبيون يقضون الوقت في المناقشة على الرئاسة حتى أضاعوا الفرصة وكان المسلمون يومئذ قد جمعوا كلمتهم ونظمو اجامعتهم وسببه ان اخا الملك الكامل كان يحب أخاه حباً خالصاً وذلك بخلاف ما نراه في الاخوة ذوي المناصب الرفيعة على وجه العموم وكان اسمه نور الدين ولعله الملك العادل عيسى المعظم الذي كان برفقة أبيه العادل وقت موته كما تقدم

فلما بلغه خبر تمرد الجند على أخيه الكامل أسرع اليه من سوريا وعضده وأيد كلمته والزم الجنود بالخضوع له فاعتزت كلمة الكامل والتفت الى محاربة الصليبيين الذين بقوا على حصار دمياط بضعة اشهر زادت قوتهم في خلالها بقدم القديس فرنسيس من أوروبا واتحاده مع اخوانه وكان معه لقيف من الرهبان يقصدون الاستشهاد في الحرب . وصادف مقدمه الوقت الذي كان فيه الملك الكامل وأخوه يستعدان لرفع الحصار عن دمياط فانبا القديس فرنسيس ان المسلمين سيهزمونهم في الموقعة القادمة وقد تمت نبوته بان قتل من الصليبيين في تلك الموقعة ستة آلاف نفر عدا الذين اسرهم المسلمون غير انه مع ذلك النصر لم يقو المسلمون على فك الحصار عن المدينة وبعد تلك الموقعة خرج القديس فرنسيس مع رفيق له من

معسكر الصليبيين لزيارة معسكر المسلمين فقبض عليهما رجال حرس المعسكر  
 وكبلوهما بالقيود واحضروهما امام السلطان الكامل  
 فسألها السلطان عن سبب مجيئها الى معسكره . فاجابه القديس  
 فرنسيس بانه حضر بارادة الله جل جلاله ليظهر للسلطان وشعبه طريق  
 الخلاص . وكان القديس فرنسيس كباقي الاوروبيين في العصور الحاضرة  
 والخالية غير عالم بقدر الكنيسة القبطية المصرية ولا يدري ان الاقباط  
 المسيحيين متعلقون به وكذلك كان الملك الكامل يجهل ان القديس فرنسيس  
 يعتبر الهرطوقي والمسلم على حد سوى غير مؤمنين وان لديه القبطي والمسلم  
 على مساواة واحدة نظرا لانهما كلاهما على غير المذهب الكاثوليكي  
 فلما سمع الملك الكامل قوله تبسم ضاحكا من جهله لكنه سر من  
 شجاعته وطلب منه ان يبقى في ضيافته جملة ايام فاجابه انه مستعد ان يجيبه  
 الى طلبه اذا هو رضي بالشرط الذي يشترطه عليه وهو ان يامر السلطان  
 باعداد اتون عظيم يحمي بالنار ويدخل فيه القديس فرنسيس مع احد  
 مشايخ المسلمين الذي ينتخبه السلطان ممن يعهد فيه الطهارة فمن يخاف منهما من  
 قوة النار وكانت النار عليه برداً وسلاماً كان هو صاحب الدين الصحيح  
 فلم يرض السلطان بذلك لعلمه ان ليس أحد من المشايخ من يرضى بذلك  
 فلما رأى القديس فرنسيس ذلك طلب ان يدخل اتون النار وحده بشرط  
 انه اذا خرج حيا يتحتم على الملك الكامل ان يعتق الديانة المسيحية  
 مع سائر شعبه .

فرفض الكامل ذلك الاقتراح أيضاً خوفاً من ان يكون ذلك ضرباً  
 من ضروب السحر او الشعوذة ولو كان الملك الكامل يريد اعتناق الديانة  
 المسيحية لما رضي بالتبعية للكنيسة اللاتينية بل بالحري كان يؤثر الكنيسة  
 القبطية عليها ومن ثم امر القديس فرنسيس بالخروج من عنده بكل لطف  
 وقدم اليه هدايا ثمينة فلم يقبل ولكنه قبل خروجه طلب منه ان يأذن له ان  
 يتהל الى الله حتى يعلن عظمته لسلطان مصر سواء بقي على الاسلام أو تنصر  
 وبعد ان ايد الملك عيسى أخاه الكامل على سيره ابقى عنده بعضاً  
 من جيشه وعاد الى الشام حذراً من استفحال شوكة الصليبيين اذا وقعت  
 دمياط في ايديهم فلما وصل اليها أمر بهدم سورها حتى اذا ملكوها لم يكن  
 لهم السور قوة على قوة

وبعد ان عاد القديس فرنسيس الى معسكر الصليبيين شرعوا في  
 مضايقة دمياط فلما تأكد الكامل استحالة انقاذ المدينة بقوة الحرب  
 اخذ يتداول معهم في شروط الصلح فقبلوا بذلك لان معظمها لصالحهم  
 فانه رضي في نظير جلائهم دمياط وتخليهم عن حدود مصر ان يسلمه بيت  
 المقدس وسائر املاكه في فلسطين واملاك اخيه خور الدين التي في شمال  
 سوريا والصليب الحقيقي الذي صلب عليه السيد المسيح الذي سبق  
 السلطان صلاح الدين فوعدهم بتسليمه لهم ولم يربو عنده هذا  
 ما عدا الغرامة الحربية واطلاق كل الاسرى المسيحيين الذين عنده  
 فكانت تلك البنود غاية في التساهل من الملك الكامل ومع ذلك رفضها

الصليبيون خوفاً من ان يعود المسلمون بعد ذلك الى استرجاع اوروشليم  
 فصعدوا على البقاء في مصر وابلغوا الكامل انهم لا يقبلون بها في حين ان  
 الذين رفضوها قلال جداً ومن ثم استؤنف القتال وهجم الصليبيون  
 هجمة الاستبسال على دمياط فقطحوها عنوة ودخلوها يوم الثلاثاء ٢٥  
 شعبان سنة ٦١٦ هـ الموافق نوفمبر سنة ١٢١٩ مسيحية بعد حصار دام ستة  
 عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً وقد اشتد الغلاء في دمياط قبل افتتاحها  
 حتى بلغ ثمن البيضة بضعة دنانير فلما دخلها الصليبيون اعملوا فيها السيف  
 فتراكت الاشلاء وتصاعدت منها الزوايح الخبيثة والابخرة المنتنة فلما  
 رأى الصليبيون ان المدينة اضحت بهذا الصورة عدلوا عن اقامة معالم  
 الاحتفال بالظفر خوفاً من الاصابة بالوباء واساء جمعهم وورم الى الاقباط  
 وانكروا عليهم حقوقهم الوطنية وعينوا مطراناً لدمياط من قبل كنيسة  
 رومية اللاتينية وحولوا جامع المسلمين العظيم الى كنيسة رومانية باسم  
 العذراء مريم وتفرقوا في القرى يقتلون وينهبون وداسوا حقوق الكنيسة  
 اليونانية في مصر وتعدوا على بطريركها وذكر رينودون المؤرخ الفرنسي  
 اسما اربعة عشر بطريركاً لاتينياً اقيموا على الاسكندرية من عهد ذلك  
 الانشقاق ولكن لم يبق منهم في مصر سوى الاثنين الاولين فقط .  
 ومما ساعد على ذلك ان الكنيسة القبطية كانت الى ذلك الحين خالية من  
 بطريرك يعارض في الانشقاق الذي احده الصليبيون  
 وكتب تقولا بطريرك اليونان رسالة الى بابا رومية يتوسل اليه ان

بأمر الصليبيين باطلاق سراح الاسرى المسيحيين الذين وقعوا في اسرهم  
 في حرب دمياط وأمر بسجنهم في سجون مصر والاسكندرية وأخبره ان  
 بين الاسرى شماساً لاتينياً طلب منه ان يقيمه رئيساً دينياً عليهم في السجن  
 وانه أي نقولا ابى ان يجيبه الى ذلك ما لم يحصل على مصادقة ابيه الروحي  
 الاعظم أي قداسة البابا. لكن البابا لم يطلع على ذلك الكياب بل أمر بان  
 يكتب الى البطريرك نقولا بوجوب الخضوع لكنيسة رومية وكان بين  
 الحاضرين أسقف عكا فلما رأى الصليبيين يبيعون الذين بقوا احياء من  
 سكان دمياط حملته الشفقة على شراء كثيرين منهم حتى قيل انه اشترى  
 نحو ٥٠٠ طفل وعمدهم ولكن لانه لم يتخذ الوسائل الكافية لارضاعهم مات  
 اكثرهم ولم يذكر التاريخ ان كان هذا الاسقف الشفوق بحث عن والذي  
 أولئك الاطفال التمساء الذين عمدهم وعرف ما اذا كانوا مسيحيين ام  
 مسلمين ولا ريب ان كثيرين منهم كانوا اقباطاً فكرر عمادهم حينئذ والذين  
 بقوا احياء اعتنى بهم الاسقف مع بعض اصحابه

اما الملك الكامل فانه بعد سقوط دمياط في ايدي الصليبيين اسرع  
 الى مصر وأمر بتحصين القاهرة عاصمة البلاد لتكون مستعدة لدفع النوازل  
 ثم عاد الى طرخنا وعسكر هناك ليصد الاعداء عن الايغال في داخلية البلاد  
 وأمر ببناء البيوت والقنادق والاسواق هنالك. فدعيت تلك المباني من  
 ذلك الحين بالمنصورة رمزاً الى انتصاره على الصليبيين كما سترى وهذا  
 هو أول تأسيس مدينة المنصورة المشهورة بين مدن القطر المصري الان

ثم استنجد الكامل بكل المسلمين في سوريا ونادى في مصر بالجهاد الديني  
 فالتف حوله خلق كثير جاؤا اليه من اصوان جنوباً الى اسكندرية  
 شمالاً عدا النجدات التي لحقته من الشام كالمطر تحت قيادة أخيه الملك  
 عيسى المعظم وتبعه ملوك مسلمون كثيرون حتى بلغ جيش الكامل المنظم  
 فقط نحو خمسين الفا من الفرسان وخمماية الف من المشاة  
 اما الصليبيون فبعد ان رتبوا معسكرهم في دمياط وأقاموا فيها حامية  
 كافية ساروا جنوباً قاصدين مقاتلة السلطان الكامل ودخول عاصمته فلما  
 وصلوا المنصورة وجدوه معسكراً فيها واستعدا للقتال فهالهم امر استعداده  
 لانهم كانوا وقتئذ لا يزيدون عن مئتي الف من المشاة وعشرة الآف من  
 الفرسان. ولما علم الكامل بمجيء الصليبيين قدم اسطوله النيلى امام المنصورة  
 وعدده مائة قطعة حربية وشاغلهم أولاً من البحر وأسرع وأرسل الف  
 فارس من العربان ليقطعوا عليهم خط الرجعة من جهة دمياط ثم سير  
 الاسطول بقيادة الامبرال بدر الدين بن حسون ومعه حراقة كبيرة  
 الى رأس بحر المحلة. فالتقطت المسيرة عن الافرنج براً وبحراً فووقت  
 دمياط في يد المسلمين والصليبيون لا يدرون. ثم شرع في محاربتهم عند  
 المنصورة ووقعت بينهما موقعة دموية لم يستتب فيها النصر لاحد الطرفين لان  
 الفريقين كانا يقاتلان مقاتلة اليأس والاستبسال حتى كادا يفتيان فركب  
 الملك الكامل جواده ودخل المعركة وصرخ في جنوده ليثير عواطفهم فصاروا  
 يقاتلون قتال الجنون حتى رجحت كفة الميزان عنده وانجلى تلك الموقعة



بانتصار المسلمين على النصارى وكانت خسارة الصليبيين يومئذ عظيمة جداً  
 لأن المسلمين أسروا منهم نحواً من ألفي فارس عدا الجنود التي قتلت وأسروا  
 أيضاً خمسة آلاف جندي وستة مراكب حربية عدا الذين غرقوا والذين  
 تبضعت اجسامهم فتضعض الافرنج وعقدوا هدنة مع المسلمين ومع ان  
 الكامل حاز من النصر الباهر ما كلفه جينته بالفوز الا انه خرج منها  
 منهوك القوى بسبب ما كلفته من بذل الاموال وجمع العدة فاضحى  
 في حاجة شديدة الى جمع المال الكافي لمتابعة القتال ولم يكن الحصول على المال  
 في مثل ذلك الوقت الضيق بالامر الهين ففرض الضرائب على الصنائع وارباب  
 الحرف وخصوصاً من الاقباط لان الكنيسة اليونانية المصرية كانت قد  
 وصلت الى حالة سيئة بالنظر لتطور العلاقة بينها وبين شعبها على اثر ما شاع من  
 مخاطبة البطريرك تقسولا لبابا رومية وتأهبه لمبايعته الرئاسة قال ذلك  
 الى ابعاد القلوب عنه والى ضعف في ايرادات كنيسته فلما اراد الكامل اخذ  
 المال منها لم يجد فيها ما يسد الرمق فحول نظره الى الكنيسة القبطية المصرية  
 فقبض على نصف الاموال التي كان تركها البطريرك يوحنا السادس  
 لاخته بعد وفاته وابتدأ الكامل ورجال حكمومته أن يستميلوا الاقباط  
 الى داود ويتنعموهم بلباقته وقبوله واجتهد الكامل في ذلك اولاً للحصول  
 على رسوم البطريركية التي تدفع لخزينة الحكومة وثانياً لاخته المال  
 اللازم من داود نفسه في نظير مساعدته له للحصول على مأربه وما كاد  
 يشيع هذا الخبر حتى هرع كثيرون من اساقفة جمع حبات القطر

للاحتجاج على تعيين داود وكان داود يومئذ قد احتفل في ديوان الحكومة  
 بشكر الذين رشحوه الى ذلك المنصب فلما رأى احتجاج الاساقفة وهياج  
 الشعب القبطي حبطت اماله وخاب رجاءه مرة اخرى  
 غير انه لما كان قوي العارضة صلب الفكر ومصر ا على تنفيذ ما ربه  
 كما سبق وذكرنا في الفصل السابق عمد الى تبويء الكرسي البطريركي  
 قوة واقتدارا ولم يبال باحتفال او رسامة من اساقفة فلبس لباس البطريركية  
 واحتفل له اعوانه وسار الى كنيسة القديس سرجيوس لاقامة الصلاة  
 وتادية الطقوس الدينية في حصن بابليون فاجتمع من الاقباط خلق كثير  
 وصاروا يصخبون ويصيحون عليه ويهجونه اما هو فكان محترصاً لنفسه  
 فلم يبال بصراخهم واتم صلوته وقراءة القداس وسائر الطقوس الدينية  
 رغم الصياح الذي يصم الاذان حتى ان نفس اعوانه لم يكونوا قادرين ان  
 يسموا صوت صلواته . فاهتاج لذلك الشعب القبطي في جميع الانحاء فآل  
 الامر الى وقوع الاضطهاد عليهم لانه لما رأى قواد الجيش كثرة عدد الرهبان  
 والاساقفة والشمامسة المنبشرين في القطر الذين كانت تسترهم الصوامع  
 والاديرة طعموا في اذلالهم فقبضوا عليهم وساقوهم الى الاشغال الشاقة  
 فسخروهم في بناء الاستحكامات والحصون في دمياط والمنصورة وخصوصا  
 في الاولى منهما خوفا من وقوعها في يد الصليبيين وبعد ان فاموا ابتك  
 الاشغال الشاقة اخبرهم الحكام المسلمون انهم سيأخذونهم الى المعسكر  
 ويدخلونهم في الخندية فاحتج الاساقفة على ذلك واشتكوا الى الكامل

ففرض عليهم فدية معينة من المال نظير بدل عسكري . وعامل المسلمون  
 رجال اكليروس الكنيسة اليونانية كما عاملوا الكنيسة القبطية . وكان  
 الاقباط جميعاً في عرض الدلتا لا يعرفون لهم مخرجاً من تلك الورطة وشعروا  
 بوقوعهم بين المطرقة والسندان اذا تأكدوا ان وجود الصليبيين في البلاد  
 المصرية لم يعد عليهم بالفائدة المطلوبة لانهم كانوا يعتقدون مساعدتهم على  
 المسلمين بصفتهم اخوانهم في العقيدة المسيحية . في حين ان الصليبيين كانوا  
 يعتقدون فيهم المرطقة ماداموا خارجين عن المذهب الكاثوليكي وليسوا  
 تحت سلطة البابا وقد زاد التعصب الديني عند الامم على المسيحيين عموماً  
 لما شاهدوه من تأثير الغزو والفتح الذي قام به المسيحيون اللاتين وكانت  
 عواقب ذلك كله واقعة على رؤوس الاقباط المساكين الذين كانوا دائماً  
 عرضة لكل بلية فسواء كان الغالبون هم الصليبيين او المسلمين فان للاقباط  
 من كليهما نصيباً وافراً من الضيق والعداب . وبلغ من عنف المسلمين  
 يومئذ ان الجنود التي ارسلت لا تقاذمياط من ايدي الصليبيين صارت  
 تهدم كل كنيسة قبطية انتقاماً من النصارى عموماً وقاسى الاقباط في داخلية  
 البلاد اضطهاداً شديداً . وكانت في الاسكندرية كنيسة قبطية عظيمة قديمة  
 العهد باسم مار مرقس هدمها المسلمون عن اخرها خوفاً من ان يباغت  
 الصليبيون مدينة الاسكندرية من اجلها ويتخذوها حصناً بسبب متانة بناها  
 وكثرة اعمدها وبعد ان هدموها حولوها جامعاً ولا تزال اثارها باقية الى  
 اليوم بقرب باب القباري .

ولكن مع اضطهاد الاسلام الاقباط فان ساطنهم الكامل كان يخفف  
 ويلا ذلك الاضطهاد بما عرف عنه من الاخلاق الطيبة والاداب العالية  
 وذلك جعل الاقباط يخلصون له ويستجدونه وقت الشدة وبهذه السجايا  
 السامية اكتسب أيضاً اخلاص ومحبة اخوته وأفراد عائلته وهو سر من  
 أسرار نجاحه فان أولاد عمه واخوته لما علموا بشدة مضايقته اتوا اليه  
 حالا من الشام بجيوشهم فعززوه وصيروه أقوى من الصليبيين بمراحل .  
 ولما كان الكامل ميالا للسلام ذكر الصليبيون وقت ما طلبوا الهدنة  
 بعد واقعة المنصورة العظيمة بالشروط التي اقترحها عليهم وأقبل سقوط  
 دمياط في يدهم فاصروا على البقاء في مصر مالم يأخذوا ٣٠٠ الف دينار في  
 نظير هدم الملك المعظم عيسى اخي الملك الكامل اسوار بيت المقدس فرفض  
 الكامل ذلك الطلب لما انه هو القاهر الفائز وقسّد فعاد الى مضايقتهم .  
 ولما كان ذلك الوقت قرب زمن فيضان النيل اجتهد ان يحشد جيشه  
 العظيم في اراض عالية حتى لا تغمر معسكره المياه

فلما ارتفع النيل وفاضت مياهه على الجسور ارسل الكامل  
 سرية من جنوده ليلا في الخفاء من وراء معسكر الافرنج لتقطع سد ترعة  
 المحلة التي كانوا معسكرين ورائها بالقرب من شاطئ النيل كما ذكرنا  
 ولما قطع السد طفت مياه الترعة فاغرقت جميع الاراضي التي تفصل جيش  
 الافرنج من دمياط واغرقت أيضاً جزءاً كبيراً من الارض العسكرية فيها  
 جيشهم . فلما استيقظوا في الصباح رأوا تقسمهم في وسط جزيرة وقد حال

الماء بينهم وبين مؤنتهم وذخائرهم ولم يبق لهم بارق امل في الحصول على  
 نجدة تجيئهم من سوريا عن طريق دمياط . فخافوا سوا المصير وبأتوا  
 يشكون قلة الطعام ودبت في جنودهم عوامل القحط والجوع . ولما رأى  
 السلطان الكامل ذلك وانه لم يزل بينهم وبين دمياط معبر ضيق في وسط  
 المياه امر عساكره باقامة جسر وعبروا عليه وملكوا تلك الطريق فخصر  
 الافرنج في تلك الجزيرة فاضطربوا والتزموا في الحال أن يخبروه بقبول  
 شروط الصالح . ولم يجسروا حينئذ على ذكر تعويض مالي او غير مالي  
 لان مركزهم كان حرجاً بل رغبوا اليه ان يسمح لهم بطريق حتى يعبروا  
 وينسحبوا من بلاده فقبل منهم السلطان الكامل شروطهم وكان ذلك في  
 ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ غير انه اشترط عليهم أن يتركوا رهائن تضمن  
 خروجهم بالكفاية من القطر فترك له الصليبيون ملك عكا ونائب البابا  
 وكذلك الملك الكامل أعطاهم ابنه الصالح وبعض الامراء

وبناء على ذلك الاتفاق امر الكامل بصنع جسر لعبورهم فعبروا  
 وانسحبوا الى دمياط واخذوا ما كان لهم فيها وتركوها للمسلمين وكان  
 ذلك يوم ١٩ رجب سنة ٦١٨ ونزلوا الى البحر قاصدين يلادم وهكذا  
 انسحب الصليبيون من مصر راضين من الغنيمة بالاياب وتركوا دمياط  
 بعد ان جاهدوا في فتحها سنة ونصفاً وافنوا حول برجها بدر الاموال  
 ومهيج الرجال . وبعد مبارحتهم الشطوط المصرية بقليل اتتهم نجدة عظيمة  
 بطريق البحر من اوروبا . فشكر الكامل تاخر تلك النجدة الى ذلك

الحين . ولما وصل الافرنج الى بلادهم ارسلوا الملك الصالح ومن معه الى  
ابيه فارسس لهم ايضاً رهائهم . ودخل الملك الكامل دمياط مع اخوته في  
احتفال عظيم

وفرح الاقباط بانهمز ام الصليبيين فرحاً لا يوصف لانهم وجدوا ان معاملة  
المسلمين لهم افضل من معاملة اولئك غير ان هزيمتهم جاءت ضربة قاضية  
على امال الكنيسة اليونانية في مصر فصح في ذلك قولهم مصائب قوم  
عند قوم فوائد . اذ بقدر فرح الاقباط كان غم اليونان هكذا بالغاً .  
وكتب بطريركهم نقولا خطاباً عجيباً جداً للبابا هو نوروس في رومية بعد  
تسليم الصليبيين مدينة دمياط للمسلمين وانسحابهم من ابلاد المصرية  
وانكر في كتابه وجود الكنيسة القبطية المصرية بالمرّة واخبره ان جميع  
المسيحيين سكان القطر المصري كانوا مستعدين لتقديم واجبات الطاعة  
وانخضوع لسدة البابوية وناتي هنا فادة للقراء على ترجمة ذلك الخطاب الغريب  
تقلاً عن نبيل انورخ الفرنسي قال -

الى قداسة الاب الاقدس الكلي الوقار والاحترام والسيد المعظم  
المعصوم من الزلات والخطايا بالنعمة الالهية والخبر الاعظم بابا الباباوات  
ورئيس رؤساء الكهنة الجالس على اريكة مار بولس الرسول بابا كنيسة  
رومية المقدسة من الاستقف العام نقولا الجالس بصفته بطريركا على  
ارشية الاسكندرية بذات النعمة الالهية . الخاضع لسدتك الكهنوتية  
بكل فروض الوقار والاحترام التي تليق بتداستك

اما بعد . فان كل المطارنة والاساقفة والقسس ومشايخ الكنائس  
والكهنة والشمامسة والرهبان والكتاب والعلمانيين اجمعين وبالجملة كل  
المسيحيين الساكنين بارض مصر يتضرعون مبتهلين الى ابوتكم وقد استكم  
الرسولية بكل تأوه . وزفرات وانين وصراخ وعويل من تلك المظالم  
والاضطهادات الاسلامية

فان اتفق سقوط بناء أي كنيسة مسيحية لذي حادث ما لا تقدر ان  
تجاسر على اعادة بنائها . وفي مدة الاربعة عشر سنة الماضية صار كل مسيحي  
في ارض مصر مكافئاً بتأدية الضرائب الاجبارية عن نفسه بيزاناً ( ١ )  
واحداً واربعة عشر قيرينه فان كان فقيراً زج في السجن حتى  
يوفي الفس الاخير . يوجد كثير من المسيحيين في هذه  
الديار يجمع منهم سلطان المسلمين ارادا لا يقبل عن مائة الف بيزاناً  
ذهيباً . وما عسى ان اكتب انما استكم الطاهرة غير ما تقدم اكثر من  
ان المسيحيين جميعاً في هذه الديار يسخرون في الاشغال الشاقة وكل عمل

( ١ ) البيزانت هو قطعة من العملة الذهبية كانت شائعة في العصور الوسطى  
وهي عملة اسلامبوليه تساوي قيمتها ستين غرشاً مصرياً وكان يوجد قطعة اخرى  
قيمتها توازي جنبها مصرياً ويوجد ايضاً بيزانت فضي تساوي قيمة مائة اربعة واربعين  
ملياً وكانت تلك القمود متداولة كثيراً باوربا كما يسميها اليونان . انما الذي  
يدفعه المسيحي في ضريته التي يقول عنها نيل المسووخ هي البيزانت الفضي  
( ٢ ) القريين نوع من القمود الاسلامبوليه الاسلامية كانت ذائعة الاستعمال في  
مصر ويحتمل ان تكون نحاسية

غير لائق وانهم مساقون قهراً لكنس شوارع المدينة !

وقد صار معلوماً لدى العالم المسيحي اجمع كيفية سقوط مدينة دمياط  
 المخجل بأيدي المسلمين وهو امر اظنه خطراً عليّ لو كتبته على ورقة  
 وبينته بخطابات لسد تكلم الرسول إذ أن قراءة كلماته مؤلمة ومحنة للغاية .  
 فبعد أن عرفت هذا كله تحن علينا وارأف بنا ياسيد . يا ايها الآب  
 الروحاني المعظم يا نائب المسيح على الارض . وكما ان القديسين جميعاً قبل  
 محيى السيد المسيح له المجد كانوا مشتاقين لرؤياه ومحيئه في عصرهم  
 ليخلصهم من رق العبودية الابليسية ويفديهم ويحررهم من اسر الخطية  
 ومن مات منهم قبل محيئه انما مات على ذلك الرجاء كذلك نحن اولادك جميعاً  
 منتظرون باشتياق شديد محيى جلاله الامبراطور وليس نحن فقط الذين  
 سنموت على رجاء ذلك المحيى بل وايضاً اكثر من عشرة الاف مسيحيين  
 منفيين ومشتتين في جميع انحاء المملكة الاسلامية

ولا انسى أن اذكر لقد استكم الاجراءات التي يجب ان يتخذها سيدنا  
 وامبراطورنا عند وصوله لبلاد مصر وهذه الاجراءات هي الطريق  
 الوحيد الذي باتباعه يمكن لجلالة الامبراطور ان يخلصنا ويبقي على حيوتنا  
 من الاعداء فننحسب نعمة الله من كل خطر وهذا الطريقة هي : —

دع جلاله الامبراطور عند اقترابه من مياه الشطوط المصرية أن  
 يدخل بمراكبه وسفنه الحربية معها كان عددها من فرع النيل الغربي  
 عند النقطة المسماة بمدخل رشيد عوضاً عن ان يأتي من جهة الفرع الشرقي



عند دمياط . ويدخلون عند رشيد ويستمرّون في سيرهم بنهر النيل حتى  
يصلوا الى جزيرة قائم عليها مدينة تدعى فوة وبوصولهم الى تلك النقطة  
يكونون قد ضمنوا امتلاك ارض مصر باذن الله بدون ادنى خذلان .  
ومما يحسن ذكره ان نهر النيل عميق ومتسع والجزيرة المذكورة فيها كل  
ما يحتاج اليه الجيش الفاتح . وحامل هذا الخطاب هو احد من ثقي بهم  
الثقة التامة ويمرّز كلامنا هذا شهادته الشخصية لقد استم . ولاني اعرفه  
رجلاً حازم الرأي عاقلاً فطناً بصيراً قد اخترته لهذه المهمة ولا يفوتني  
ان اذكر لقد استم اعظم المصائب التي حلت بالمسيحيين في مصر . وهو  
انه قد هدمت مائة وخمسة عشر كنيسة اثناء حرب دمياط وقبل الختام  
اتوسل اليك ايها الآب الطوباوي ان تتنازل بالسماح لي بلثم موطن  
قديمك .!!

ولا عجب بعد ذلك الجواب الغريب اذا اعلّمنا التاريخ ان السلطان  
الكامل كان دائماً مرتاباً كثير الظنون نحو الكنيسة اليونانية المصرية  
ولذلك لم يسمح لهم ببناء الكنائس التي تهدمت اخيراً في الحروب الاهلية  
وكانوا دائماً تحت نير المذلة راضخين للجور اما الاقباط فسمح لهم ببناء جميع  
ما تهدم من كنائسهم وبممارسة عوائدهم وطقوسهم بكل حرية . يدلك على ذلك  
ان بعض الامراء قبض على بعض الرهبان وسلبهم ٤٠٠ بيزانتيّاً ذهبياً بدون  
وجه حق بدعوى انهم تأخروا عن دفع الجزية السنوية وكان هذا المبلغ هو كل ما  
يملكه الرهبان فشكوا الى الملك الكامل فنظر في مظلمتهم وامر بارجاع المال اليهم

ومما يذكر للكامل بالثناء انه رفض قبول كل رشوة قدمت اليه  
 لاجل ترشيح داوود بطريركا . ومن حسنه ايضا انه اعفى الرهبان من  
 دفع الجزية الشخصية وقد زار بنفسه دير وادي النطرون وتفقداحواله  
 واحوال الرهبان فيه وزار أيضا دير القديس مقاريوس فوجد أحد كبار  
 موظفي الاسلام سألنا به فامر به بالترحال محافظة على احساسات الرهبان .  
 ولما زار ذينك الديرين كان الرهبان يتضرعون اليه بحرارة حتى يصرح  
 لهم بانتخاب بطريرك ويظهرون له شدة احتياج الكنيسة لذلك .  
 وأخبروه انه تخرج من دير القديس مقاريوس ثمانون راهبا رسمهم  
 المرحوم البطريرك يوحنا السادس كهنة على عدة أبرشيات فلم يبق منهم  
 على قيد الحياة سوى أربعة فقط واعلموه انهم يخدمون جميع الابشيات  
 مع انهم لم يزالوا رهبانا في حين ان في البلاد اساقفة كثيرين يستطيعون  
 ان يعينوهم رعاة ويمنحوهم رتبة الكهنوت ويوزعونهم على تلك الابشيات  
 الخالية من الرعاة غير انهم فضلوا البقاء في الخدمة وهم رهبان حتى  
 لا يحرموا من سيامتهم كهنة رسميين بواسطة البطريرك الجديد لا بواسطة  
 الاساقفة لانهم يعتبرون قيام البطريرك بتلك الخدمة مزية عظيمة  
 فاجابهم السلطان الكامل بانه غير ملوم على ذلك التأخر وان ليس  
 له أدنى علاقة بالظروف التعيسة التي حلت بكنيستهم وانه يود لو لقي  
 منهم اتحادا في انتخاب بطريرك ان يصادق عليه كما ويتنازل عن الرسوم  
 التي اعتادت البطريركخانه ان تدفعها للحكومة عند تنصيب كل بطريرك جديد

والغالب ان الكامل كان أرق ملك رآه الاقباط في القرون الخوالي  
 نظرا لما أبداه اليهم من الخنو والانعطاف . وان كل مسؤولية أديية  
 واقعة على ذلك الطامع الذي طمع في الرتبة الكهنوتية بغير جدارة أو  
 استحقاق وأعني به داود الذي بتطاوله الى الكرسي البطريركي أوجد  
 الهياج والشغب الكثيرين وخط من كرامة الاقباط وأسقط مقام  
 المسيحيين في عيون الاسلام في حين انه كان أولى بان يرفع في تلك  
 الظروف الجميلة في حكم ذلك السلطان العادل ولكن أبت الاقدار الا  
 وجود هذا الطاغية ليناضل ويقاوم حتى بقي الكرسي البطريركي خاليا  
 ممن يجلس عليه وظل الاساقفة يموتون واحدا بعد آخر وتخلو أبرشياتهم  
 ممن يحل فيها نظرا لعدم وجود بطريرك ينصب بدل المتوفين فكان  
 ذلك موجبا لفرح داود لتناقص عدد خصومه

ولو كان المرحوم البطريرك يوحنا السادس أو غيره من سلفائه  
 عائشا في ذلك العصر الذهبي الجميل لرقى شؤون الاقباط وأوصلهم الى  
 درجة من رغد العيش والرفاه يحسدون عليها بل كان سعى في اعادة بناء  
 الكنيسة التي هدمتها يد الاضطهاد ولم يتوقف أحد الى تجديد لها بل كان  
 اتخذ ميل السلطان الكامل الى المسيحيين ذريعة لى تبشيره بالديانة المسيحية  
 لان السلطان كان يحب الديانة المسيحية محبة شديدة

ومن الاسف انه لما طال الزمان على السلطان الكامل ولم ير من  
 الاقباط الا داوود وفضائمه وأعماله القبيحة وفعل اتباعه الاذنياء عيل

صبره الطويل مع الاقباط المنكودي الحظ وسقطت محبته الصادقة لهم  
من قلبه وقرمه ميله الغريزي لديانهم وتنج عن ذلك انه ندم على كرمه  
في اغفائه الرهبان من دفع الجزية الشخصية وحسب ذلك تديرا وشططا  
ورسخ في نفسه هذا الاعتقاد لما رأى ان مئات من الاقباط العلمانيين  
صارون يتشحون بلباس الرهبنة حتى يعفوا من الجزية في حين انهم لا  
يعرفون شيئا عن الرهبنة فلما ساء ظن الكامل بهم أمر في غضبه بالبحث  
عن أولئك المخادعين وفرزهم من الرهبان الحقيقيين بدقة فأسرع رجاله  
الى ذلك واتخذوا هذا الامر وسيلة للايقاع بالاقباط فكانوا يسلبون  
الاموال من الرهبان عموما ولم يميزوا بين الراهب الحقيقي من المتصنع  
وشاع ان الرهبان الحقيقيين تألموا كثيرا من تلك الفظائع وبالاجمال  
فان الثلاثين عاما التي حكم فيها الكامل والاثنا اللذان تقدماه كانت سني  
شؤم على الاقباط وخجل على ذوي الشعور منهم نظرا لما بدا لهم من  
الظروف الطيبة التي لم يغتموها لتقوية نفوذهم

وكما اننا لا نقدر ان نعرف السبب الذي حدا بالكامل الى الانقلاب  
على الاقباط كذلك لا نقدر ان نعرف الداعي الذي جعله ان ينقم على  
اخوته في حين انه كان أحب الناس اليهم وقد لبث في ماضي ثمانية  
عشر عاما وهو معهم على صفاء عظيم ووداد لم يسبق له مثيل وقد كان كل  
منهم محبا لرعاياه سالكا بالعدل والانصاف فلم يظهر لهم ندي المعاملة  
الحية في ما تقدم من السلاطين ولطالما امدوه باجنادهم وأمواهم وأنجدوه

على الصليبيين بغير ان يطلب نجدهم وبغير ان ينالوا منه عوضاً والغريب  
ان معظم ذلك الانقلاب اصاب شره الملك المعظم عيسى سلطان دمشق  
الذي لولاه لم تقم له قائمة في مصر كما رأى القاريء فيما تقدم من الكلام  
عند أوائل حكمه حيث نصره على الاعداء وأيده في مركزه

ويبان ذلك انه لما استتب الملك للكامل وأخذ الثورات والفتن  
طمع في أملاك اخوته فآثار حرباً على الملك المعظم عيسى سنة ١٢٣٥ م  
واغتم فرصة ضعف الصليبيين ف عقد معهم هدنة وأغرى فريدريك  
على اغتيال أخيه عيسى واستخلاص دمشق من يده فقدم هذا  
الامبراطور الى عكا وهناك علم بوفاة عيسى وتنصيب ابنه الملك الناصر  
صلاح الدين فاستبشر الملك الكامل ووضع يده على مملكة أخيه فاستنجد  
الملك الناصر عمه الاشرف على عمه الكامل فجاء الاشرف بجيش جرار  
ولكنه لسبب غير معروف اتحد مع أخيه الكامل ونصره على ابن أخيه  
الناصر . اما فريدريك فسار توا من عكا لافتتاح مملكة دمشق فبعد ان  
فتح صور التقى بالملك الاشرف فتخاصما على الغنيمة ثم مات الاشرف  
نظراً لجوار أخيه الملك الكامل وأصبح الوارث اكلتا المملكتين ونائباً  
لاخويه عيسى المعظم والاشرف

ولما كان الملك الكامل محتاجاً الى المال أقدم على عمل ما كان  
أقسم ان لا يفعله فخنث بيمينه وقبل رجاء اعوان داوود وسمح لهم برسمه  
بطريركا على أيدي بعض الاساقفة القليلين الذين كانوا باقين وقتئذ على

قيد الحياة. وقد قبل هؤلاء الاساقفة القيام برسمه بعد ان هددهم أولئك  
 الاعوان بالقتل لو رفضوا الطلب فقاموا بذلك تخلصاً من عذاب  
 الاستشهاد . وبذلك انتصرت عصا داود الحديدية بعد دسائس عشرين  
 سنة وسيم بطريكاً ووقعت كنيسة آباءه فريسة في يده . وهكذا تغيرت  
 أحوال الملك الكامل تغيراً فجائياً بدون علة ظاهرة والمظنون انه كان  
 للمرض الذي مات به بعد ذلك بسنة تأثير كبير في ذلك الانقلاب  
 فذهب مثقلاً باجمال الخطية . وقد كان قبل مماته واقفاً تحت تأثير  
 ذوي المناسد والشرور الذين يحلو لهم المصائب بزرع الفتن والمناسد  
 والمظنون ان ثاني انجاله حمله على اتيان تلك الخطة المستهجنة التي اتبعها  
 في أواخر أيامه . والحقيقة مجهولة من هذا القبيل ولا نعرف من أغراه  
 على اتفاهه مع فردريك امبراطور الصليبيين لمصادرة أملاك أخيه الملك  
 المعظم عيسى في سوريا وما كان من أمر وفاته سريعاً بعدئذ كما تقدم .  
 ثم انه بعد وفاة أخويه وتسلطه على مملكتيهما لم يسترح له بال بسبب وجود  
 الملك الناصر ابن أخيه الملك المعظم لانه كان يخشى ان يستعين عليه  
 بقوات حربية أجنبية ويسترجع ملك أبيه المعتصب أو يظل على اطلاق  
 راحته فاتخذ الملك الكامل مع أخ له آخر كان في إقليم ما بين النهرين  
 وهي البلاد الكائنه بين نهري دجلة والفرات على قتل ابن أخيه الصغير  
 الملك الناصر ليخلو له الجو ويتربع على عرش مصر وسوريا . ولكن  
 كانت تدابير العناية أقوى من تدابير الاخين

مات الكامل قبل ان يدرك ما يتمناه لابن أخيه المسكين . وذلك  
انه لما عقد النية على ما تقدم وقام من مصر الى سوريا لهذا الغرض  
سنة ١٢٣٧ مسيحية وصل الى دمشق ومات فيها في خلال شهر رجب  
سنة ٦٣٥ هجرية ودفن في قلعها . وكان محباً للعظمة والافتخار حازم  
الري حسن الاعتقاد محباً للفضيلة والعلم . وكان يصرف ليلاليه في المباحثة  
مع العلماء والفضلاء

ولما علم المصريون بوفاته بايعوا ابنه سيف الدين أيي بكر وهو  
ابنه البكر وكان له القاب كثيرة أشهرها لقب الملك العادل «الثاني»  
وكان أباه شعر بدنو أجله فقامه على مصر قبل ذهابه الى سوريا لتدبير  
أمر قتل ابن أخيه الناصر



## الفصل السابع والخمسون

### البطيرك المرذول

سنة ١٢٣٧ مسيحية و٩٤٣ للشهدا و٦٣٤ للهجرة

ولما ترك الكامل مصر وسار الى سوريا لمحاربة اخوانه الابرياء كما  
تقدم ابتداءً البطيرك داود مشروعاته المرذولة فظلم الرعية وانحرف في  
السياسة ولم يكن فيهم من يقدر ان يناقشه الحساب ثم اتحل لقب كيرلس  
تشبها بكيرلس البطيرك العظيم لذي افاد الكنيسة فائدة جلي غير انه  
لم يشبهه الا في قوة الارادة فقط اما في غيرها من الاعمال الممدوحة فلا

وعند جلوسه على الكرسي البطريكي احتفل احتفالاً بهيجاً بذلك فاستاء المسلمون منه وفي باديء امره استمال الرأي العام بان رسم بعض الكهنة والشمامسة ولم يحصل منهم الرسوم المعتادة. وكانت الابرشيات في ذلك الحين خالية كلها تقريباً من الاساقفة فتصرف فيها داريد (كيرلس) تصرفاً زاد عن حد المعقول لانه في وقت قصير باع اربعين ابرشية أي انه صار يعين لها اساقفة من الكهنة الذين يتسابقون في دفع المال فجمع من ذلك مبالغ وافرة زادت قوة بازاء شعبه الضعيف واعترض عليه اعيان الاقباط وبنوا له سوء مغبة هذا التصرف فكان اعتراضهم كصرخة في واد أو تفخة في رماد لان كيرلس أو هو داود اخبرهم انه مضطر الى جمع النقود لسداد المطلوب للحكومة جزاء تنصيبه بطريكاً وكان في تلك الايام راهب يقال له بطرس استاء من تصرفاته المغايرة ولم يطق السكوت على مظالمه وحاز به كثيرون من الرهبان واقروا على الانسحاب من الطائفة مادام ان لاطاقة لهم على اقنائه

ولكن لما كان احتجاج الشعب شديداً على السيمونية أي جمع الاموال بواسطة الرسوم الكهنوتية اضطر ان يعقد جلسة دعا اليها كبار رجال الاكليروس واعيان العلمانيين في كنيسة المعلقة واخبرهم ان جمع المال انما كان لا يفاء الاموال الاميرية وصادف ذلك القول الوقت الذي جاء فيه خبر وفاة الملك الكامل بدمشق وقد حلف كيرلس لرجال الجلسة انه بعد ان يتم جمع المال للغرض المذكور سيمنع قطعياً امر (السيمونية)



وهي بيع الرتب الكهنوتية في المستقبل اذ لم يكن تمت داع لجمع  
الاموال بهذه الطريقة

وثاني مشروعاته وان لم تكن مختصة ببيع الرتب الكهنوتية فانها  
تتضمن اعمال عسف ومظالم جسيمة لاشباع مطامعه الاشعية ورغبته  
المحرقة في الحصول على الاصفر الرنان وقوة الحكم والسلطان

ومن اعماله الجائرة انه كان في مصر بعض اديرة كدير القديس مغاريوس  
في وادي النطرون معتبرة اديرة بطريركية محضة بمعنى انها تابعة رأسه  
ادارياً ودينياً للبطيريك ذاته وهو وحده الذي يعين لها الاساقفة ويمارس  
كل ما يلزم لها مادياً وأديباً ويكون دخلها السنوي لمصروفه الخاص  
وبعبارة أخرى انها مقطوعة على البطاركة بصفة معاش من قديم الزمان  
ولكن بعض البطاركة المتأخرين حباً في راحة وهناء الكنيسة تنازلوا عن  
بعض ايرادات تلك الاديرة واقتصروا على أخذ ما يكفيهم فقط من  
الاموال الضرورية . وبخلاف ذلك فانه يوجد أيضاً كثير من الاديرة  
والصوامع موضوعة تحت تصرف الاسقف الذي يكون الدير واقعاً في  
دائرة ابرشيته

فأصدر البطيريك كيرلس منشوراً استبدادياً لجميع الابرشيات  
والكنائس قرر فيه ان كل الصوامع والاديرة التي في الفطر المصري تعتبر  
من ذلك الحين بطريركية محضة وفي ذلك من الدهاء ما فيه لانه ضمن  
لنفسه أمرين عظيمين الاول جمع ايرادات تلك الاديرة لنفسه ليزداد بها

دخله ويعظم شأنه والثاني ليكون له حق السلطة العظمى عليها للغاية وقد أصدر أمراً آخر جعل به الإيرادات الاسقفية أي الخاصة بالاساقفة تحت سلطته وادارته. وأمراً آخر يعطيه حق السلطة الادارية على كثير من كنائس الابشيات التي كانت تحت سلطة الاساقفة فقط

وثالث مشروعاته انه لم يكتف باغتياح حقوق اساقفته مادياً وأدياً بل طمعت أنظاره الى حقوق بطريرك انطاكية ومن ذلك يظهر انه كان طموحاً الى الاستبداد في المسيح كما كان باباوات رومية في القرون الوسطى اذ انه أراد ان يجعل كرسي الكرازة المرقسية حراً من كل مراقبة. ومما جعله يطمح الى التعدي على حقوق كرسي انطاكية حجته بوجود كثير من الاقباط المصريين يقطنون بلاد سوريا وهؤلاء لا يفهمون لغة الاسقف السوري باورشليم وقت الصلاة ( وهو تحت سلطة بطريرك انطاكية ) فتعلل بذلك وكتب للبطريرك المذكور يقول له انه ولو ان اسقفه الاورشليمي من القائلين بطبيعة واحدة للمسيح وهو معتقد الاقباط المصريين الا ان اختلاف الفهم نظراً لاختلاف لهجة اللغة توجد ارتباكاً في القرائن الدينية

وبناء على ذلك رسم البطريرك كيرلس في مصر مطرانا لاورشليم تابعاً للكرسي المرقسي وارسله حالاً اليها فاعترض الاساقفة والكهنة في مصر على البطريرك اعتراضاً شديداً على هذا الصنيع وعدوه انشقاقاً من كنيسة انطاكية المتفقة معهم في المعتقد فلم يلتفت الى اعتراضهم

لكنهم نجحوا في حمله على ارسال مندوب الى بطيرك الانطاكية الذي كان مقيماً وقتئذ في اورشليم يطلب اليه الاعتراف بالمطران الجديد الذي ارسله . فلما وصل المندوب الى اغناطيوس البطيرك الانطاكي وسأله قبوله رفض رفضاً باتاً غير انه لم يتحدث ولم تظهر عليه علامات الدهشة ولم يتفوه بما يكدر خاطر المندوب المصري فرجع الى كيرلس واخبره بما كان فاصر هذا على تنفيذ قراره فاستاء اغناطيوس من ذلك العناد وتكدرت عواطفه واصدر حروماً ضد ذلك المطران الدخيل وقطعه وطرده من كنيسة اورشليم فاضطر ان يلتجئ الى اكليروس اللاتين بتلك المدينة الذين يعلمون ان صالحهم المادي والديني يقوم بوجود ذلك الانشقاق فقبلوه وبسطوا حمايتهم عليه

والتزم اغناطيوس ان يقابل الشر بمثله وقصد اغاظة كيرلس البطيرك الاسكندري فعين مطراناً من قبله لكنيسة الحبشة التابعة لسلطان الكنيسة القبطية المصرية وكان المطران الذي رسمه اغناطيوس حبشي الجنس مولوداً في بلاد الاحباش ولم يفصح لنا التاريخ عما اذا كان ذلك المطران تمكن من القيام برغائب اغناطيوس في الحبشة ام لا

وكانت اعمال كيرلس المذكورة كلها تقع موقع الاستغراب لدى السلطان الكامل قبل موته فاستهان به وجعله العوبة لطيفة حتى انه نظير تهمة زهيدة تافهة التي القبض عليه وسجنه فالتزم كيرلس ان يدفع الف وخمسمائة قطعة ذهبية من الاموال التي جمعها بطرق غير شرعية ليخلص

من السجن . وكانت هذه الحادثة اخر ما حدث له من السلطان الكامل اذ  
 توفي بعدئذ بقليل في سوريا كما تقدم فلما تولى ابنه الملك العادل ( الثاني )  
 على الديار المصرية نجح كيرلس في سياسته واستمال الملك الجديد اليه  
 واكتسب صداقته وحمایته له بالرشوة دون صداقة وحمایة اخوي الملك  
 العادل الثاني اللذين اغتصبا عرش اخيهما بعد حكمه بستين كما سيجيء  
 وبقي كيرلس بعدئذ ثمانية سنوات على كنيسته بمساعدة اصحابه  
 الاسلام مزدريا ومحتقراً كل اشراف واعيان شعبه من علمانيين واساقفة ممن  
 كانوا لا يفتأون يدبرون التدابير اللازمة لردعه والحجر عليه منعاً لخراب  
 الكنيسة مع أن أغلبهم لم يتحصل على تلك الرتبة الكهنوتية الا بخبثه ولم  
 يكن كيرلس معروفاً لدى عيون شعبه كمن سلفه من البطاركة لانه لم  
 يسكن في الكتدرائية الكبرى في حصن بابليون نظيرهم بل سكن في  
 الاسكندرية ولما توالى شكوى الاقباط عليه اضطر ان يأتي الى مصر  
 ويقابل اساقفته في منزل محافظ العاصمة الذي استجار به الاساقفة واذ  
 كان المحافظ صديقاً حميماً لكيرلس فلما حضر وابتدأوا يسردون مظالمهم  
 لدى المحافظ وطلبوا اليه ايضاً ان يخلعه حفظاً لما بقي من نظام وناموس  
 كنيستهم ودينهم ولما كان المحافظ قد ارتشى من الطرفين لم يبت في امر  
 غير ان طلب العذل ادهشه واذ كان صديقاً للبطيرك كما اسلفنا عضده  
 وحمي عنه فأجاب البطيرك ولو اني اعرف أنه لم يسبق في تاريخ  
 البطاركة من عهد ماري مرقس الرسول الى الآن أنه يسوغ

للاساقفة أن يخلعوا البطريرك عن (١) كرسيه لاي علة كانت سيما مثل تلك  
 التهم الباطلة التي يسردونها ومع كل ذلك فان كانوا في شدة الضيق من  
 معاملتي فالقانون الكنائسي امامهم فليأخذوه ويبحثوا فيه عما يريحهم  
 أو يسوا لهم قانوناً يوافق أغراضهم .

وكانت طلبات الاساقفة في تلك الجلسة القضائية معتدلة ومعقولة  
 وهي أولاً - ابطال السيمونية أي بيع الرتب الكهنوتية ومنعها قطعياً .  
 وقد صدر هذا الطلب من أساقفة كانوا هم السبب في ايجادها لانهم  
 دفعوا أموالاً كثيرة للبطريرك حتى رفعهم من كهنة الى أساقفة فهم الذين  
 استعملوا تلك السيمونية القبيحة وقاموا الآن ينادون بابطالها ثانياً الزام  
 البطريرك كيرلس باحترام حقوق البطريرك الانطاكي بارشليم . ثالثاً -  
 حصر سلطة المطران الذي تعين حديثاً لسوريا لغاية حدود غزوة فقط -  
 ورابعاً شلح بعض رجال الاكليروس الذين رقام البطريرك بدون جدارة  
 واستحقاق على خلاف القانون الكنائسي . خامساً - أنه لا ينبغي للبطريرك  
 تقليد بدع الكنيسة الملكية اليونانية . سادساً - أن يتعين أحد كبار  
 الاساقفة ليكون سكرتيراً للبطريرك ومحاسباً أي - تشاراً له في تصرفاته .  
 فكان كيرلس يسمع تلك المطالب ويصغي اليها ولكنه لم يجب

(١) يقصد الاساقفة بتلك البدع أن البطريرك كيرلس قلده عوائد الكنيسة  
 الملكية اليونانية في أمر الاعتراف السمي واستعمله في كنيسته القبطية بعد أن  
 بطلت تلك العادة من زمن مديد

أساقفة المجلس على واحد منها بل رفضها جميعها ووعدهم أنه سيعقد لذلك  
مجمعاً مقدساً رسمياً وينظر فيها لأنها مختصة بالمللة ولا دخل للمحافظ  
أو الحكومة فيها . فصادق على قوله المحافظ ورفضت الجلسة

وبعد ذلك صار الاساقفة يطلبون منه عقد ذلك المجمع حسب وعده وهو  
يعد ويماطل ومن ثم أخذ يرشو الحكام المسلمين حتى رفعت زعيم الحركة  
الاصلاحية وسجنه وكان ذلك الزعيم راهباً يقال له حامد فلما سجن  
نمحت نار الحركة واستراح كيرلس من مشاغلة الاساقفة له ولكن  
أعماله المذمومة زادت عن الحد وأخيراً اجتمع أربعة عشر أسقفياً بدأ  
واحدة سنة ١٢٣٩ واعترضوا على تلك النعمال والتصرفات الذميمة التي  
وصلت بالكنيسة الى أسفل دركات الهوان وبعد مداوولات شديدة بينه  
وبينهم اضطروه الى عقد مجلس مقدس في كاتدرائية المعلقة للنظر في  
مطالب الاصلاح . فصرح لهم بعقد المجمع فاجتمع الاساقفة في الكنيسة  
وأقروا على جملة امور عظيمة بشأن اصلاح الكنيسة وكانت تلك  
القرارات أشبه بقانون كنائسي عظيم وبعد أن وفوه حقه من التثقيح  
والتحوير قدموه الى البطريرك ليوقع عليه ليكون قانوناً يرجع اليه وكتاباً  
يحفظ في الكنيسة عليه يتضمن الامور التي ينبغي الجري عليها والاقرار  
بطبيعة واحدة للمسيح وقد استخرج نييل المؤرخ الفرنساوي خلاصة  
ذلك الكتاب في تاريخه نذكرها هنا للقراء .

من الآن فصاعداً لا يجوز ترقية أحد رجال الاكليرس الى وظيفة

أستف دون أن يكون حائز الصفات الشخصية التي توهمه لتلك الوظيفة  
ودون أن يكون حائزاً الكفاءة العلمية التامة ودون رضا الشعب والرأي  
العام عنه وبدون انتخاب قانوني

«٢» وان سيامة القس وترقية الاساقفة يتم بواسطة البطريرك مجاناً أي  
بدون مقابل تقدي لذلك العمل «٣» وانه محظور على القضاة الاكليريكيين  
قطعيًا قبول الهدايا لاية علة كانت ومن يتجارى منهم على مخالفة ذلك  
جزاؤه الحرم والقطع من الكنيسة «٤» وانه يلزم تعيين لجنة من الاساقفة  
ذوي الخبرة والدراية التامة لمساعدة البطريرك في عمل مختصر للقوانين  
الكنائسية وخصوصاً المختصة منها بالعشاء الرباني والزيجة والوصايا «٥» وانه  
يلزم نشر وتوزيع نسخ ذلك القرار في جميع انحاء القطر المصري وان  
كل القضايا الاكليريكية تحل في المستقبل طبقاً لهذا القرار «٦» يلزم  
عقد مجمع مقدس من الاساقفة سنوياً في الاسبوع الثالث بعد عيد  
العنصرة ﴿عيد الخمسين﴾ «٧» وان التقاليد المختصة بالكنيسة القبطية يجب  
المحافظة عليها بكل دقة «٨» وان اختان يلزم اجراؤه قبل العماد الا في  
حالة الضرورة القصوى التي توجب تأخيرها بعد العماد «٩» وانه لا  
يلزم ترقية من كان أسيراً أو رقيقاً الى درجة الكهنوت ويستثنى من ذلك  
اثيوبيا ﴿ الحبشة ﴾ والنوبة ﴿ السودان ﴾ فان هذه المادة تخفف فيهما  
اكراما لخاطر الذين يستحقون الترشيح لدرجة الكهنوت «١٠» وان  
أولاد الامهات الغير متوجات ممنوع ترقيةهم ونسلهم أيضاً لدرجة

الكهنوت بل يستمرون علمانيين . (١١) وانه يلزم بقاء مطران دمياط في منصبه . (١٢) لا يصرح للبطريرك ولا لاي كان من اساقفته ان يرسم احداً لدرجة كهنوتية خارج حدود ابرشيته . (١٣) وانه لا يحرم البطريرك احد المؤمنين في ابرشية غير تابعة له ادارياً قبل ان يحذره وينصحه بواسطة اسقف تلك الابرشية الذي لم ير فائدة من النصيح والارشاد فهو وحده الذي ينطق بحرمه وقطعه فان رفض الاسقف اجراء ذلك فللبطريرك الحق في اجراء ما تخوله له سلطته معه

(١٤) هذه القاعدة مرعية الاجراء في الحل كما هي في الحروم (١٥) وان الكنائس البطريركية التي اخذ البطريرك ادارتها يلزم ان ترد ثانياً الى اساقفة ابرشياتها . (١٦) وان ضرائب الصوامع والاديرة التي يدفعها الرهبان للبطريرك يلزم ان تكون بطرق عادلة غير جائزة ولا يعترها شيء من الاعتساف - ١٧ - لا يجوز للبطريرك ان يجبر اسقفاً على رسم من يكون لايقاً لدرجة الكهنوت بدون ارادة ذلك الفرد . - ١٨ - ليس للبطريرك حق في المطالبة بالهدايا والندور التي يقدمها الشعب للكنائس المختلفة التي في دائرة ابرشيته في الاعياد والمواسم . ما لم يكن ذلك برضى اسقف الابرشية قبل تكريسه تلك الهدايا والندور واستبدالها بالمعاش ( الرغب ) المعتاد ارساله لابرشية الاسكندرية - ١٩ - لا يلزم قبول شكوى من الرهبان على بعضهم بكثرة وان الذي ينظر في تلك الشكاوي والدعاوي ويحكم فيها ينبغي ان يكون من غير العلمانيين . - ٢٠ - لا يلزم



حرم أي استقف كان لعله بسيطة أو قبل انه يرسل له ثلاث انذارات من  
البطريرك نفسه مصحوبة بالنصح والارشاد الاول والثاني يكونان رسمياً  
بالكتابة والثالث شفاهياً . ( ٢١ ) ينبغي اعتبار رؤساء الدير رؤساء  
كهنه فيسمح لاي منهم ان ينطق بالحل للكاهن الذي يكون قائماً بالخدمة  
في الكنيسة وان كان اقل منه مرتبة ومصرح له ان يتناول العشاء الرباني  
حالا وراء الكاهن الذي قدسه على المذبح . ( ٢٢ ) ممنوع قطعياً على  
كل مؤمن تابع للكنيسة المصرية القبطية الوطنية أن يحضر الخدمة  
الربانية في الاعياد في كنيسة خارج ابرشيته والا عرض نفسه لعقاب  
الحروم .

وبعد ان قرأ كيرلس القانون المذكور رفض ان يوقع عليه باسمه  
وتعلل بعلل لم ترق في عيون الاساقفة الذين اتحدوا عليه وصاروا يعارضونه  
بشبات غريب واخيراً هددوه قائلين انه ان لم يوقع على القرار يلتزمون  
ان يمتنعوا عن تناول القربان المقدس معه فلما راهم مصرين على ذلك اضطر  
ان يمضي على ذلك القانون وعلى ذلك عملوا (١) مختصراً للقوانين الكنائسية  
كما قالوا ووزعوه كما ارادوا على كل الابروشيات وهو عبارة عن كتيب  
لطيف يحتوي على تسعة عشر قسماً في خمسة فصول . قسم منها مخصص  
للمعاد وسبعة اقسام للزيجة وقسم للوصايا وثمانية لتقسيم الميراث واثنان

(١) ان الذي عمل ذلك المختصر للقوانين الكنائسية هو رجل قبطي لاهوتي  
عظيم اسمه صافي الفضيل الملقب بابن العسال

للكهنوت .

وبعد انعقاد ذلك المجمع المقدس بقليل انتهت سلطة الملك العادل الثاني على مصر اذ اغتصب اخوه منه الخلافة . وذلك انه لما بايع الاسلام الملك العادل ( الثاني ) على مصر بعد ابيه الملك الكامل اقاموا من يدعي الامير يونس المعروف بالملك الجواد اميراً على سوريا وكان الملك الصالح شقيق الملك العادل ( الثاني ) اميراً على ما بين النهرين فلما يختلس ملك مصر من اخيه تبادل الامارة مع الامير يونس فهذا اخذ امارة ما بين النهرين واتى الملك الصالح بذلك اميراً على سوريا فلما شعر الملك العادل بذلك أوجس خيفة من اخيه فسار بجيشه على امل ان يصدده في الطريق فماتم الى ان وصل بلبس حتى رأى نفسه مقيداً في قبضة امرائه فخلعوه عن الخلافة وكان ذلك يوم الجمعة ٨ ذي الحجة سنة ٦٣٧ هـ بدسائس اخيه الملك الصالح الذي استقدموه بعد ثذاميراً على مصر وبايعوه بالخلافة فدخل القاهرة في موكب عظيم بين اصوات الترحاب والتهليل والدعاء وبذلك انتهت سلطة الملك العادل ( الثاني ) وكانت مدة خلافته سنتين فقط

وفي اثناء ذلك ثار بعض رعايا الاسلام بوقاحتهم المعتادة وحصلت فوضى في الاحكام وكان للاقباط الحظ الاوفر من مصائب تلك الثورة اما كيرلس بطريركهم فآخذ تلك الثورة فرصة سانحة واجتهد بان حازرنا الملك الصالح مختلس ملك اخيه وصار يتعجب اليه حتى

استماله وعلى اثر ذلك حث بكل يمين وقسم كان قد حلفه نحو اصلاح الكنيسة ونكث عهوده بالمرّة مع الشعب والاكليروس وعاد الى سابق فعاله المعيبة وخصاله الذميمة ولم يجد من يصدّه. ولو كانت فعاله قاصرة على طمعه الاشعبي في جمع المال أو الطموح الى العظمة لهان ولكنه عمل فساد ومظالم متنوعة حتى ان رجال الحكومة شرعوا في ايقاعه تحت سيطرة القانون لمحاكمته كباقي افراد الرعية. ولكن لم يتخذ اسقفان في شهادة واحدة ضده امام المحكمة الاسلامية كما وانه لم يعترف أي احد من الاساقفة بحق الحكومة في التساط على البطريرك والقضاء عليه وقالوا ان ذلك من اختصاصهم مع شعبهم وخدمهم. وبعدئذ عقدوا مجلساً فيما بينهم بحضور كبار واعيان الشعب القبطي واقرروا على ان يطلبوا من البطريرك مرة اخرى ان يلاحظ شرائع وناموس الكنيسة ويقوم بتأدية الاصلاح الذي وعد به ولم يتم فاجابهم كيرلس بالازدراء والاحتقار المر وفي الحقيقة كانت جميع مراكز رجال الاكليروس الذين رقام الى درجات اعلى مما كانوا فيها بواسطة المال لا تطاق لما اعترأها من فساد النظام لانه بالنسبة لما ظهر وشاع من سوء سلوكه وتصرفه قد اعترأهم الخجل الشديد مما شاع عليهم ايضاً ولم يعد في وسعهم ان يرشوه مرة اخرى لنوال منصب ديني ارفع غير ان واحداً من العلمانيين حملته الغيرة على اصلاح كنيسته فاجتهد مع البطريرك حتى اقنعه ان يوقع على قانون اصلاح اخر من مآله تعيين كاهن طاهر الذمة اميناً لحصر وضبط ايرادات الكنيسة

والاوقاف التي كان البطربرك يحصلها ويصرفها لمنافعه الخصوصية والزمه  
ايضاً ان يرسم اسقفين لابرشيتين بدون اخذ رسوم وكان كيرلس  
تاركا هذين المركزين خاليين حتى يرسم عليهما من يدفع له الرسوم ويحصر  
حق رسامة الاساقفة لنفسه . والزامه ايضاً بتعيين ناظرين لمدرستي  
القاهرة وبابليون . وان يصرح للاديرة بالبقاء تحت سلطة الاساقفة  
الذين تكون الاديرة في دائرة ابرشيتهم

ولما عرض ذلك المصلح القانون المذكور على المجمع الاكبركي لم  
يصادقوا عليه نظرا لعدم احتوائه على ما يضمن الاصلاح الحقيقي ورفضت  
الجلسة ولم تتوفق الى نتيجة مرضية وفي سنة ١٢٤٠ مسيحية استاء احد  
اصحاب كيرلس وتضجر جداً من بخله عليه فخاف عهده معه ووشى به الى أمير  
القاهرة ( اشبه بالمحافظ بالان ) فقبض ذلك الامير عليه والقاء في السجن  
واجتهد ايضاً ان يجعل اساقفته يشهدون عليه او يقيموا البراهين على  
المتهم التي نسبت اليه فابي اولئك الاساقفة ذلك . ولكنهم عقدوا  
جلسة مع الامير ليتداولوا سرا في امره وكان وقتئذ الملك الصالح مشغولاً  
في حروبه باسيا . وبعد المداولة اقر تسعة منهم بصحة التهم المنسوبة  
للبطريرك . ولكنهم قبل ان يطلبوا محاكمته عرضوا عليه ان يسامحوه عن  
خطاياهم ويحلوه منها بشرط ان يوقع على شروط اصلاح كالتالي امضاها السنة  
الماضية فالتزم كيرلس بقبول هذا الشرط ووقع على قانون الاصلاح  
ونجم من الشر الذي كان محققاً به ولكنه سار في الخطة التي كان سائراً فيها

اولاً بالضبط فضاك ذرع الاساقفة من ذلك السلوك الممقوت وعيل  
 صبرهم من كثرة وعده باصلاح حاله واستقامة سيرته وعدم قيامه بوعده  
 فالنزم الاساقفة ان يجتمعوا سنة ١٢٤١ مسيحية واقروا على خلعه من  
 الكرسي البطريكي ورفع العار عن كنيستهم واطروا امير القاهرة  
 بذلك فقال لهم الامير وكان يحب الاقباط حباً كثيراً وهل خلع البطريك  
 جائز في شرائعكم فاعترفوا له انه غير جائز الا برضى البطريك نفسه واقارره  
 على قبوله طوعاً واختياراً وانه لا يجوز انعقاد مجمع مقدس للاقرار على  
 خلعه بدون ان يكون البطريك رئيساً لذلك المجمع ثم قالوا للامير انه  
 حصل مايمائل ذلك مع احد باباوات رومية اذ كان غير حسن السيرة  
 والسلوك فالنزم كطاب اساقفته ان يعقد مجمعاتهم واشترك معهم في الحكم  
 على نفسه بالعزل من الكرسي البابوي ولكننا لانعتقد البتة بان كيرلس  
 يتشبه بنخوة بابا روميه ويحكم على نفسه بالخلع من ذلك المنصب الذي صرف  
 نحو ثلاثين سنة يدس الدسائس ويرشو بالدراهم ويبدل النفس في الحصول  
 عليه وحينئذ شرع الامير يخاطب السلطان الصالح في شأنه ففرضت عليه  
 الحكومة غرامة مالية رايية تاديباً له . ولكن بما ان الملتوي ملتو ولا  
 يلين الغصن اذا صار خشباً بقي كيرلس على غوايته واعماله الشريرة وكانت  
 كل نتائج تلك الفعال الذميمة لاتقع الا على رأس شعبه المسكين . ولكن  
 ابت العناية الالهية الا ان ترحم ذلك الشعب البائس بعد ذلك الشقاء العظيم  
 فاستلم الله روح كيرلس البطريك المرذول ومات في شهر فبراير سنة ١٢٤٣

مسيحية وراح غير مأسوف عليه فتنفس الاقباط الصعداء وكانت سنتهم  
 جميعاً تلج بالشكر لله على خلاصهم منه

ويصعب على الكاتب ان يأتي على وصف مقدار الضرر الذي اصاب  
 الكنيسة القبطية من داود سواء كان في مدة العشرين سنة التي قضاها  
 في الدسائس والرشوة لينال الكرسي البابوي بلا استحقاق وتسبب في  
 ترك الكنيسة بدون بطريرك طول هذه المدة أو بعد ان ارتقى الكرسي  
 الذي تصبو اليه نفسه وصار بطريركا وحكم الكنيسة مدة ثمانية سنوات  
 سامها في خلالها صنوف المذلة والاحتقار واوصلها الى اسفل الدرجات  
 ورمائها في اوطاء حفرة من الذل والعار وصارت موضع سخريه واحتقار  
 في عيون المسلمين وذلك بعد ان نهب مالها بكلتا يديه . وكانت الاساقفة  
 في عراق وخصام دائمين معه في القاهرة على الالهال العظيم والشرور  
 المختلفة التي بارشياتهم . وصار لقب البطريرك الذي كان في السنة المصريين  
 الحقيقيين والاقباط المستقيمين موضع المهابة والوقار مضغة في الافواه  
 وكيفما كانت غلطات البطارقة الذين تقدموه فان اعمال هذه السلسلة  
 العظيمة من بعد ماري مرقص الى يوحنا السادس واعمال اساقفتهم كانت  
 مشابهة لاعمال الملوك العظام . فاصبح اسم البطريرك من ايام داود المسمي  
 كيرلس فصاعداً لا يذكر الا مصحوباً بالهزاء والاحتقار والخيانة . ولسوء  
 حظ الكنيسة القبطية انه من بعد ايام البطريرك بنيامين لغاية يوحنا السادس  
 لم يتمتع احد البطارقة بالحرية التامة التي تمكن من خدمة كنيسة المسيح مادياً

واديًا وترقية شؤونها كما في أيام الحرية العظيمة والسلام التام الذي كان على يد كيرلس (داود) الذي خلف يوحنا السادس على عهد السلطان الكامل ولو كان الاقباط وشمس ذوي طالع سعيد لكان وجد من يصلح ان يكون بطريركاً حقيقياً مخلصاً يرفع كنيسته وشعبه الى ذرى المجد بمساعدة ذلك الملك الذي كان يمالي المسيحيين ويعضدهم

ولم يبق احد من عهد ماري مرقس البشير من البطاركة على الكنيسة القبطية وعكف على الاهمال وعدم المبالاة بالرعية بهذه الصورة حتى عرض نفسه للاتقاد نظير داود الذي حط من مقامه ومن سمعة الكنيسة ولم نسمع في اشد ازمته الاضطهاد واقساها ان اسقفا قبطياً اعتنق الديانة المحمدية كما سمعنا في أيام داود . الامارواه التاريخ في زمن كيرلس الثالث حينما كانت حالة الكنيسة غير مرضية . حتى انه مع سماح الحكام للمسيحيين بالعيشة بالسلام اعتنق ذلك الاسقف المغرور الديانة الاسلامية مات كيرلس (داود) وترك الكنيسة في حالة فوضى شديدة مختلفة الاحكام فاسدة النظام حتى لم يعد في وسع الشعب مساعدة الاساقفة على اتخاذ الوسائل اللازمة لانتخاب بطريرك جديد فظل الكرسي البطريركي خالياً سبعة اعوام كاملة ممن يجلس عليه كان الاساقفة في خلالها يدبرون شؤون الكنيسة كل في ابرشيته . ويتبين من شواهد عديدة ان الاقباط انما سكتوا كل تلك المدة الطويلة عن انتخاب خلف للبطريرك المتوفي واتحد معهم الاساقفة على هذا السكوت انتظاراً لوفاة اثنين من

اعوان كيرلس لرداءة اخلاقهما . وذلك كي يستريحوا من المظالم ويقوموا  
الى انتخاب رجل عظيم يصلح للكرسي البطريركي فيعيد ما أفسدته ايدي  
داود وكانت البلاد المصرية جميعاً في ذلك العصر على احسن حال  
في سلام تام . ولكي نظهر الفرق العظيم بين زمن الخصام  
والحرب والحالة الوسطى بينهما تأتي هنا على خلاصة ما قاله ابن سعيد  
— ١ — الرحالة المغربي الشهير عن حالة مصر في زمن السلم عند زيارته  
لها بين سنة ١٢٤٠ وسنة ١٢٤٩ مسيحية حيث قال — ولما كنت مقبلاً  
في مدينة القاهرة تاقنت نفسي الى رؤية مدينة القسطنطينية مع صديق  
رقيق الجانب فلما بدأنا المسير رأيت عند باب زويلة عدداً كثيراً من  
الحمير المعدة لركوب الذين يقصدون زيارة القسطنطين ولم يسبق لي رؤية  
حمير كثيرة بهذا المقدار . ثم ركب مرشدي الذي أشرت اليه حماراً  
وأشار علي بركوب آخر مثله . فلما ركبته شعرت بنجس لعدم تعودي  
على ذلك وليست هذه الطريقة من ضمن عوائدنا التي يبلاد المغرب  
فأخبرني صاحبي أن ركوب الحمير ليس عيباً ولا عاراً على الذوات  
والاعيان . وقد وثقت بكلام المرشد لما لاحظت ان الفقهاء وباقي  
الذوات والمتشجين بالملابس الثينة وأصحاب المناصب العالية يفعلون  
كذلك — فركبت وبعد أن جلست بلطف على ظهر الحمير همز الولد  
الحمار حماره فأسرع بي ركضاً فأثار غبار الارض على وجهي حتى كاد يتلف



بصري ويلوث ملابسي فتاسيت تبعاً هائلاً . ومن جهلي بركوب الحمير  
وعدم تعودي على ذلك قاسيت من التعب أشده فنزلت عنه وأثرت  
المشي على الركوب وحاسبت الحمار على اجرتة وقلت له - كل ما اریده  
منك أن تسمح لي بالمشي باقي المسافة على قدمي فأخذ اجرتة وانصرف  
عني ومشيت أنا وحدي حتى وصلت القسواط فاذا بالمسافة بينها وبين  
القاهرة تبلغ ميلين . ولما اقتربت من المدينة اعتراني الحزن والكآبة .  
اذ رأيت أسواراً مسودة وخرائب متشتتة وحفرًا كثيرة التراب والانتثار  
وحارات متفرقة على جانبيها منازل حقيرة مبنية بالطوب الاسود ( هو  
الطوب الني ) وكثيراً من شجر الغاب وجزوع النخل طبقات بعضها  
فوق بعضها وحول الابواب تراب كثيف يؤلم الزائر فظلمت ماشياً وانا  
اتعثر مما اجد وزادني ضيقاً زحام الناس وكثرة البضائع وقرب المياه  
المحمولة على ظهور الجمال ولم يعد في امكاني ان احتمل اكثر وما زلت  
سائراً حتى بلغت الجامع فلاحظت ان امر ضيق الشوارع المحتاطة به  
بضد ما تكلمت به عن حالة جامع اشبيليا ( في اسبانيا ) والجامع  
المراكشي في مراكش فدخلت ذلك الجامع (١) وهو الشهير في المدينة  
فرأيتة جامعاً عظيماً وحجارته منقوشة ومبنية على النسق العربي القديم  
وليس فيه حلية ولا زخرف ولا نقوش في الحصر التي تكسو جزءاً من  
اسواره وتقرش ارضه ورأيت الناس رجالاً ونساءً على السواء يمرون

(١) هو جامع عمرو بن العاص

عليها ويدوسونها باقدامهم ويعبرون عليها من باب الى آخر اختصاراً  
طريق المقصود . والباعة يبيعون في ساحته كل أنواع النقل والمكسرات  
كالبنديق واللوز والجوز وغيره وكذلك باعة الفطير والبسكويت والناس  
تشتري منهم في وسط الجامع غير مراعين له حرمة لما تأصل فيهم من  
ردىء العادات ثم رأيت كثيراً من الاولاد يحومون كالجراد في كل  
أطراف الجامع وفي يدهم قليل مياه يسقون منها الذين يأكلون نظير أخذ  
شيء بسيط يسدون به جوعهم . ورأيت بقايا الطعام وفضلاته متناثرة  
في صحن الجامع وزواياه كأن الذين يأكلون يكسلون عن تنظيف موضعهم  
ثم رفعت نظري الى فوق فرأيت العنكبوت يغشى سقف الجامع وزواياه  
وحيطانه جميعها ورأيت الاطفال يلعبون ويمرحون في ساحته كأنه ميدان  
الالعاب وعلى الحيطان كتابات ونقوش بالقلم والبوية سطرتهما أيدي الجهلة  
والعوام . ومع كل ذلك التشويه فان الجامع نخيم البناء حسن المنظر  
لا يتالك كل من رآه عن الشهادة بعظمته وهو مما لا يشابهه فيه جامع  
اشبيليا ( في اسبانيا ) مع ان في وسط هذا الاخير حديقة لم توجد في  
جامع عمرو لان الناظر الى جامع عمر يشعر بمهابة ووقار عظيمين لا يمكن  
التعبير عنهما . والنفس لا تتأثر الا من أثر الفخامة الظاهر الذي يبعثه  
مغناطيس النظر المتصل بخلايا العقل المتحدة بالحواس النفسية والنظر  
لا يتأثر مغناطيسياً الا باعجابه بالغرائب . ولكنني عرفت بعدئذ ان سر  
ذلك التأثير النفساني هو لان الصحابة قدس الله سرهم وقفوا في ساحته

اثناء بنائه وقد سررت كثيرا لما رأيت عليه دوائر كثيرة متفرقة في  
 جوانبه وكثيرا من جماعة المطالعين ملتفين حول المشايخ الذين يدرسون القرآن  
 الشريف وأصول الدين الاسلامي الخفيف مع نحو و صرف اللغة العربية  
 و زاد سروري لما علمت ان كل استاذ منفرد بتلامذته الملتفين حوله  
 كالنخاف السوار على المعصم في نقطة متباعدة عن الاستاذ الآخر . وهكذا  
 رأيتهم اكواما اكواما في صحن الجامع ثم سألت عن مصدر اجور أولئك  
 الاساتذة ومنبع معيشتهم فقيل لي ان ذلك يأتي من الصدقات الخيرية  
 والتكايأ وغير ذلك . ولكن قيل لي ايضا ان جمع تلك الصدقات صعب  
 جداً ولا يتم الا بعد كل تأثير عظيم من أئمة الدين على عقول المتصدقين  
 ثم خرجت مع رفيقي من الجامع ووصلنا الى شاطئ النيل فرأيت  
 رصيفه وهو مرفأ القسطاط قذراً وسخاً يعلوه الغبار وليس عليه أثر من  
 النظافة بالمرّة وليس طويلاً جداً ولا مستقيماً في هندسته وليس مبنياً  
 بالحجارة من جهة المياه التي تنبسط على الارض بأوجها ومع ذلك فهو  
 مزدحم بالمراكب والقوارب المختلفة الراسية عليه من جميع انحاء الارض .  
 اما عن نهر النيل نفسه فحقاً انه نهر عظيم ولم أر نهراً نظيره مزدحماً  
 بمراكب الميرة والارزاق والنهر ضيق في تلك النقطة لان فيه جزيرة  
 يدعوها المصريون جزيرة الروضة وهي التي بنى عليها سلطان كل أرض  
 مصر الحالي قلعة العظيمة تجاه مدينة القسطاط وجمال اسوارها وحيطانها  
 الشاهقة العلو المبنية بالحصن مما يجعل لها منظراً مبهجاً من جهة الشاطئ

والسلطان الذي بناها هو السلطان الحالي الملك الصالح ثاني انجال السلطان  
الكامل المشهور بحب النصارى . وذكر ابن حوقل في تاريخه ان الجسر  
المبني على النيل ليصل الفسطاط بالجزيرة ليس طويلاً جداً وعلى الجانب  
الآخر من الجزيرة وهو شاطئها الغربي المعروف بشاطيء الجزيرة جسر  
آخر يوصل الى بحر الجيزة . ولكن الناس يعبرون النهر الى شاطيء  
الجزيرة او شاطيء الفسطاط بمواشيمهم بواسطة القوارب لان ذينك  
الجسرين مخصصان لمرور السلطان وحاشيته وخواص القوم لوقوعهما امام  
القلعة ولا يتجاسر أحد ان يمر وهو راكب حصاناً على الجسر الكائن  
بين الجزيرة والفسطاط بدون ان يؤدي واجبات التعظيم والاحترام  
لمسكن السلطان . وقد مضينا تلك الليلة في غرفة عالية مبنية على سطح  
أحد المنازل بجانب النيل

ولم أذق بلساني طول حياتي ماء أحلى من ماء نهر النيل ولم ار قط  
اناساً اكثر تادباً من سكان الفسطاط حتى انهم اكثر أدباً من اخوانهم  
سكان القاهرة التي تبعد عنهم نحو ميلين . وخلاصة القول ان سكان  
الفسطاط في اعظم درجات الرقة والآدب في احوالهم العمومية ولكن  
تحت تلك المظاهر السطحية يختفي كثير من العوائد الذميمة منها المداهنة  
والتمليق وعدم الاعتناء بشؤون الآخرين وقلة مراعاة الصداقة القديمة  
مع الناس وعدم الثبات في المباحث الاجتماعية وقتاً طويلاً وغير ذلك  
كثير مما يطول شرحه . اما البضائع الواردة الى الفسطاط عن طريق

اسكندريه وبحر الحجاز (أي البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر)  
فكثيرة جداً تفوق الوصف . لان هذه الميناهي المرفاء الوحيد للبلاد  
المصرية التي تجتمع فيها كل الارزاق وليس في القاهرة . ومن مرفاء  
الفسطاط تصدر الارزاق الى جميع انحاء القطر . ورأيت في الفسطاط  
معامل السكر والصابون ومعامل اخرى كثيرة مثلها فالفسطاط اذاً مدينة  
صناعية تجارية عظيمة اما القاهرة فبنيت لغرض عسكري شيئاً فشيئاً . ففيها  
القشلاقات العظيمة . والاستعدادات الحربية فيها اعظم منظراً من التي  
بالفسطاط وتمتاز القاهرة ايضاً عن الفسطاط بالصناعة الدقيقة ففيها اصحاب  
الانوال ونساجو الاقمشة القطنية والحربية وفيها الصياغون وغيرهم من ذوي  
الصنائع الملوكية الفاخرة . وفي الفسطاط كثير من آثار الخرائب والدمار  
بعكس القاهرة فانها احسن منها تنظيمًا وعمراً واكثر منها سكاناً وعلى  
ظني ان السكان لم يزدحم فيها الا لان السلطان حول مسكنه من الفسطاط  
اليها واتخذها مقراً له . ولكنه لغاية يومنا هذا ( أي في سنة ١٢٤٥ مسيحية )  
لم تزل ايات وروح الاصلاح والتنظيم تنمو اكثر فاكثر في الفسطاط  
لاقترابها من الجزيرة الصلاحية ( جزيرة الروضة ) ونقل اليها كثير من  
جيوش السلطان ليكونوا على مقربة من تأديته واجباتهم وتعظيمهم له  
واستخدم السلطان كثيراً من جنوده في بناء الاسوار الطويلة والقصور  
العظيمة التي تسر كل من رآها



## الفصل الثامن والخمسون

القديس لويس في مصر

سنة ١٢٤٥ مسيحية و٩٦١ للشهدا و٦٤٣ للهجرة

لما ثبت قدم الملك الصالح في مصر وخلال له الجوبعد أن أهلك  
الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه وولي المخلصين اليه مكانهم  
وعزل الملك الجواد يونس من امارته وطرده من مصر اغتاض منه يونس  
فالتجأ الى الصليبيين فقبلوه لانه كان ذا ثروة واسعة فاغتموا تلك الفرصة  
للاتحاد بواسطته مع امراء سورية على اخذ اورشليم وعسقلان في نظير  
محاربتهم الملك الصالح في مصر

وكان الافرنج قد خجلوا لكثرة فشلهم امام الجيوش الاسلامية  
فعرزموا في سنة ١٢٤٥ مسيحية على تأليف حملة قوية للاغارة على المسلمين  
وكانت هذه هي الحملة السابعة من نوعها واقروا على أن الذي يتأس  
هذه الحملة هو ملك فرنسا لويس التاسع فتألفت هذه الحملة من خمسين  
الف مقاتل واتوا بكثير من الاسلحة والذخائر وباسطول عظيم ومراكب  
كثيرة تحمل الميرة والذخيرة واختار الملك لويس لتلك الحملة امهرواشهر  
قواد اوربا في الفنون العسكرية وتأهبوا للهجوم على مصر

وكان الملك الصالح مشغولاً في محاربة امراء سوريا الذين اتحدوا  
مع رجال الصليبيين هناك على سلخ سوريا من يده فبعد ان ارسل اليهم

الخوارزميين وهزموهم واسترجعوا منهم غزوة وبيت المقدس ودمشق  
 كل ذلك رغماً عن النجدات التي ارسلها من مصر . ولكن امير حمص بقي  
 يدافع دفاعاً شديداً ولم يخضع كباقي الامراء فضجر الملك الصالح من طول  
 المحاربات والتزم ان يسير بنفسه لقيادة جنده بعد ان ظل سنتين كاملتين  
 في ارسال النجدات . فقام سلطان مصر - المعروف بسلطان بايلون  
 - ومعه جند عظيم سنة ١٢٤٨ مسيحية لقهر أمير حمص - فوصل الى  
 دمشق ولكن فاجأه هناك مرض ثقيل وهو ناسور في اليديه افتتح وعسر  
 برؤوه واصيب بقرح في صدره فلزم الفراش فلما علم وهو مريض  
 بعزم الصليبيين في اوربا على مهاجمة مصر بقيادة القديس لويس التاسع ملك  
 فرنسا . وعرف بقرب قدومهم الى الديار المصرية لم يسعه الا مبارحة  
 دمشق في الحال فسار في مخفة ووصل الى مصر ونزل في اشمون طناح  
 في محرم سنة ٦٤٧ هـ الموافقة سنة ١٢٤٩ مسيحية . ثم امر وهو على فراشه  
 بجمع كثير من الميرة والذخيرة والآلات القتال في مدينة دمياط خوفاً من  
 ان يقع فيها ما وقع على عهد أييه من أنواع الحصار الشديد . ثم جمع كثيرين  
 من عربان بني كنانة وجعلهم وراء متاريس المدينة التي عهد بقيادة حاميتها  
 المنظمة من جيشه الى الامير نغر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ . وفي  
 ٢٠ صفر من سنة ٦٤٧ هـ وصلت اساطيل الصليبيين الى دمياط فانزل  
 الملك لويس جنوده وعسكر على شاطئ البحر وقبل ان يتقدم الى ضرب  
 المدينة بعث كتاباً الى الملك الصالح هذا نصه « باسم الاب والابن والروح

القدس الاله الواحد امين

( اما بعد . فانه لم يخف عليك اني امين الامة العيسوية كما انك انت  
 أيضاً امين الامة المحمدية وانت تعرف اهل جزائر الاندلس وما يحملونه  
 الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال  
 ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخفي منهم الديار . وها قدأبدينا  
 لك ما فيه الكفاية وبذلنا لك النصح الى النهاية . فلو حلفت لي باغلاظ  
 الاقسام وادخلت علي القسوس والرهبان . وحملت قدامي الشمع طاعة  
 للصلبان لكنت واصلا اليك وقاتلك في اعز البقاع اليك . فاما ان  
 تكون البلاد لي واما ان تكون البلاد لك وقد عرفتك وحذرتك من  
 عساكر تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك  
 باسياف القضاء ) فلما قرأ هذا الكتاب على الملك الصالح وقد اشتد به  
 المرض بكى ثم امر القاضي بها الدين بكتابة رده فيكتب يقول

( بسم الله الرحمن الرحيم يرسلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله  
 وصحبه اجمعين . أما بعد . فانه وصل الينا كتابك الذي تهددنا فيه  
 بكثرة جيوشك وعدد ابطالك . فنحن ارباب السيوف وما قتل منا  
 فرد الا قام بدله افراد ولا بنى غلينا باغ الا اهلكناه ولو رأيت  
 عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا حصونكم وسواحلكم  
 وتخريننا ديار الاواخر منكم والاوائل لعضضت اصابعك غيظاً وندماً  
 وذات قدمك في يوم أوله لنا وآخره عليك وسيعلم الذين ظلموا أي



منقلب ينقلبون . فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه أول سورة النحل  
 ( أنى أمر الله فلا تستعجلوه ) وتكون على آخر سورة (ص) ( ولتعلمن  
 نأه بعد حين ) ونعود الى قول الله تعالى وهو اصدق القائلين . كم من  
 فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله ولي الصابرين . وقول الحكماء  
 ان الباغي له مصرع . وبنعك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام )  
 ثم قرأ القاضي بهاء الدين زهير بن محمد هذا الكتاب على السلطان  
 وهو في فراشه فشكره على كتابته وختمه وبعث به الى الملك لويس .  
 وفي اليوم التالي حصلت مناوشة بسيطة بين الافرنج وحامية المدينة قتل  
 فيها بعض امراء المسلمين . وقد شاع بين جنود المسلمين وقوادها  
 ان السلطان الصالح حضر من سوريا وهو مريض في حالة الموت  
 فاشتغلت الجنود في من يكون خليفة له حسب العادة ولم يلتفتوا الى الدفاع  
 عن البلاد كما ينبغي الا القليلين منهم وكان من وراء ذلك ان قتل اولئك  
 الامراء في تلك المناوشة البسيطة وعدم معارضة الجيوش الاسلامية  
 جيوش سنت لويس عند نزولهم من البحر الى البر . ولما انس الامير  
 نجر الدين قائد حامية دمياط فتور الجيش فر مساء تلك الليلة وتبعه  
 اعراب بني كنانة فتبعهم الصليبيون ليلاً وهزموهم ولحقوا بجنود  
 السلطان في اشمون . وهكذا تركت الحامية المدينة للاعداء بغير مقاومة  
 فدخلوها بأمان واستولوا على كل ما فيها من المؤن والذخائر والعدد  
 الحربية التي كان جمعها الملك الصالح احتياطاً للحصار الذي كان ينتظره وكان

دخولهم مدينة دمياط في يوم ٢٩ يونيو سنة ١٢٤٩ مسيحية الموافق ٢٢  
 صفر سنة ٦٤٧ هجرية فكان ذلك خسارة على السلطان لا تعوض فاستشاط  
 غضباً وجمع رؤساء بني كنانة والامير نحر الدين قائد الحامية وعنفهم تعنيفاً  
 شديداً على تركهم المدينة بدون اذنه فاحتج هؤلاء بهروب القائد وهذا  
 لم يمكنه اقامة برهان معقول على هربه فعمد الكامل مجلساً عسكرياً وحكم على  
 أربعة وخمسين من امراء بني كنانة بالاعدام وعاقب القائد نحر الدين بما  
 يستحق من التوبيخ وأمر الملك الصالح امرأه بحشد الجنود وعسكر في  
 مدينة المنصورة يوم ٢٤ صفر وحصن تلك المدينة تحصيناً عظيماً ليصد  
 الافرنج عن القدوم اليها من طريق النيل . ولكن لشدة تأثره وحزنه  
 الشديد على خسارته العظيمة في دمياط اشتد عليه المرض فأصيب بحمى  
 شديدة فتوفاه الله في ١٤ شعبان سنة ٦٤٧ هـ الموافق أوائل نوفمبر  
 سنة ١٢٤٩ م وعمره أربعون سنة وكانت تلك الخسارة الحربية في دمياط  
 محققة لما كان ينتظره رجال جيشه فاشتغلوا في التفكير في من يخلفه  
 اما الصليبيون فبقوا في دمياط أربعة أشهر ولم يتقدموا الى داخلية  
 البلاد كما هي عادتهم عند كل فتح وهم لو تقدموا لاكتسحوا المنصورة  
 وما يليها ولكنهم لبثوا يتخاصمون على اقتسام الارض ويشربون كؤوس  
 النسيق والخلاعة اما لويس التاسع فاذا كان ملكاً صالحاً لم يكن فيه من القوة  
 والبطش ما يكفي لردع جيوشه عن غيها بل صرف همه الى زيارة الكنائس  
 وتأييد الانشقاق الذي أوجدته الكنيسة اللاتينية سنة ١٢١٩ أي قبل

ذلك الوقت بثلاثين سنة وهو اقامتها بطريرك كاثوليكي جديد على مدينة  
دمياط لان نقولا الذي كان بطريركا للكنيسة اليونانية المصرية وهو  
صاحب الخطاب المشهور لبابارومية المدعو هورونيوس قد مات في  
تس السنته التي مات فيها كيرلس البطريرك المرذول . ومع انه خلفه  
بطريرك يدعي غريغوري بالاسم الا انه لم يكن يعرف شيئاً عما عمله  
سلفه ولذلك لم يحتج على مشروعات الصليبيين في كنيسته التي أصبحت  
شبه مشنقه

وحضر الكونت پواتير شقيق القديس لويس في شهر نوفمبر من  
أوروبا واتحد مع معسكر الصليبيين وعقد مجلساً مع أخيه الملك ليتشاوروا  
في الزحف على داخلية بلاد مصر ومعرفة ما اذا كان أفضل لهم ان يسيروا  
عن طريق الاسكندرية أو بابلون (القاهرة) فإشار الكونت باغلبية الاصوات  
بتفضيل الهجوم من جهة القاهرة فصادق على ذلك الملك والذين معه  
وتأهبوا للمسير

وكان من جملة جواري الملك الصالح جارية بيضاء محبوبة اليه جداً  
وهي أرمنية الاصل تدعى شجرة الدر وهي والدة غياث الدين توران  
شاه الابن «١» الوحيد للسلطان الصالح الذي رزق به منها لانه لم يرزق  
من نساءه الاخرى سوى فتيات . وكانت شجرة الدر عارفة بأمور

(١) يقول المفريزي في تاريخه أن توران شاه لم يكن ابن السلطان الصالح

حقيقة بل هو ابن احدى نسائه

الحكومة وسياستها اذ شاع ان الملك الصالح عهد اليها بادارة البلاد عدة  
سنوات مدة غيابه في حروب سوريا . فلما ذاق حلاوة الملك وتوفى  
الملك الصالح كتبت خبر وفاته . وصارت تصدر الاوامر باسمه ثم  
تواطأت مع الامير نجر الدين ورئيس الخصيان جمال الدين محسن على  
مبايعة ابنها غياث الدين الذي كان وقتئذ في سوريا ولم يسمع بعد بوفاة  
أبيه . فنجحت في ذلك وتم لها ما أرادت وذلك انها وقفت خطية في  
وسط الامراء والاعيان تقول ان السلطان الملك الصالح بأمرهم ان تبايعوا  
بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين توران شاه . وقد عين الملك الامير  
نجر الدين اتابكا لادارة الاحكام ) . فلم يعد في وسع الامراء والاعيان  
الامبايعة . ثم أرسلت شجرة الدر هذه الاوامر من المنصورة الى القاهرة  
فبايعه من فيها من القواد وأعيان السلطنة وأرسلت الرسائل بنحيم السلطان  
الملك الصالح الى جميع انحاء المملكة . وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح  
لم يزل حيا لما اعتادوه من مشاركة شجرة الدر له في اصدار الاحكام  
والاوامر . ولكن لما علموا باستقدام الملك المعظم غياث الدين بسرعة  
الى القاهرة خامرهم الريب في ذلك

كل ذلك تم والصليبيون باقين في دمياط لاعمحل لهم غير التلذذ  
بالشهوات والملاهي في حين كان المماليك والامراء المصريون يواصلون  
المساعي في انتخاب خليفة لهم بعد وفاة السلطان الصالح . وبعد ان فازت  
شجرة الدر بأمنيتها صارت تدبر المملكة بالاتحاد مع الامير نجر الدين

ورئيس الخصيان جمال الدين محسن . وصارت تصدر الاوامر بتقوية  
 الجيش وحصون الدفاع حتى يصل اليها من سوريا  
 ولما كانت الكسرات المتوالية التي لحقت بالصلبيين في كل حملة  
 جردوها على مصر قد علمتهم الحكمة زحفوا من دمياط الى داخلية  
 البلاد بكل حذر في شهر فبراير سنة ١٢٥٠ مسيحية فوصلوا الى المنصورة  
 وحاربوها بشدة وادهشوا المسلمين بقوة بأسهم حيث قتلوا منهم مقتلة  
 عظيمة وكان المسلمون تحت قيادة الامير نخر الدين خارب ببسالة كلية  
 وساعدته الايات المماليك فقهروا الصليبيين وكان بحر اشمون فاصلاً بين  
 الجيشين فلم يستطع الصليبيون عبوره الى المنصورة اذ لم يكونوا يعرفون  
 طريقاً غير طريق النيل فأتاهم بعض خونة المسلمين ودلوهم على طريق  
 أخرى يسهل منها الوصول اليها . فسارت من فرسانهم سرية وهاجمت المنصورة  
 بغتة وكان الامير نخر الدين في الحمام فلما علم بقدوم الافرنج الى المحلة  
 اندهش ونادي في رجاله وخرج للدفاع فأدركه بعضهم وقتله وكادت  
 الدائرة تدور على المسلمين وانتهت الموقعة بخسارة كبيرة من الفريقين  
 بحيث لم يعد أحدهما بعدها قادراً ان يستأنف القتال . وظل الجيشان يتناوشان  
 حتى وصل الملك الصغير طوران شاه من سوريا فتشدد به عزم المسلمين  
 وهاجموا الافرنج في البر والبحر حتى هزموهم وأسروا منهم ٣٢ مركباً  
 فتضعض الصليبيون بعد ذلك وأضحوا في حالة غير راضية وقد  
 ذكر المؤرخ جو تقييل ما أصابهم يومئذ فقال انهم بعد هذه الكسرة أرسلوا

يطلبون مؤناً وذخائر من دمياط فلم يلب أحد طلبهم ومن ثم علموا ان  
 المسلمين أخذوا قواربهم ومراكبهم الراسية في النهر عند دمياط ونقلوها  
 سرا إلى البر وأنزلوها ثانية إلى النهر بين دمياط والمنصورة. وأهلكوا حامية  
 الذخائر والمؤن التي كانت قادمة من دمياط لنجدة الملك لويس الذي لما  
 عرف كل ذلك أرسل إلى الملك طوران شاه يطلب منه عقد هدنة وبعد  
 ذلك يصطلحان على ان ينسحب من مصر بعد ان يخلي دمياط مقابل أخذ  
 بيت المقدس وضواحيه فلم يقبل المصريون ولا ملكهم بذلك فعزم  
 القديس لويس على التقهر إلى دمياط وكان ذلك في ٢ محرم سنة ٦٤٧ هـ  
 فجمعهم المسلمون وأدركوهم غربي فرسكور وانقضوا عليهم كالبواشق  
 وقتلوا منهم ثلاثين ألفاً حتى امتلأ النيل بجثثهم. ثم أسروا الملك لويس  
 التاسع وحاشيته وضباطه وكبار جيشه وكانوا قد فروا مع ملكهم إلى منية  
 أبي دبد الله وذبح المسلمون منهم المئين ذبح الاغنام لانهم أبوا ان يعتنقوا  
 الاسلام وقطعوا رؤوس بعضهم لهذا الغرض عينه. قال المقرئ في تاريخه ان  
 الذين هلكوا من الفرنسيين مائة الف نفر. وهدد المسلمون الملك لويس  
 وأشرف جنده بالعذاب والموت اذا لم يقبلوا الشروط التي اشترطها  
 عليهم طوران شاه في مقابل اطلاق سراحهم. فلم يقبل الملك لويس  
 بذلك لانه علم انه لا يستطيع ان يقوم بها تماماً. فلما رأى المسلمون انهم  
 لم يجحوا في ذلك استبدلوها بشروط أخرى أخف منها ما لها قبول  
 فكانهم بغدية معقولة. وكانت ملكة فرنسا مقيمة في دمياط وقد وضعت

غلاماً بعد ان سمعت بأسر زوجها القديس لويس يوم أو اثنين فلما استبدل  
 الملك المعظم طوران شاه حكم القتل بالغرامة المالية البالغ قدرها مليون  
 بيزانتا ذهبياً أو ٥٠٠ الف بنتو ذهباً عن أشرف الجيش والتخلي عن  
 مدينة دمياط فدية عن القديس لويس نفسه قبيل ملك فرنسا تلك الشروط  
 فوراً وأرسل الى زوجته في دمياط لتفديه بالمال فاندعش السلطان توران  
 من ذلك كثيراً لانه لم يكن يتوقع من لويس الا المراوغة كما هي عادة  
 أهل الشرق في أنهم يخلفون الوعود ويطيرون اجل المفاوضات في كل  
 مسائل البيع والشراء والفدية والفكاك ونحوها . غير ان الملك لويس لم  
 يدفع كل ذلك المبلغ بل طلب ان يدفع ٤٠٠ الف بيزانت ذهباً والباقي  
 يبادل به الاسرى الذين عنده فقبل السلطان بذلك واستلم مائة الف  
 بيزانت واشترط ان يأخذ الثمائة الف قبل مبارحة الصليبيين لدمياط  
 وعينوا يوم الخروج منها . غير انه قامت في تلك الاثناء ثورة في الجيش  
 المصري فغيرت الاحوال لان ايالات الممالك ساءها الاعتراف بطوران  
 شاه ملكاً وكان معظم الجيش المصري مؤلفاً منها وانما فعلوا ذلك بدعوى  
 انه ينبغي ان تؤول الخلافة الى الاقوي . على ان اوتسك الارقاء الذين  
 لا يعلم لهم أصل أو فرع ولا يعرفون شيئاً من أمور الديناسوى المعسكر  
 الذي يقيمون فيه لم يكن يحق لهم ان يطالبوا بالعرش المصري الذي  
 لا يفقهون له معنى . ولكن شجرة الدر بقوة حكمها وحسن سياستها  
 وبشدة تأثيرها أطفأت نار تلك الثورات والقسم وتغلبت على الجنود

المتمردة قبل ان يشتد لهيبها بل حتى قبل وصول ابنها طوران شاه من  
 سوريا . وبعد وصوله واستلامه مقاليد الاحكام هاج المماليك سخطاً عليه  
 ولم يستطع أحد ان يكبح جماحهم وقد روى بعض المؤرخين ان سبب  
 الخصام انما كان على اقتسام الاموال التي أخذها طوران شاه من الافرنج  
 وذهب آخرون الى انه نجم عن عزله أصحاب النفوذ منهم وتولية آخرين  
 ممن جاؤا بمعيته من بين النهرين اذ كان يثق بهم . وكتب سيوردي  
 جرائق المؤرخ الفرنسي الذي كان معاصراً لطوران شاه يصف تاريخ  
 أواخر حياة ذلك الملك الذي هو آخر سلالة السلطان صلاح الدين .  
 وبعد ان وصف الاستحكامات العظيمة التي بناها السلطان على شاطئ نهر  
 النيل بفرسكور توقعاً للحصار وقت حربه مع الصليبيين وتكلم عن ابراجها  
 الخشبية الثلاثة المكسوة بالقماش التي كان يطلع عليها السلطان ويرى من  
 علوها قوة الاعداء من بعد . وبعد ان ذكر كثيراً عن الضجيج الذي  
 كان يسمع من خارج السرادق عند ما كان السلطان ينادم كبار أمراءه - ابتداءً  
 يتكلم عن أخبار أيامه فقال - ان السلطان الصغير النشيط لما اشم  
 رائحة مؤامرة المماليك عليه هرب في غاية محرم سنة ٦٤٨ هـ الى البرج  
 الذي بناه في فرسكور مع ثلاثة من اخصائه وهم أئمة الدين وكان ذلك البرج  
 مبنياً من خشب فيه غرف ثلاث وهو قائم فوق سطح سرادقه كما تقدم  
 فاجتمع رجال الحرس وعددهم خمسمائة فارس واحتاطوا بالبرج ونادوا  
 عليه ان ينزل فاجابهم بالطاعة بشرط ان لا يتربوا منه فقالوا انك لست



في حصن دمياط ولا بد من نزولك بالقوة ثم سلطوا النار على البرج  
فأشعلته وأحرقته ولم أر ناراً زائدة الاشتمال مثل ناره فلما أخذت  
تتقد في جوانب البرج أسرع السلطان وهرب الى النهر عن طريق  
دمياط - سرى رين الخرس ووضعوا عليه الضرب بسببهم صاروا  
يلقي نفسه الى النهر فهرع اليه أحدهم وطعنه بحربة بين ضلوعه فألقى بنفسه  
الى الماء والحربة مرشوقة في بدنه ففاصوا وراءه في الماء وانتشلوه  
وذبحوه بقرب القارب الذي كنا فيه . ثم تقدم أحد الفرسان المدعو  
فارس الدين عقطاي وشطر الجثة شطرين بسيفه وأخرج قلبه با كفه  
وقطعه أرباً وذهب الى الملك لويس التاسع الذي لم يكن قد فارق مصر  
بعد ويدها ماطختان بالدماء وقال له - ماعساك ياملك الفرنسيس ان  
تكافئني به نظير قتل عدوك الذي لو عاش لما أبقوا على حياتك . أما  
القديس لويس فنظر اليه شرراً ولم يجبه بكلمة اه

وبعد ذلك جاء المماليك الذين تأمروا عليه وحزوا رأسه وأخذوها  
وأسرعوا فقبضوا على أمراء الفرنسيس وأشرفهم وسجنوهم فماد أولئك  
التعماء يتوقعون الذبح عند الصباح . وكان ذلك على وشك الوقوع لولا  
ان المماليك لم يتفقوا على قتلهم لان فريقاً منهم قرر ان يذبحوا اما  
الفريق الآخر فعارض وفضل ان يندوا بالمال . وأخيراً فاز الحزب  
الاخير وكان فوزه من حسن حظ الاسرى فأطلقوا سراحيهم عند الصباح  
وسمحو لهم بالرجوع الى دمياط مقابل دفع باقي الثلاثمائة الف بيزانت

التي وعدوا بدفعها للملك طوران شاه الذي قتل شر قتلة وبموته انقرضت  
 الدولة الايوبية لانه آخر من حكم من تلك العائلة وكان ذلك أيضاً نهاية  
 الحملة الصليبية السابعة أو الفصل السابع من الرواية التي مثلوها في الديار  
 المصرية. ولما قتل الملك المعظم طوران شاه اختلفت الاحزاب في من  
 منهم يكون خليفة له وصار كل واحد من المماليك يرشح نفسه للسلطنة  
 أو يحاول القبض على الاحكام والاستبداد بالسلطة فتفشيت الفوضى وكاد  
 الامر يفضى الى حرب داخلية. فتداركت شجرة الدر الامر بحكمتها  
 واتخذت ذلك التنافر وسيلة الى تسلم عرش الخلافة وما زالت بحسن  
 سياستها تبصر في الامر حتى أدركت ان حزب المماليك أعز جانباً من  
 سواه ولانها كانت من جنسيتهم وافقتهم وقربتهم وكانت هي أول من  
 استلم زمام الاحكام من النساء في الاسلام باقرار الجميع وذلك انها توأمت  
 مع أيك عز الدين وهو أقوى امراء المماليك وأعظمهم بأساً وتقوذاً  
 وكانت بينهما علاقات ودية من أيام الملك الصالح وكان من المتآمرين سرا  
 على قتل ابنها طوران شاه فتمكنت بذلك التواطىء من مبايعة جميع  
 الاعيان لها ولقبت نفسها بعصمة الدين ام خليل ونودي بها ملكة على مصر  
 في ١٠ صفر سنة ٦٤٨ هـ. وكانت توقع على الاوراق باهضاه (ام خليل)  
 ونقشت اسمها على النقود هكذا (المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين  
 والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين). واذا كان أمراء المماليك  
 حائزين صفات الشجاعة الاديبة مخلصين للمائلة الحاكمة وذوى شهامة

عربية وفروسيه زائدة أصلحوا شؤون مصر فاعتزت على يدهم غير أنهم لم يكونوا ذوي حكمة ودهاء ولذلك مقتهم المسلمون فلم يبق تفويض في مصر الا ثلاث شهور فقط . واتخبت شجرة الدر أعظم الأمراء المماليك ابيك عز الدين وعينته أتباكها (أي رئيس الوزراء) وهو كما تقدم صاحب اليد الطولي في اعتلائها الى عرش السلطنة المصرية . وفي ذلك الوقت القصير التفتت الى متابعة الحرب مع الفرنسيين فلما طردتهم من البلاد أصلحت نظام الحكومة وخففت الضرائب عن عاتق الاهالي ثم تحجبت الى أرباب الدولة ووجهاء البلاد وجذبت قلوبهم اليها فرضوا عنها وخلمت عليهم الخلع الثمينه وأنعمت عليهم بالرتب والمناصب العالية . لكن لسوء حظها حالت عوائد الاسلام دون مطامعها في العظمة ودوام ملكها اذ لما سمع أهالي سوريا وبعداد بارتقاءها الى سرير المملكة المصرية خرجوا عن طاعتها وقابلوا صنيع امراء مصر الذين اتخبوها بكل سداجة ودهشة وغيظ وحنق وكتبوا الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في أمر هذه الملكة . فكتب الى امراء مصر وسوريا يقول « اذا لم يكن بينكم رجل يصلح للسلطنة المصرية اقدم انيكم فأقيم عليكم من يحكم فيكم اما قرأتم ما قاله النبي صلعم عليهن « الويل للامه التي تحكمها امرأة » فاعملوا بحديثه ان كنتم مؤمنين »

فلما وصلت تلك الفتوى الى دمشق ثار أهلها وشقوا عصا الطاعة على شجرة الدر وبايعوا الملك ناصر يوسف الايوبي - الطاز حلب وتبعها

باقي المستعمرات المصرية في سوريا فتمتوا كل من كان موالياً لشجرة  
 الدر واستمسك أيضاً امرأ مصر بهذه الفتوى واجبروا الملكة التي كانوا  
 حلقوا لها يمين الطاعة بالتنازل عن الملك وحصل خصام بين مماليك سوريا  
 وممالك مصر بسب ذلك فاتت عز الدين امك وهو نصه شجرة الدر  
 واتبكها هذا الاتقسام وتحول عن صداقتها وصار يستميل الافكار اليه  
 فلما استقالت شجرة الدر انتخبه الامراء سلطاناً على مصر وبويع سنة  
 ٦٤٨ هـ ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالح وتزوج في الحال  
 بشجرة الدر فاحسن بذلك صنفاً لانه باقترانه بها عزز مركزه واجتذب  
 اليه رجال حزبها وكان انتقال الملك من شجرة الدر الى عز الدين اسماً لا  
 فعلاً لاتها لما كانت هي الملكة كانت تدبر الامور بمشورته فلما اصبح  
 هو الملك وقد تزوجها فاصبح الامر بيدها كما كان من ذي قبل وبعد  
 ذلك اتقسم المماليك الى حزبين احدهما حزب المعزين نسبة الى الملك  
 المعز اييك والآخر حزب الصالحين نسبة الى الصالح نجم الدين .  
 وتمتاز الحزبان النفوذ فتماز حزب الصالحين وارغموا الملك المعز اييك  
 ان يبايع حفيد السلطان الكامل . وهو فتى دون الثامنة وكان اسمه موسى  
 مظفر الدين بن يوسف وكان ملكاً على اليمن فرأى الامز اييك ان الحكمة  
 تقضي عليه الخضوع لمطالب الحزب الاقوى فبايعه مع القوم في ٥ جماد  
 اول ولقبوه بالملك الاشرف وتعين المعز اييك اتابكاً له فبنيت مقاليد  
 الاحكام بيده وما كان الاشرف الا ملكاً بالاسم ولم يربح هذا الغلام

المسكين من ذلك العرش الوهمي الاموته موتاً شنيعاً اذ قبض عليه  
 المعز اييك والقاد في سجن مظلم في القلعة فمات فيه تعيساً بعد ان حكم  
 بالاسم سنة وشهوراً وكان يخطب له وللمعز اييك معاً في الجوامع وهو  
 من الائمة وكان وكان الملك الاشرف اخذ من حكمه من الائمة  
 الايوبية وبموته انقرضت تلك العائلة بتمامها وسيأتي في الفصل القادم بيان  
 اسباب القبض على الاشرف.

## الفصل التاسع والخمسون

مصر ملكة مسلمة

سنة ١٢٥٠ مسيحية و٩٦٦ هجرية و٦٤٩ للشهداء

كان المسلمون من ترك وشرب اعظم تجار الرقيق في العالم من عهد  
 ما قضي خلفاء محمد علي تمدن الشرق القديم . وكانت تجارة الرقيق  
 معروفة من بدء عصر التاريخ وكان معظمه من اسرى الحروب الذين  
 كانوا يباعون كالسلع او كالانعام فكان اولئك الارقاء يخدمون الخدمة  
 المنزلية . وقد كان الرقيق معروفاً من عهد قديم فورد في التوراه ذكر  
 جارية ابراهيم الخليل وغير ذلك كثير من الشواهد التي تدل على وجود  
 الرق والنخاسة . وكانت مسألة الاسترقاق في تلك العصور الاولى عبارة  
 عن سيادة احد الموالى على العبد فيكون العبد مسؤولاً لمولاه وواقعاً  
 تحت طائله عقابه في حالة عدم الخضوع له وكان للعبد بمقتضى قوانين

بعض الشعوب القديمة حقوق مرعية لدى سيده ومالكه ولم يكن ينكر تلك الحقوق الا السادة الظلمة العتاة . وكان للعبد عند العبرانيين الحق الصراح في ان يطلب العتق من سيده بعد ان يقضي في خدمته سبع سنوات غير ان عتقه كان يتوقف على حسن سلوكه لا على مرام سيده . اما الرق في الاسلام فهو ان يكون العبد بمنزلة متاع او ملك فلم يكن يعتبر عندهم الا نظير حيوان خلق لقضاء الاعمال وحمل الاثقال وقد اصبح من المؤكد ان متاجرة العرب بالرق كانت سبباً في هدم صروح الممالك المسيحية في السودان والقضاء على قوتها الادبية وتصيرها لقمة سائغة لافواه المسلمين وتنتج عن تجارة الاتراك بالرق وجود تلك المظالم الفظيعة التي حلت بمصر وجعلت البلاد تنوء بثقل المظالم كل تلك القرون الماضية وبسبب اولئك المماليك سقطت الدولة الفاطمية من عالي مجدها الى الدرك الاسفل ذلك لان القوتين اللتين تتألف منهما قوة الحكومة واعني بهما جيش الاتراك الاحرار وجيش العبيد السود كانا في شجار دائم وخصام عنيف ولما رأى السلطان صلاح الدين الايوبي اباء الاتراك والعرب كليهما الخضوع للقوة التأديبية النظامية التي كان يرى ضرورتها وقتئذ لتأليف جيش حقيقي منظم يرفع شأن مصر ويرهب الاعداء اضطر ان يزيد في عدد جيوش السودانيين . ولما لم يمكنه ان يجند منهم العدد الكافي الذي يلزم لاتمام اغراضه من غير ان يفتح السودان ويستخدم رجاله الاشداء وحيث انه رأى ان دون ذلك صعوبة

كبري عمد الى الحيلة بان اتفق مع تجار الرقيق الذين يقطنون الاقاليم  
 الجبلية النكاثرة في شمال وشرقي اوروبا بان يشتري منهم كل الاولاد  
 الذين يليقون للخدمة العسكرية ممن يختطفونهم باساليب الخداع او  
 يشترونهم من السبابة فاجتمع لدى صلاح الدين خلق كثير من الرقيق  
 الابيض مرينهم على الجنديّة ودرّبهم في الديانة الاسلاميّة فشبوا يجهلون  
 والديهم ومواطنهم وكان كل ما طبعوا عليه هو الطاعة للتماند الذي يتولى  
 قيادتهم وسار خلفاء صلاح الدين على تلك الخطة فاصبح كل الجيش  
 المصري من ذلك الرقيق الاوروبي. وكانوا ينقسمون الى آلايات وكل  
 آلاي يمتاز عن الآخر بعلامة مخصوصة في لباس كل جندي منه. ولم تكن  
 الآلايات تخضع لناوس او قانون ولم تعرف الا الطاعة لاميرها الذي  
 كان في بادئ الامر تركياً او عربياً من عائلة عربتة في الحسب والنسب  
 وبعد ذلك كان المماليك اتسهم يتولون انتخاب الامير. وكان اخر من  
 اكثر من ايجاد المماليك في مصر الملك الصالح فانه اشترى منهم كثيرين  
 للخدمة وجعل منهم القاد خدمته وكان من مماليكه امراء الدولة والحجاب  
 ولهم تلامات خصوصية على ثيابهم وأسلحتهم فبعضهم كانت لهم علامة  
 الورد والبعض الاخر اشكال من الطيور وكانوا يتمنطون بمناطق جميلة  
 مختلفة الالوان فلما كثروا في البلاد المصرية اصبحت مصالح الدولة في يد  
 الامراء منهم وأمنع الحصون في قبضة الجيش الذي يتألف منهم شعروا  
 بالقوة التي لهم واصبحوا ظالمين في الاحكام ولما ضاقت بهم القلاع

والحصون ابتنوا بأمر الملك الصالح حصوناً وثكنات جديدة نفيسة  
 البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضة قرب المقياس. وبما أن النيل هناك  
 يتفرع الى فرعين على جانبي الجزيرة فقد زاد هذا المركز الطبيعي الجميل  
 الكائنات النباتية التي كانت تلك الثكنات المركز السري للمالكيين  
 قائمة على جزيرة في النهر أو (البحر) كما كانت تدعى هذه النقطة من  
 النيل لعظم اتساعها سمي أو تلك الممالك بالممالك البحرية. ومنها اسم  
 دولتهم التي تمتاز عن الدوله الاخرى المعروفة بدولة الممالك الشراكسة  
 وكانت سطوة الممالك البحرية زدادا أكثر فأكثر حتى طمعوا بخلع  
 السلطان وتولي ادارة مصر مكانه وكان ماتم من أمرهم بسعيهم في قتل  
 الملك المعظم كما تقدم في الفصل السابق

ولم يهدأ لهم بال حتى تبوأ عميدهم عرش الخلافة المصرية وهو أيبك  
 عز الدين زوج شجرة الدر التي تنازلت عن الملك له اضطراراً كما تقدم  
 وأصبح سلطان مصر الجديد مملوكاً تركياً يسير في كل اموره بمشورة  
 زوجته فأحسن ادارة البلاد المصرية بارشادها. أما سلطان دمشق بسوريا  
 الذي كان من عائلة صلاح الدين ويدعى ناصر الدين يوسف فإنه  
 ابي الاعتراف به سلطاناً على مصر وقال ان لا فرق بين ان يحكم مصر  
 امرأة وبين أن يحكمها مملوك تركي ونهض للاخذ بثار الملك المعظم.  
 فاتفق مع امراء العائلة الايوبية على الفتك بالممالك وفاوض القديس  
 لويس التاسع ملك فرنسا وعقد معه معاهدة حبية وكان لويس وقتئذ مقبلاً



في عكا بعد مبارحته البلاد المصرية . وخلاصة تلك المعاهدة انه يقوم  
 معه لمحاربة المماليك بمصر ويرد له مقابل تلك المساعدة بيت القدس .  
 ولما صادق الطرفان على تلك المعاهدة ارسل ملك الفرنسيس راهباً الى  
 ناصر الدين يوسف سلطان دمشق ليوقع على المعاهدة باسم الملك فلما  
 تم له ذلك ارسل الى ممالك مصر مندوباً يطلب منهم التعويض عن نكث  
 المعاهدة التي عقدها مؤخرًا مع الصليبيين

ولما لاحظ أيبك عز الدين سلطان مصر ان المعاهدة التي تمت بين  
 سلطان دمشق والفرنساويين تأتي بالوبال عليه وعلى المماليك ولما كان  
 الصالح لهم أن يتفقوا مع الصليبيين على سلطان دمشق اسرع الى عرقة  
 تلك المعاهدة وتمكن بدهائه من استمالة الصليبيين اليه ثانياً وجدد المعاهدة  
 بينهم وبينه وحل هو محل سلطان دمشق وكانت شروط المعاهدة بينه وبين  
 فرنساويين هو ان يجيب كل مطالبهم وأتم تلك المطالب التي اقترحتها  
 القديس لويس هي

أولاً — التنازل عن نصف القدية المالية وقدرها مائتان الف دينار كان  
 تعهد الصليبيون بدفعها بتمتضي معاهدة المنصورة

ثانياً — ان يرد المماليك للصليبيين النصف الاول من تلك القدية  
 الذي دفعه القديس لويس في اسره بعد واقعة فرسكور

ثالثاً — اعادة الاسرى المسيحيين الى عكا

رابعاً — اعادة كل الاولاد الذين وقعوا اسرى في الحرب الاخيرة

واجبرهم المسلمون على اعتناق الديانة الاسلامية

خامساً - ازال رؤوس الصليبيين التي كانت معلقة على متاريس  
 واسوار القاهرة ودفنها بالاحترام والوقار فقبل المماليك البحرية بكل تلك  
 الشرط وكتب السلطان أيبك عز الدين للملك فرنسيس بقبولها وتنفيذها  
 واهداه فوق ذلك فيلاً جميلاً وكان هذا اول فيل ارسل لفرنسا وأول  
 فيل رآه الفرنسيون في بلادهم ووعدده ايضاً انه اذا قلب على سلطان  
 دمشق يعيد بيت المقدس للصليبيين . وبهذا استراح بال أيبك والمماليك  
 وزالت مخاوفهم من تعصب الفرنسيين واتراك دمشق عليهم . ولما علم  
 سلطان دمشق بذلك ارسل عشرين الف مقاتل لتحويل دون اتحاد جيوش  
 المصريين مع جيوش الصليبيين على محاربه فعمرت تلك القوة بالجنود  
 المصرية في غزة قبل ان تنضم الى جنود الصليبيين فاثخنوهم وارجعوهم  
 الى الصاحية

فعاد السلطان ايبك وشدد عزيمته بنجدة الفارس اقطاي صاحب  
 الضربة الاخيرة في مقتل طوران شاه واقضوا على السوريين فاعادوهم  
 على اعقابهم الى سوريا مخذولين . فتشددوا هناك واعادوا الكرة على  
 مصر بمدد كبير تحت قيادة حاكم دمشق شمس الدين لولو وسار سلطان  
 دمشق نفسه مع هذه الحملة فالتقوا بالمماليك تحت قيادة ايبك والفارس  
 اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ هـ في العباسية وتقاتل الفريقان  
 فانهزم المماليك وعتبهم السوريون لكن لم يتقهروا ايبك واطقاي الى مصر

بل عرجا على سوريا بفرسانهم فالتقيا بشمس الدين لولو فقتلاه وشتت  
رجالته ثم هاجم سلطان دمشق في معسكره وكان معه شرذمة قليلة من الجنود  
لان جيشه تعقب جنود المماليك الى مصر فاضطر الى الفرار بنفسه ولما  
لم يدركه عادا الى مصر واذت قد دخلت الجنود السورية في القاهرة  
فرايا اهلها المصريين قد اتهموا فرصة دخول الجنود السورية الى  
بلادهم وضمنوا ان الناصر سلطان دمشق فشتوا بالمماليك وزعموا انهم  
تخلصوا من نيرهم وبايعوا ناصر الدين سلطان دمشق وخطبوا له في  
الجوامع ولكن ما علم ان انجحت الحقيقة للمصريين وعلموا ان الناصر  
للمماليك فابطلوا المبايعة . ولما رأى ناصر الدين عجزه عن مقاومة المماليك  
صالحهم واعطاهم غزة واورشليم واتفق معهم على محاربة الصليبيين وكان  
ربحه من كل هذه الحرب والتدابير فساد معاهدة الصليبيين مع  
المماليك عليه

وخاف المماليك من رجوع الصليبيين الى مصر عن طريق دمياط  
فخربوها وابتدأوا بهدم اسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ فحوا  
آثارها بالكفاية واما المدينة الباقية للآن فبينة على انقراض تلك القاهرة  
ومصر العتيقة وبعدها بقليل لما رأى ان الفارس اقطاي اصبح معظماً من  
المصريين لبسالته في الحروب خاف مزاحمته له في الملك فخذعه وقتله  
غدرًا وهو داخل سراي القلعة بعد ان قفل ابوابها ولما جاء اعوانه  
يسألون عنه ظنوا منهم ان السلطان ابيك قتله رمى لهم رأسه من أعلى سور

القلعة . فارتاعوا لمقتله وفروا الى سوريا وسجن اييك من بقي منهم . ولما  
 تخلص من طائفة الصالحين اعوان اقطاي (١) وهم اقوى حزب معادل  
 قبض على الملك الاشرف الحديث السن خوفاً من مزاحمته له في الملك  
 والقاء في سجن مظلم فمات فيه تبيساً بعد ان حكم ١٣ شهراً وهو آخر من  
 حكم مصر من الايوبيين

وكان احد نظار دواوين الحكومة المصرية وقتئذ رجلاً قبطياً  
 يدعى شرف الدين هبة الله بن صاعد القانزي كان قد تظاهر بالاسلام  
 من ايام الملك الكامل وكان كاتباً بسيطاً ارتقى بمجده حتى صار طبيباً  
 للسلطان الايوبي الخامس ثم تدرج من الطب الى السياسة فاصبح مشهوراً  
 بالطب والسياسة معاً وبمهارته في الفنون السياسية صار ناظراً لاحدى  
 نظارات الحكومة فلما اصبح وزيراً فرض الضرائب على الموسرين  
 واصحاب العقاقير ورتب مكوساً وضمانات دعيت حقوقاً ومعاملات وهو

(١) كتب المقرئ في تاريخه عند مقتل الفارس اقطاي وعن فرار اعوانه

قصة غريبة قال -

لما عظم الفارس اقطاي في عيون المصريين لما اظهره من الشجاعة والاقدام في  
 حربه الاخيرة مع السوريين لقبه اعوانه بالملك واقتربوا باخت انصور سلطان  
 حماة واسكنها في قلعة مصر لاتصال نسبها بالعائلة الموكية . فخاف اييك من  
 انتشار نفوذ اقطاي وخشي منازعته الملك فسمى للتخلص منه وكان اقطاي زعيماً لحزب  
 المماليك الصالحين فعرزه رجال حزبه واشركوه في الملك مع الملك الاشرف  
 فرقى كثيرين منهم . ولما قتل اييك الفارس اقطاي داخل القلعة خشي الوقوع في

اول قبطي ولي الوزارة على عهد الاسلام فلما ظل حافظاً مركزه بحسن سياسته مال اليه الملك ابيك عز الدين فرقاها الى رياسة الوزارة واصبح صدره الاعظم . وظن ابيك انه خلاله الجو بعد تخلصه من الامراء الصالحين ولم يدر ان زوجته شجرة الدر واقفه له بالمرصاد ولا يعلم ان

شراعماله فقتل ابوابها وابواب المدينة ولبث يتوقع الحوادث فلم يتمض برهة حتى تجمهر الامراء الصالحيون اعوان اقطاي تحت رياسة بيبرس وطلبوا زعيمهم ظناً منهم ان الملك ابيك أسره في القلعة فألقى اليهم رأسه من فوق سور القلعة فلما علموا بقتله ارتعدت فرائصهم وهما الى الفرار من باب القراطين الى سوريا وكانوا اثني عشر مملوكة وكانت طريقة فرارهم مستغربة جدا ذلك أنهم قصدوا الفرار الى سوريا من طريق صحراء تيه بني اسرائيل فتاهوا في قفار تلك الصحراء الشاسعة و بعد طوافهم خمسة أيام لا يعلمون الى اين مصيرهم رأوا من بعد باعد مدينة فتبعوها ومشوا اليوم الخامس بنامه نحوها وفي صباح اليوم السادس وصلوا تلك المدينة ودخلوها فوجدوها قفراء خالية من السكان ومنازلها مبنية بالرخام الاخضر الصلد والرمال التي قدفتها الرياح تملأ شوارعها الساكنة وبيوتها الخاوية ووجدوا بعض ملابس في احدى دكاكين تلك الشوارع فلما لمسوها ذابت في أيديهم ونحوت الى تراب ووجدوا في تلك الدكان تسعة قطع ذهب مرسوم عليها بالحفر شكل غزال وسيوف عبرانية فاخذوا تلك القطع ثم حفرها في الارض فانفجر امامهم نبع ماء عذب قراح فكان ذلك عندهم ائمن وأعظم شيء عزوا عليه وقتئذ لكونهم قضوا ستة أيام في حالة الظماء الشديد فشرىوا من ذلك الينبوع ورتبوا أجسادهم منه و بعد ما استراحوا بقية اليوم السادس رحلوا عنها ليلاً فلما أصبح اليوم السابع لقوا جماعة من البدو فدلوم على جهة الكرك حيث استبدلوا من أهاليها التسع قطع ذهبية التي وجدوها في مدينة الرخام الاخضر نقوداً فلما

كان وقوفها له كذلك بسبب غضبها من قساوته وسؤ سياسته معها فتعاديا  
 وهجرته زمناً طويلاً وصارت تعرقل كثيراً من مقاصده ولم يجسر على  
 مقاومتها . فضاقت صدره من هذا التقييد والسلطان في يده وصار يبحث  
 على اية طريقة يتخلص بها من قيودها ومع علمه ان مكابد النساء عظيمه  
 واشد من حيل الرجال فقد ادعى انها عاقراً . واقتنى عليها سراري اخريات  
 فولدت له احداهن ولداً سماه نور علي فلم تبعاً شجرة الدر بذلك ولكنه  
 بلغها بعدئذ انه سيقترن بابنة ملك الدين لولو ملك الموصل فاشتعل قلبها  
 غيرة لعلمها ان تلك الضره الجديدة من بنات الملوك وخافت ان تحل  
 محلها في العظمة لانها تأكدت بالطبع ضياع مجدها وانها لا تكون في المستقبل  
 الزوجه الوحيده المعززه لمن كانت السبب في ارتقائه عرش السلطنة  
 المصرية وقدزادها بأساعدم ولادتها وطول زمن عقمها وارتزاقه بمولود  
 جديد من احدي محظيائه كما تقدم وعتقه تلك المحظيه وجعلها حرة  
 اكراماً لخاطر مولودها . وبسبب عقم شجرة الدر لاحظت انها ملتزمة  
 بحسب الشرع الاسلامي ان تصرح له بالزواج عليها ليرتزق بالاولاد

شاهدوا نقود تلك الجهة استغربوها واكد احدهم انها مضروبه من زمن موسى  
 النبي والح على اصحابها بضرورة تعريفه من اين اتت تلك النقود واخبر الممالك  
 هؤلاء القوم بامر المدينة الصحراويه ثم اتضح للممالك التائبين ان اهل الكرك  
 هم يهود عبرانيون ويعلمون عن وجود تلك المدينة من تقاليدهم الدينية ثم قال  
 لهم اليهود ان هذه المدينة بناها بنو اسرائيل مدة تيبهم اربعين سنة في البريه  
 كما جاء في التوراة

من غيرها . ولكن تمادى ايبك في تعظيم محظيته الحره بعد ولادتها  
 فاراد ان يحتفل بولادتها احتفالاً ملوكياً وكان ينتظر ان يكون ذلك  
 الاحتفال لشجرة الدر زوجته المحلله وليس الضرتها التي سلبت حقوقها  
 الملوكيه بمجرد مجيء المولود في عهد قريب

فلم يكن في وسع شجرة الدر تحمل تلك الاحوال ورؤية تحويل  
 العظمه والمجد الى ضررتها . فطرح كأس غيظها وعلا لهيب غضبها وحنقها  
 على ايبك عز الدين وقصدت التكيل به

فدبرت طريقة لقتله وذلك انه في ٢٣ ربيع اول سنة ٦٥٥ هجرية  
 امرت خمسة من الخصيان البيض ان يخنقوه . فترصدوا له في ذلك اليوم  
 ووثبوا عليه وهو في الحمام وبعض المؤرخين يقول انه بينما كان ماراً  
 بالدهليز السري الى باب الحریم وخنقوه بعامته فارتاح لهيب قلبها  
 بموته واستقدمت في الحال اثنين من الامراء وهما ا كبر الامراء المماليك  
 شأناً بعد ايبك وهما جمال الدين عضو غدى وعز الدين الحلبي وقالت  
 لهما انه مات مصروعاً وطلعتهما على جثته وهي ملقاة على الارض واشاءت  
 ذلك الخبر على الناس وفي انحاء البلاد وقد وهبت نفسها في الحال هي  
 والمملكة ليد هذين الاميرين وازت لهما بخاتم الملك لانهما لم تجسر على تولي  
 الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فرفضوا بغلاظة قبول ذلك  
 الشرف المخطر

وفي الصباح احتاط المماليك حرس ايبك بقصره وطلبوا الانتقام

من قاتله وكان سن ابنه نور الدين علي خمسة عشر سنة فبايعه الامراء  
 المماليك ولقبوه بالملك المنصور وكان اول عمل قام به هو الاتقام لوالدته  
 التي ترملت بقتل والده واستعد للاخذ بثار والده من قاتليه . فقبض على  
 الملكة شجرة الدر التعيسة وسلمها لنساء بلاطه وامرهم بتعذيبها فانقضوا  
 عليها كالوحوش وطفقوا يضربونها على رأسها بالقباقيب الخشبية حتى  
 أماتوها والقوا جثتها في القفار التي تحت القلعة فاكت الكلاب نصفها  
 ولحق الناس النصف الآخر فدفنوه بالقرب من مدفن السيده تقيسه  
 واتفق في ذلك الحين اما سنة ١٢٥٧ او سنة ١٢٥٨ مسجيه ان سقطت  
 احدى المسلات العظيمة الى الارض ولم يزل اثر تلك المسلة باقياً ل لان  
 عند مدينة هليو بوليس القديمة في صحراء الجبل وتلك الجهة معروفه بعين  
 شمس الآن بخط المطريه

ويقلب على الظن ان تلك المسلات العظيمة من صنع المصريين القدماء  
 وعلاوة على متانة بناءها فانها كانت مبطنه من الخارج بطبقة معدنيه سميكه  
 لانه قيل انهم استخرجوا من تلك المسله الساقطه مائتان قنطاراً من  
 النحاس الاحمر ويقول المقريري في تاريخه انهم وجدوا في قبة تلك المسله  
 عشرة الآف قطعة من الذهب الخالص

ولو ان الاقباط لم يتمتعوا بدواعي الراحة والاطمئنان أثناء العشرة  
 سنين الاخيره بعد وفاة كيرلس المرذول لان البلاد عانت متاعب جهه  
 من كثرة تولي الملوك وسرعة قتلهم كما تقدم الا انهم لم يقعوا تحت



اضطهاد رسمي من حكام البلاد لان المماليك كان همهم محصور في نوال  
 الملك و دس الدسائس بشأنه ولم يلتفتوا للاضطهاد الديني وفي اول احكام  
 الملكه شجرة الدر توصلوا لانتخاب بطريك جديد ليشتغل الكرسي  
 المرقسي بعد خلوه سبعة سنوات

فالبطريك الذي انتخبوه بعد كيرلس المرذول هو رجل يدعى  
 اثنا سيوس تم انتخابه سنة ١٢٥٠ مسيحية واول ما تبرع على كرسي الخلافة  
 الرسولية بذل ما في وسعه لاصلاح ما افسده سلفه . والحقيقة التي  
 لا ريب فيها انه شدد وضغط على الاساقفة الذين ارتقوا لتلك الوظيفة  
 الكهنوتية بقوة المال كما كان مذهب كيرلس الوحيد ولم يكن  
 ارتقاؤهم باستحقاق فعاملهم بتساوة عظيمة فن الاقباط من استصوب  
 تلك الصرامة ومنهم من استهجنها وعلى كل فان امر الحبر وهجر الايمان  
 اصبح متوالياً بين هؤلاء الاساقفة والاقباط

ولما قتل ايبك وتولى ابنه نور الدين بدله صادق الامراء على تعيين  
 شرف الدين هبة الله القبطي وصياً عليه ورئيساً لوزرائه كما كان مع ابيه  
 وذلك الرجل اسمه القبطي الاصل تادرس فأصبح تادرس رئيساً للنظار  
 واتبكاً أي وصي الملك ونائبه ومهر داره وطيبه الخاص . فظهر كفاءة  
 تامة لهذا المركز العظيم وذلك المنصب السامي من وجهيه السياسية  
 والطبية . ولما كان قد هجر ديانته المسيحية جاً في العلي وتوصل بذلك لهذا  
 المنصب السامي كان من مبدأه التظاهر بحب المسلمين وكراهته للنصارى

وتعزيزاً لمركزه ومبدأه قد ضغط على اخوانه الاقباط وضاعف الضرائب عليهم وفرض على أشخاصهم مكوساً سنوية ولكن فعله هذا كان خفياً بطرق سياسية ولم يظهر ضغطه عليهم علنية

ولما كان المماليك لا يهتمون بالسلام وتنظيم الحكومة في البلاد وكانوا دائماً في مشاحنات فيما بينهم قامت بعد ذلك الحين بسنة ثورة عظيمة. فظهر شرف الدين (تادرس) في خلال تلك الثورة أكثر إخلاصاً لسيده الارضي الملك نور الدين أكثر من سيده الروحاني البطريك فبذل جهده للدفاع عن الملك ولكن كان كل سعيه بلا جدوى فان احزاباً من المماليك تأمرت على قلب عرش نور الدين فقبضوا على شرف الدين (تادرس) وسجنوه ثم صلبوه على باب القلعة ولا خلاصه في خدمة الملك أقاموا بداه سيف الدين قطوز وهو رئيس حزب الصالحيين زعماء الفارس اقطاعي الذين كانوا فروا بعد مقتلة لسوريا. وكان استلام قطوز لمركز تادرس سلماً للغدر بالملك نور الدين علي اذ أنه لما تبرع في دست الصدارة العظمى استقدم اليه أعوانه المماليك الصالحيين من سوريا وعقد معهم مجلساً أقروا فيه بعدم لياقة الملك نور الدين علي للاحكام بالنسبة لصغر سنه فخلعوه في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٣ هـ بمدان حكم سنتين وبايعوا سيف الدين قطوز بدله. فقبض على نور الدين وأمر بقتله

وكان سيف الدين شريف الاصل من عائلة ملوكية ولقب بالملك المظفر ولما استوى على عرش الملك أمر بردم مصب النيل عند دمياط

ليمنع دخول مراكب الاعداء فيه . وفي خلال ذلك وافاه رسول تترى  
 من قبل هولاء كوك ملك المغول بكتاب هذا نصه (من ملك الملوك الحاكم  
 من الغرب الى الشرق أعظم الخانات هولاء كوك خان ملك المغول حفيد  
 جنكيز خان القائد التتري المهول فاتح الفتوحات الغربية صاحب الجيوش  
 العديدة المستولي على مدينتي الموصل وحلب الفاتح لمدينة بغداد عنوة  
 « سنة ٦٥٦ هـ » قاتل الخليفة المستعصم بالله العباسي الذي سقطت بموته  
 الدولة العباسية ببغداد فتح دمشق وجميع السواحل البحرية - الى أهل  
 مصر - اما بعد فيا أهل مصر لا تلقوا بأنفسكم الى التهلكة بأقدامكم  
 لمحاربتني فان فعلتم فانتم المخدولون فاقتدوا بغيركم من سكان حلب والموصل  
 وسائر البلاد التي فتحها فاسكنوا حتى أدخل بلادكم وأنتم آمنين  
 فارتاع قطوز وارتجف من قراءة هذا الكتاب ولكن شدده مشيروه  
 ورجال جيوشه لانهم كانوا لم يزالوا ثملين بخمرة النصر على الصليبيين فخذ  
 جيشاً عظيماً واستقدم اليه عربان البلاد كلها وشجعهم بتفريقه عليهم مع  
 جيشه ستمائة الف دينار جمعها من زيادة الضرائب على نفوس المصريين  
 وأملاكهم وعقارهم وسار من القاهرة يقود ذلك الجيش بنفسه لملاقاة  
 ذلك الفاتح التتري المهول وكان ذلك في آخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ وقبل  
 ان يلتحم الجيشان بالطريق بلغ هولاء كوك خبر موت ابيه فترك قيادة جيشه  
 لنسيه كتبوغا فقام الحرب بين الطرفين وانجلى الموقعة بقتل كتبوغا  
 وهلاك جيشه البالغ نحو عشرة آلاف من نخبة الفرسان وغنم المصريون

من تلك الموقعة ما يعني كل الشرق وهو آمن مانهيه هولاً كو من فتوحاته  
 ولو لم يمت والد هولاً كو ما كان قد ترجح النصر للمصريين ولكن  
 مصائب قوم عند قوم فوائد . فعاد الملك المظفر (قطوز) ظافراً بجيشه  
 إلى القاهرة ولكن داهمته المنية قبل ان يهنأ بالسعادة . وذلك ان بعض  
 رفاقه تأمروا لقتله فانهزوا فرصة اختلاؤه وراء أرنب كان يصيده في  
 الصحراء اثناء رجوعه حيث كان مغرماً بالصيد وتقدم إليه أحد امرائه  
 المدعو ركن الدين بيبرس البندقداري وتظاهر كأنه يصاخه بعد عودته  
 من الصيد فأمسكه بأحدى يديه بحجة تقبيلها وطعنه بيده الأخرى في  
 قلبه فسقط صريعاً يتخبط بدمه على الأرض وكان ذلك يوم السبت ١٧  
 ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ ومات قطوز بعد ان حكم ١١ شهراً و١٣ يوماً .  
 فلما بلغ الخبر لاتابك قال (من منكم ضربه الضربة الأولى) قال بيبرس  
 إنما هو - قال الاتابك - أنت الحاكم بدله . فبويع بيبرس في الحال  
 ولقب بالملك القاهر وتشأم من ذلك اللقب فابدله بالملك الظاهر - وكانت  
 القابه أيضاً روح الدين - وبيبرس البندقداري (نسبة لسيدته المدعو علاء  
 الدين بندقدار) و ابو الفتوح - والعكي - . وكان هذا الملك أول سلطان  
 مملوك يستحق الاعتبار . وهو خامس مملوك غير شجرة الدر اختلس  
 الملك ونال قوة عظيمة . ارتقى بيبرس الاوربي الاصل الطويل القامة  
 الحسن الطلعة أزرق العينين عرش السلطنة المصرية سنة ١٢٦٠ مسيحية  
 (٦٥٨ هـ) وقد أظهر كفايته للحكام ودل على حبه لرعيته فابطل

الضرائب الباهظة التي ضربها سلفه منها جباية دينار على كل انسان واخذ  
ثلث الشركات الاهلية التي كان يجمع منها ٦٠٠٠ دينار سنويا بحجة تصحيح  
الاملاك وتقويمها . وعدل الضرائب الاعتيادية بطريقة عادلة

واستقبل نجل خليفة بغدادواً كرم وفادته عند التجاءه الى القاهرة  
بعد ان قتل التتر ابيه الظاهر بامر الله . وأعاد الحج من مصر الى مكة  
بعد ان قد كانت اهملت هذه العادة من مصر مدة اثني عشر سنة ولما  
رفض حاكم مكة قبول دخول المصريين للحج وزيارة النبي قام الظاهر  
بيبرس بجيوشه مسرعاً الى تلك المدينة وقتل ذلك الحاكم ووضع يده على  
كل تلك البلاد المحمدية المقدسة وادخلها تحت حيازة المملكة المصرية  
وعاد للقاهرة ظافراً بعد أن زار الكعبة وكساها وكان طريق المصريين  
للحج أن يركبوا النيل من مصر العتيقة حتى يصلوا البحر الاحمر فيعبرونه  
ومنهم يصلون الى مكة . اما السلطان بيبرس فسار اليها براً بجيشه عن طريق  
الريش فسوريا

وفي سنة ١٢٦٢ مسيحية سنة ٦٦٠ هـ أي سنة قدوم نجل الخليفة  
العباسي ومن معه الى مصر حل بها جماعة فظيعة ففتح بيبرس مخازنه  
واهرأه وصار يقيت الآف من الجياع يوماً ولم يكتبف بذلك بل اسرع  
لاستجلاب الاقوات من الخارج واتخذ بلاده في الحال من ذلك  
الخطر المهلك

وبعد زوال الجماعة احتفل بختان نجله باحتفال عظيم - وتصدق في

سبيل الله وشكراً له لمناسبة هذا الختان بان قام بنفقة ختن سماية خمسة واربعين  
 طفلاً من اولاد الفقراء وامر بختهم في يوم ختن ابنه وكساهم بملابس  
 جديدة وعمل لهم موكباً واحتفالاً عظيماً وكان حضور مجل الخليفة العباسي  
 في هذا الاحتفال مما زاده مجداً وبهاء

ولما كان بيبرس مسلماً (١) حقيقياً لم يكن ينتظر منه العطف والميل  
 للاقباط - ولكن لا يعلم أن كان ذلك لدواع سياسية أو لمكائنه من الدين  
 الاسلامي وبخلاف ذلك فانه كان شديد الاحتياج للمال لكثرة حروبها في سوريا  
 وفي ذلك الوقت توفي البطريك اثناسيوس . وكان يوجد اثنان احدهما  
 يدعي يوحنا والآخر غبريال مترشحين للانتخاب للكرسي المرقسي وعدد  
 اصوات متخبيهم في المجمع المقدس كانت متسارية . ولكن اقر الاساقفة

(١) أن بيبرس كان مسلماً تقياً شديد الكره للموبقات ودواعي الفساد فمنع  
 صنع البيزة وقفل معاملها في جميع انحاء مصر وحرم بيعها تجريباً قطعياً وفعل ذلك  
 في كل انواع الخمور وارق الموجود منها في الخانات وابطل المنكرات ومنع  
 الفواحش في مصر والشام وسائر مملكته وحذر النساء من التعرض للبغا ونفى  
 وحبس بعضهن حتى يتزوجون . وكتب بذلك امراً عمومياً يتلى على المنابر وكان  
 عنده طواشياً اسمه شجاع الدين عنبر وهو من اخص امرائه فلما علم انه يشرب  
 الخمر شنقه تحت قلعة الجبل . وكان في ذلك الحين اول عهدا اكتشاف البن وشرب  
 القهوة في بلاد اليمن ولم تدخل القهوة لبلاد الغرب الا بعد ذلك بثلاثة قرون  
 فكثير من المسلمين المتعبدين في مصر وغيرها كانوا يحرمون ذوقها ولمساها ووضعوا  
 البن في مصاف انواع الخمور

في الهيكلية تمييز غبريال على يوحنا فعمد الاخير الى رشوة الحكام المسلمين  
ليعضدوه في امر انتخابه بطريركاً ولما كانت حالة الكنيسة في ذلك الوقت  
في فتور ولم يكن الاساقفة المتخيين ( بكسر الخاء ) ذوي غيرة ووطنية  
صادقة للكنيسة لم يعارضوا في مشروع يوحنا وانتخبوه بطريركاً واحتفلوا  
بتدشينه وحكم الكنيسة نحو سبعة سنوات . ولكن المال الذي دفعه  
يوحنا للحكام المسلمين نظير نواله ذلك المركز لم يكن كافياً ولم يسد مطامعهم  
واتفق حصول حريق عظيمة خربت معظم المدينة فأخذوا المسلمون  
هذه الحادثة علة لاتهم الاقباط انهم المتسببون في حرق المدينة فالزموم  
بدفع خمسين الف دينار فدفع الاقباط هذا المبلغ العظيم باسم اصلاح المدينة  
والحقيقة أن الحكومة صرفت ذلك المال على الحروب التي كان يقيمها ببيرس  
طول مدة حكمه

ولما كان الظاهر ببيرس غائباً في سوريا لمحاربة الترتجاري اساقفة  
الاقباط على عزل البطريرك يوحنا واقاموا بدله غبريال بطريركاً على  
الكنيسة لانه يستحق ذلك المركز نظراً لكفائته الشرعية وأحقية  
بذلك المنصب عن يوحنا بناء على قرارهم في مجلس الانتخاب الاولي . ولما  
رجع ببيرس بعد ذلك بستين من سوريا رفع يوحنا مظلمته اليه واستأنف  
طلب مساعدته وكان عضد يوحنا الوحيد الاقوى هو المال — فاقامه  
بيرس بطريركاً كما كان بالرغم عن معارضة الكنيسة والاساقفة . ولكن  
توفي غبريال سريعاً بعد اقالته وخلا الجو ليوحنا حتى مات . ولكن

الكنيسة القبطية رتبت اسم غبريال في جدول اسماء بطاركتها قبل اسم  
يوحنا اعترافاً منها بما يستحقه غبريال من التعظيم اكثر من يوحنا وذلك  
نظراً لافضلية الاول عن الثاني في المزايا والانتخاب الشرعي القانوني .  
ولما رجع بيبرس من سوريا ظافراً منصوراً قوبل باعظم مظاهر العظمة  
والجلال بالقاهرة فزينوا له المدينة كلها باجمل زينة وفرشوها بالبساط  
والسجاجيد وساروا به في موكب حافل عظيم جداً أيد السلام في جميع  
انحاء القطر السوري بعد أن حارب التتر النازلين فيه وبدد شملهم وصارت  
في حكمه كل مدن بر الاناضول والبلاد التي كانت تحت حيازة الصليبيين  
وبلاد المسلمين العباسيين فاصبحت مملكته عظيمة جداً اذ بعد أن دوخ  
النوبة وبرقه وعمر الحرم النبوي وقبة الصخرة بيت المقدس صارت  
سلطته تشمل على مصر والنوبة وبرقه وسائر سوريا وبر الاناضول وبحيث  
جزيرة العرب . فصاحب تلك الفتوحات العظيمة ليس بعزيز عليه أن  
يقام له مثل ذلك الاحتفال بالقاهرة

وفي سنة بطريكية يوحنا ارسل امبراطور الحبشة اليه يطلب منه  
رسم مطران جديد لمملكته وظهر ليوحنا من خلال مطالعته كتاب (١)  
الامبراطور أن والده (أي والد الامبراطور) قد استقدم اساقفة يونانيين  
من سوريا وانه يرغب اعادة تتبع بلاده تحت سلطة الكنيسة المصرية الدينية

(١) هذه صورة كتاب امبراطور الحبشة الى البطريرك يوحنا

من النجاشي الاكبر ملك ملوك اثيوبيا ، ملك صهيون واسرائيل الجالس على



وبذلت الكنيسة اليونانية حديثاً كل مساعيها لبسط نفوذها في مصر كما فعلت في الحبشة . اذ في السنين الاولى من حكم السلطان بيبرس أرسل له امبراطور القسطنطينية وفداً يطلب منه التصريح بانتخاب بطريك للكنيسة اليونانية في مصر حيث كانت وقتئذ بلا بطريك فأجاب بيبرس هذا الملمس وانتخبوا رجلاً أصله طيب عيون وأرسلوه الى القسطنطينية لسيامته بطريكاً . ولكن لا يعلم شيء في التاريخ عن هذا الرجل حتى ان اسمه اختلف في تدوينه الكتاب والمؤرخون اذ كل مؤرخ كتب اسمه بخلاف ما كتب الآخر

وفي ختام القرن الثالث عشر للمسيح وفي الغالب في زمن حكم الملك

عرش يهوذا أو سليمان . الى قداسة الاب الاقدس البابا يوحنا بطريك الكرسي الاسكندري الذي احببه بالتجمل والوقار اللائقان بخليفة ماري مرقس البشير وانيانوس .

اما بعد فالتمس اصغائكم الى كلامي واجابة طلبي . وهو اني ارغب ان تمدوني بمطران صالح ليعلمني وامتي منه كل ما هو حسن ونافع . واتوسل اليك ايها الاب ان تتبع وصية النبي داود التي وجهها اليك في مزاميره الآية ( يا بني لا تترك خيرا فاك تقع بين مخالب الذئب ) فاننا نكره المطارنة السوريين المقيمين في الحبشة الان كرها شديداً ومن عهد دخول النصرانية الى بلادنا ونحن متبعين وخاضعون لنا موس البطريكخانه المصرية . ولم تعود معاناة الالام زمنا مديداً من ممارسة هؤلاء الغرباء شؤون وظيفتهم الاسقفية يتناولوا ولم يتمتعوا بممارسة مهنتهم بامان تحت حماية والدنا الذي لم يحميهم الا لعدم وجود مطران امامه من لدنك .

سيرس وقع حادث يستدل منه على مقدار احترام وتبجيل الاحباش لبطيريك  
الاقباط بمصر

وتفصيل الخبر - ان تاجراً مصرياً كان قد أرسل مبلغاً وافراً  
من المال لعميله في الحبشة وانفق ان هذا العميل مات فارتبك ذلك  
التاجر ولم يعرف الوسطة التي يتوصل بها لاسترداد ماله . فالتجأ الى  
الساطان وهذا حوله على بطيريك الاقباط . فبث الرجل مظلمته لبطيريك  
الذي يغاب على الظن انه ( يوحنا السابع ) فتأثر البطيريك لامر ذلك  
الرجل ووعده بمساعدته ثم كتب له كتاباً لامبراطور الحبشة يرجوه فيه

لكنت انزلتهم الى الخضيض وطردهم من بلادي فالان ايها الاب الصالح اتوسل  
اليك ان لاتسح بخراب مملكتي التي تحت سلطتك وارسل لنا مطراناً صالحاً  
مدشناً يبركك ويدك الطاهرة حتى ان الرب سيدنا يسوع المسيح يستمطر غيث  
بركاته القدوسه عليك . افكر في القديس مارمرقس البشير وعاملنا بمبدأه فلا  
تتركنا للذناب ولا تعاقبنا لاجل خطايانا . انتخب لنا مطراناً يمثلك في القداسة .  
أو ان كان هذا الامر ليس في يدك فاستأذن من سلطان مصر بذلك . ولما تمنحنا  
هذا الطلب نال منا كل ما هو مرغوب لك . ولا نخف من ان اولئك الاساقفة  
السوريون سيستمرون في ممارسة مهنتهم بين ظهريننا . وهانحن بين يديك اطوع  
لك من ظلك فان امرت بطردهم طردناهم وان شئت ابقاهم فالامر امرك ابقيناهم .  
ولكننا نشعر بعدم رضاك على تصرفنا معهم وسير بعضنا تحت مشورتهم الدينية .  
ولكن نرجو قداستكم التكرم والتنازل بالصفح عن خطانا واغفر لنا خطايانا . وايضاً  
سامح ابناء وطننا العزيز وتحل علينا نعمتك وبركاتك في الحياة والموت

ان يبذل جهده لارجاع انال لصاحبه  
ولما أشيع في بلاد الحبشة ان كتاباً وصل من قداسة البطريك بمصر  
اجتمع كل حكام الاقاليم وهرولوا للاستعداد لاستقبال الكتاب . والذي  
كان يحمل الكتاب اركبه الاحباش هو وأتباعه على ظهور الخيل . وكان  
سكان وحكام البلاد الحبشية التي مرّ عليها ذلك الوفد بالجواب بكر موتهم  
ويضيفونهم ليلاً بمنازلهم و يقيمون لهم ولائم عظيمة حتى وصلوا عاصمة البلاد  
حيث استقبلهم فيها الملك نفسه بكل مظاهر العظمة والجلال وفي يوم الاحد  
احتشد القوم من امبراطورهم لتقيرهم في الكنيسة الكاتدرائية الكبرى وقرأ  
عليهم المطران جواب البطريك واثناء قراءته الجواب كان الامبراطور  
واقفاً متخشعاً عاري الرأس صاغياً بوقار لكل حرف منه . وبعد قراءته  
اصدر امره في الحال باستحضار المال المطلوب للتاجر وسلمه الامبراطور  
بيده لمندوب البطريك الذي جاء يحمل الكتاب وفوق ذلك حمله بالهدايا  
الثمينة وعاد ذلك المندوب ومن معه الى مصر مودعاً من الاحباش بمثل  
ما قوبل به من الحفاوة والاكرام

وبينما كانت افكار السلطان بيبرس وأنظاره متجهة نحو حروبه  
وفتوحاته في سوريا وآسيا الصغرى ( الاناضول ) تصرف ملك النوبة  
تصرفاً غير حميد بارشاد بعض رجاله الغير مخلصين وذلك انه اقدم على  
غزو اقليم اصوان وقام رجال جيشه بتلفيات وأضرار عظيمة في ذلك  
الاقليم فاستجلب بذلك التصرف نظر المماليك اليه . وقام امير قوص في

الحال للانتقام والاخذ بالثأر وجر د حملة قوية وغزا بلاد النوبة وتوغل فيها حتى وصل لجهة اقليم دنقله وصار ينهب البلاد التي يفتحها ويمر عليها في طريقه واسر جملة اشرف نوبيين وبينهم والي اقليم نوبيا الشمالي . ولما رجع بيبرس الى القاهرة بعد أن فتح ارمينيا وقرض الباطنيين وغلب التتر قدم له امراءه هولاء الاشراف الاسرى علامة للظفر وتذكراً لنصرهم بافتتاح النوبة . فعاملهم بيبرس بالقساوه الوحشية المعروفة عن المماليك حيث امر بتقطع جسم كل واحد الى شطرين

وهكذا جاء تصرف داود ملك النوبة وبالأعلى عليه وعلى رجاله . ويظهر أن ذلك الملك كان غير محبوب من شعبه حتى انه في سنة ١٢٧٥ م مسيحية ( ٦٧٤ هـ ) قام شيكندر (١) ابن اخيه الذي كان ولي عهده ووارثه في الملك كاحكام المنظمات النوبية والتجاء الى حكومة السلطان بيبرس وخان ايمانه ونسبه وخان وطنه اياضاً وبلاده للمسلمين وبالطبع سر بيبرس لهذا التقدم وهذه الفرصة المناسبة وارسل جيشاً عظيماً تحت قيادة اثنين من كبار امرائه الفتح النوبة وكان ذلك الغزو بحجة تاييد حقوق الوراثة الى شيكندر في الظاهر ولكن الحقيقة كان الغرض منه ضم بلاد النوبة الى المملكة المصرية . فقابل النوبيون الجيوش المصرية الفاتحة وحاربوها بشجاعة عظيمة لكنهم هزموا اخيراً وتقدم الامراء المصريون بالجيش في انحاء داخلية البلاد وصاروا يقتلون ويأسرون كل من قابلهم في طريقهم والتزم

(١) يحتمل ان هذا الاسم تحريف اسكندر

والي الاقليم الجنوبي انه يخضع ويعترف بشيكندر ملكاً عليه بدل داود  
 وسمح له بادارة حكومة البلاد . وكان داود قد جهز نفسه بجيش عظيم  
 واتى لمقاومة الفاتحين فهزموه واسروا امه واخواته وفر هو من امام  
 العدو ونجا بنفسه . ونودي بشيكندر ملكاً لبلاد النوبة بدل داود بشرط  
 خضوعه للشروط الآتية

اولاً - أن يتنازل لسلطان مصر عن اقليم نوبيا الشمالي ( وهذا  
 الاقليم هو ربع بلاد النوبة والقسم الاعظم خصوبة في كل المملكة النوبية )  
 ثانياً - أن يعيد تقديم الجزية القديمة وهي اربعمائة عبدا وهذه الجزية  
 كانت قد تخلصت منها النوبة منذ اكثر من قرنين وكانت النوبة ترسل  
 سنوياً لسلطان مصر المسلم عوض اوليك العبيد ثلاثة افيال وثلاثة ظرافات .  
 وخمسة نمور مخططة ومائة هجين ومائة ثور

ثالثاً - أن يطلق كل الاسرى الذين اخذهم داود عند حملته حديثاً  
 على اقليم اصوان

رابعاً - أن يرسل لسلطان مصر كل اموال وذخائر ومواشي الملك  
 داود والاشراف الذين ماتوا في الحرب

خامساً - ان يقبل تأسيس وكالة سياسية في دنقله عاصمة البلاد ويقوم  
 فيها النواب المسلمين عن حكومة مصر لمراقبة جمع الجزية المستحقه للسلطان  
 سادساً - ان تهدم الكنيسة التي بناها داود السي السياسة بقوة  
 الرجال المسلمين الذين اسرهم بحملته على اصوان . واخذ الامراء كل

العطايا التي وهبها لها السلطان بعد بنائها وتقدر بثلاثة عشر الف دينار ومن  
 ذلك الحين صار سقوط الممالك المسيحية في السودان الشغل الشاغل  
 والمسئلة الوحيدة في ذلك العصر . كما ان جمع الرقيق للجزية المصرية  
 أوجد الفوضى وفساد نظام الحكومة النوبية واسس الخصومات  
 والحروب المستديمة بين قبائل النوبة ومقاطعاتها ولذا تعسر ايجاد حكومة  
 قوية منظمه في السودان وابتدأت الممالك السودانية تسقط الواحد بعد  
 الآخرى وكان سكان السودان معظمهم اقباط مسيحيون ولولا تلك النخاسه  
 وجمع الرقيق الامر الذي كان سوساً يخر في عظام تلك الممالك اكان ينتظر  
 أن تتحد تلك الممالك المسيحية السودانية ضد المسلمين عوضاً عن ذلك  
 السقوط الابدي لان وقوع القسم الشمالي من النوبة وهو اغنى واخصب  
 اقليم في السودان في يد المسلمين المصريين مما أذهب كل امل بقيام تلك  
 المملكة ثانياً سيما لعدم امكان اخراج المسلمين الذين توغلوا في  
 داخلية البلاد . ولما وضع امراء بييرس بدم على ذلك الاقليم السوداني  
 الجديد عاملوا اهاليه كعادتهم مع اهالي كل بلاد يفتحونها وهو انهم خير وهم  
 بين اعتناق الاسلام أو دفع الجزية أو تجرع كأس الحمام فلختر اهالي  
 اخف الثلاث ويالات وهو دفع الجزية وصار كل ذكر يدفع ضريبة عن  
 نفسه ديناراً واحداً كل سنة . ولم يحتل الجيش المصري مدينة دنقله  
 الا سبعة عشر يوماً فقط اذ بعد أن ام الامراء المعاهدة مع شيكندر  
 ملك النوبة الجديد عادوا بجيشهم الى مصر تحت قيادة الامير اق سنقر .

الفرغني سنة ٥٦٧٤

وفي السنة التالية ترأس بيبرس حملة قوية وقام لسوريا وحارب برقة  
 وافتحها وأتفق عودة التترالى بمض مناوشات على حدود سوريا بقصد  
 افتتاحها فسار بيبرس بنفسه الى حمص لتأديبهم فمات في طريقه شهيد خرافاته  
 وكيفية ذلك انه اتفق خسوف القمر خسوفاً تاماً وكان عامة المصريين  
 والذين يصدقون الخرافات يعتقدون أن ذلك الخسوف دليل على موت  
 امير كبير أو حاكم أو ملك أو سلطان وكان بيبرس يعتقد مثل اعتقادهم .  
 فتوهم أن هذا الحادث يدل على قرب موته ولكنه قال في نفسه ( يجب  
 علي أن اميت من اخشي أن يتولى الحكم بعدي ممن ليسوا على دعواي )  
 فلم يجد امامه الا اميراً صغيراً هو داود ناصر الدين حفيد طوران شاه  
 آخر سلطان كردي من سلالة الايوبيين فظن أن هذا الامير الصغير  
 سيسمه فقصد أن يقلب ذلك التكهن ويندر به ومهد التداير ضد  
 ذلك الشاب التعيس ليموت هو بدله مع انه بريء ولم يوجد اقل برهان  
 أو بينة تدل على انه يقصد قتل بيبرس . فامر بيبرس باستدعائه وملاحظه  
 امامه جالسه ثم ملأ له كأساً من السم الذي كان قد جهزه وامره أن  
 يشربه فشربه المسكين بلاخوف ولا ارتياب وبدون تردد ثم خرج بيبرس  
 من الغرفة وفي اثناء غيابه قليلاً اتفق أن احد خدامه الذي لا يعلم بسر  
 الامر ولا بما فعله سيده ملأ هذا الكأس من مشروب سيده وكان  
 لم يزل اثر السم في الكأس . فعاد السلطان ودخل الى الغرفة ثانياً ولكنه

كان مضطرباً ومتوعكاً من حمى أصابته فتناول ذلك الكأس وشربه ولم يدرك أنه  
الكأس الذي سقى فيه السم لذلك الشاب المسكين واثراً للسم الذي كان في الكأس  
كان كافياً لقتله فسقط الاثنان صريعاً الجهل . ومات الامير ناصر الدين  
وبعد ساعة مات السلطان بيبرس وهكذا راح الامير ان قتيلى الخرافات  
قبحها الله ما أضعف حجتها وما اشد وطأها

وكانت وفاة الملك الظاهر بيبرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ هـ بعد أن  
حكم ١٧ سنة وشهرين وعشرة ايام وترك ثلاثة ذكور وسبع بنات وارشد  
اولاده السعيد محمد برقه خان وهو الذي ورثه في الملك وسلامش  
والمسعود خضر . وعلاوة على فتوحات بيبرس العظيمة في سوريا  
والسودان والاناضول وبحيث جزيرة الرعب فانه قام باصلاحات عديدة  
مهمة في مصر وسوريا لم تزل اثارها للآن تشهد بذلك اجيالا عديدة منها في  
مصر ترميم وتقوية حصون دمياط ورشيد واسكندرية والقاهرة وبناء  
الاهراء والاشوان العظيمة للغلال في القاهرة وبناء وترميم القناطر والجسور  
وتقوية قناطر شبرا منت بالجيزة وترميم منارة رشيد وبناء قناطر السباع  
الممتدة من فم الخليج الى القلعة وفي طرف تلك القناطر من جهة فم الخليج  
السبع سواقي وهي سواق قديمة كان غرضه منها رفع المياه من النيل ليجري  
في قناة فوق القناطر حتى يصل القلعة فيروي من فيها وعلى اطراف تلك  
القناطر آثار تماثيل حجرية بشكل السباع ولذا دعيت القناطر بهذا  
الاسم .

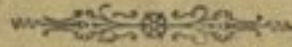


وحفر خليج (١) اسكندرية القديم وبحر اشمون طنح وطرع الترع  
 والخلجان . ورمم واعاد بناء جوامع كثيرة مشهوره وبني ايضا جامعاً  
 جديداً في غاية الاتساع والفخامة في شمال القاهرة في الميدان العظيم  
 الذي في طريق العباسيه ولم يزل للآن هذا الطريق يدعى الداير او  
 الظاهر نسبة الي لقب السلطان بيبرس العظيم . ولما احتل الفرنسيون مصر  
 حولوه الي قلعه من نحو مائة سنة وبعد مبارحة الفرنسيين للبلاد استعملته  
 الحكومة المحليه مركزاً عسكرياً والآن يستعمل مخزناً لادارة الماء كولات  
 والملبوسات المختصة بالجيش الانكليزي واربعه حيطانه الباقية الا ان هي من  
 بناء الظاهر بيبرس ويوجد كثير من النقوش الجميله لم تزل ظاهرة في  
 شبايكه . ولكن ذلك البناء الفخيم فقدت صبغته الدينيه من زمن مديد  
 . وجدد بيبرس ايضا الجامع الازهر واعاد الخطبه فيه . وبني بلدة السعيديه  
 بمديرية الشرقية وكان محباً لركوب الخيل ومغرم بالرياضة البدنيه والتمرينات  
 العسكريه ويتقضي فيها معظم يومه وبني لذلك ميदानاً مخصوصاً بين منزل  
 القلعه وقبة النصر وكانت تفقاته مما يغتمه في حروبه بدون ان يثقل على  
 الاهالي بدرهم

وقد اسس بيبرس مملكته على دعائم قوية واصبح عرشه ثابتاً

(١) قيل ان السلطان ذاته كان يساعد الفعلة هو وكل امرائه تشجيعاً وتنشيطاً  
 لهم في العمل واعطي لهم مثلاً حسناً في خدمة الوطن وعدم تعاضمه في ما يؤول الي  
 الفلاح والنجاح وذلك انه حمل مقطف تراب يديه على مرأى من كل الواقفين  
 مثل الاجير الخفير حياً في نفع وطنه وبلاده

لا ينازعه عليه احداً من المماليك ولذا آل الملك بعده الى ابنه برقه خان  
ولما مات بيبرس خاف الامراء من طمع الاعداء فحملوه سرا الى دمشق  
واشاعوا انه مريض وبعدئذ نقلوه للقاهرة في هودج ورحل معه جيشه  
لمصر ودفنوه في القلعة وبايعوا اكبر اولاده ناصر الدين برقه خان ولكنه بسبب  
تقلبات الظروف لم يدم الا خلاص لعرش انجال الظاهر اذ في بحر ثلاث  
سنوات قتل ولداه اللذين لم ينالا الا لقب سلطات بالاسم وملك  
احد الامراء المماليك المدعو سيف الدين قلاوون الاتفي عرش مصر  
من بعدها



## الفصل الستون

### فتح السودان مرتين

(سنة ١٢٨١ مسيحية و٩٩٧ للهجرة و٦٨١ للشهداء)

بعد أن تولى برقه خان ابن بيبرس زمام السلطنة قام والي دمشق  
وادعي الملك لنفسه فقام برقه خان لاختضاعه فلما وصل بجيشه ونزل  
بالقصر الابلق الذي بناه ابوه الظاهر بيبرس اتضح له أن الثورة قامت  
بتدابير من امرائه فلما عاد لمصر واراد معاقبتهم امتنعوا بالقلعة فتكاثروا  
عليه وحاصروه ولما هموا بقتله منعهم الخليفة العباسي الحاكم بامر الله نخلعوه  
في ربيع اول سنة ٦٧٨ هـ بعد أن حكم مدة سنتين وثلاثة اشهر وحبسوه  
في القلعة ولما عزموا على قتله علم بذلك فسقط من على ظهر جواده ومات

فبايعوا اخاه سلامش وكان سنه سبع سنوات ولقبوه بالملك العادل  
وعين سيف الدين قلاوون الالقي وصيا عليه

فطمحت نفس ذلك الوصي الى الملك واراد خلع ذلك الملك الصغير  
وقد تمكن من تنفيذ بغيته وتفاه بقلعة السكرك واستقل بالاحكام فبايعه  
الامراء ولقبوه بالملك المنصور . وكان ذلك السلطان الجديد مملوكا  
كباقي المماليك لا يعلم له اصل ولا بلد واطلق عليه لقب الالقي لانه لما  
كان مملوكا اشتراه سلطان مصر بالف دينار والستزم كعادة السلاطين  
الذين تقدموه أن يحارب لتأييد سلطته وحقوقه في سوريا ولكن اخمد  
الثورة التي قامت ضده بلا تعب كثير وبعد اخمادها في سنة ١٢٨٢  
مسيحية (٦٨٢ هـ) تفرغ للتداخل في شؤون مصر والسودان ولكن  
كان ذلك التداخل في الاعمال لسؤ حظ اهالي القطرين . وكان الاقباط  
في مدة حكم برقه خان (١) يتألمون من قساوة الاحكام والمعاملة الغير عادلة  
على أن قلاوون وان كان قد عدل الضرائب على رعيته واتبع مبداء المساوة

(١) في سنة ٦٧٨ هجرية رقت كل الموظفين الاقباط في ديوان الحرية وتعين  
بدلهم من المسلمين وكانت مسألة رقت الموظفين الاقباط كلهم صفقة واحدة من  
مرا كز الحكومة يتكرر وقوعها مع كثير من الحكام المسلمين . ولكن دواعي  
الظروف كانت تلجني اولئك الحكام أن يعيدوا هؤلاء الاقباط لوظائفهم ثانياً  
أن عاجلا أو آجلا وانفق أنه يوم صدور الامر برقت الاقباط من ديوان الحرية  
سقط بناء دير الخندق في ضواحي القاهرة فخرج خلق كثير من رعاي المسلمين  
ليكملوا هدمه

بين الاقباط والمسلمين . الا انه اسرع في استئناف التقييدات والمضايقات  
 السخيفة على الاقباط وكانت عادة هؤلاء القوم البؤساء أن يقوموا تحت  
 نير الاضطهاد من المسلمين كل ماغاب السلطان في الحروب مع انه لم  
 يكن احد يستطيع من الحكام أن ينظر في شؤون البلاد الادارية الا  
 الموظفين الدائمين من الاقباط والمسيحيين على وجه العموم اذ لم يكن في  
 رجال الاتراك أو العرب الكفاءة التامة للقيام بهذه المهام ولما استقر  
 المقام في مصر لقلاوون ولم تشغله الحروب الخارجية وتفرغ لشؤون  
 مصر الداخلة كما تقدم تصرف فيها تصرفاً سيئاً اوجب سحق كل المصريين  
 عليه من مسلمين واقباط فاراد ذلك السلطان المملوك كما هي عادة  
 امثاله ان يعطي درساً مؤلماً لرعيته نظير ذلك السخط فاطلق سراح جيشه  
 من المماليك في مدينة القاهرة فعماتوا فيها فساداً ونهباً وقتلا مدة ثلاثة  
 شهور ولم يتخذ الوسائط اللازمة لتمييز البريء من المذنب في هذا الشعب  
 المسكين فاصبحت الشوارع انهاراً تجري فيها الدماء بدل الماء وازدحمت  
 بجثث الرجال والنساء والاطفال واخيرا تعاون علماء المسلمين وتشجعوا  
 على مقابلة السلطان وحذروه بالمواعظ والنواهي الدينية وانذروه بالعقاب  
 الالهي فنجحوا في سعيهم ولم يكتفوا باقناعه بحقن تلك الدماء البريئة بل  
 توصلوا ايضاً الى حمل السلطان قلاوون على التكفير عن ذنوبه فتعهد لهم  
 بان يبني مسجداً ويمارستاناً عظيمة (اي مستشفى يقيم فيه المعتوهون الذين  
 لا يبرأون) وندم ندماً لا مزيد عليه على عسفه واستبداده ولم يبق من

تلك الابنية الى الان الا القبر وبني ابنه الجامع الذي يشغل جزءاً  
 عظيماً من ذلك القبر . ثم أهمل ذلك المستشفى . ولم يبق منه الا بعض  
 خرائب واطلال متداعية للسقوط . فأثار السلطان قلاوون الباقي الى  
 يومنا هذا هي جامع الشهير وفيه مقامه وكلاهما دخل في بنا السمارستان  
 كما تقدم ويراه الذي يمر من شارع النحاسين بالقاهرة بعد ان يبارح خان  
 الخليلي . ومع تبادى الايام وتعاقب السنين فان ابنته لم تزل قويمة العماد  
 تجلي فيها العظمة والقوة . ولعوام النساء المسلمات اعتقاد في هذا الجامع  
 بانه يبرئ الاسقام فيحشدن امامه يوم السبت باطفالهن بقصد الشفا من  
 الامراض فبعضهن يضعن الطفل المريض تحت المحراب ويصلين وبعضهن  
 يمسحن جدار المحراب بالليمون او ما يشابهه وبلحسنة وغير ذلك من  
 الخزعبلات والخرافات

ولحسن حظ البلاد المصرية تحوت اميال قلاوون من الاهتمام  
 بامر حكومة البلاد الى مشغولية اخرى من جنسها . ذلك ان المماليك  
 وقتئذ كانوا يلبسون لباس الزينة بما يناسب جمالهم وهيشهم فامر قلاوون  
 سنة ٦٨٣ هـ بتغيير ملابسهم وكانت مشغوليته في هذا الامر طول السنه  
 سبباً لراحة البلاد مدة من الزمن وقد منع هؤلاء المماليك من استعمال  
 الذهب والتزين بالوشي وعن استعمال الضفاير الطويلة التي كانوا يجعلونها  
 في اكياس من حرير وجعل لباسهم قاصراً على شكل اللباس الحربي ثم زاد عدداً  
 كثير منهم في الجيش ولكن كل المماليك الذين اشتراهم لهذا القصد كانوا امن

الشر اكسه لانه كان يعتقد انهم يصلحون للجنديه فخذ منهم ١٢ ألف وجعل منهم  
بطانته وجيشه وذلك لعدم ثقته باخلاص المماليك البحرية وكان ذلك سبباً  
لخروج السلطنة من يد نسله مثل ما حصل للملك الصالح الايوبي ثم حاصر حصن  
مرقد مدة ٣٣ يوماً حتى سلم وفي سنة ٦٨٤ هـ فتح قلعة الكرك وقبض على  
سلامش ثاني انجال بيبرس لانه كان يحاول الاستقلال عن مصر وسجنه  
في سجن مظلم ظل فيه حتى مات قلاوون

ولما ارتاح قلاوون من تنظيم داخلية اخذ يسمي في تشكيل وزارة مخصصة  
له فصار يعزل ويولي كثيراً من الوزراء حتى ان المؤرخين المعاصرين له لم  
يتمكنوا من حصر اسمائهم وأخيراً أقر على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥ هـ  
وفي سنة ١٢٨٦ مسيحية (٦٨٥ هـ) ارسل الملك عدود الذي كان يحكم اقصى  
جنوب السودان وفداً الى سلطان مصر يشكو له من تابعه الملك شكندر  
سلطان النوبة الجديد ولكنه لم يبين السبب الحقيقي في هذه الشكوى وفي  
الغالب ان تلك الشكوى كانت ناتجة من اغارة وغزو شكندر للمملكة  
الجنوبية للحصول على الرقيق حتى يتمكن من تسديد الجزية السنوية  
المطلوبة للسلطان المطلق وهو سلطان مصر الذي سر لهذا الخبر واتخذ  
فرصة سانحة فأرسل مع سفراء الملك عدود ضابطاً بصفته سفيراً و جاسوساً  
وسافر الجميع على هذه الصورة وكان الملك شكندر مترقباً عودة ذلك  
الجاسوس من الجنوب . ولو ان حرس ذلك الضابط والجاسوس المصري  
داروا به في طريق عودتهم الى الشمال دورة كبيرة حتى لا يمروا بطريق

تقبله مقر الملك شكندر ولكنهم مع ذلك التي القبض عليهم جميعا واحضروهم  
 دنقله . فامر شكندر باعدامهم في الحال ولكن اشراف حكومته  
 مشيريه عارضوا في ذلك معارضة شديدة واقروا على اعتباره مختل  
 شعور اذا اصر على ذلك الامر وافهموه ان السلطان قلاوون لا يهمله موت  
 عايا الملك عدود ولكن قتل سفيره المسلم بتخذه حجة عظيمة لشن الغارة  
 بلاد النوبة التي هي مطمح اتظاره

فلما اصر شكندر على عناده وصمم على تنفيذ امره خلعوه وولوا بدله  
 شامون ملكا عليهم وسمحوا للجاسوس المصري وحرسه ان يسافروا  
 الى مصر . ولكن ذلك لم يحول غرض قلاوون ولم يثن عزمه عن  
 فتح النوبة فجد جيشا عظيما وارسله ليغزوها ولما علم شامون بذلك اتبع  
 فطة واحده في حركاته الحربية وذلك انه كتب الى نائبه في الاقليم الشمالي  
 عند قدوم الجيوش الاسلاميه لا يقف في وجهها بل يخلى لها البلاد  
 ترك قليلا من الجند طعمة للاسلام وبهذه الطريقة دخل المايك المصريون  
 السودان بلا حرب حتى وصلوا الى دنقله حيث كان ينتظرهم شامون  
 تال فوقت معركة بينهم وبينه هزم في آخرها ثم ولى الفرار الى الصحراء  
 اقصى السودان فاختار المايك ابن اخته واقاموه ملكا على النوبة تحت  
 ط ان يكون خاضعا لسلطان مصر ثم عادوا الى مصر يحملون غنيمة  
 ليمه من قطعان الغنم والمواشي

ولم يكدي بارح المايك حدود البلاد السودانيه حتى عاد شامون واستقبله

رعاياه بفرح عظيم وطرده ابن اخيه الملك الجديد الذي تعهد بالخضوع  
 لسلطان مصر واقصاه الى خارج البلاد مع الحامية المصرية  
 تركها الامراء المماليك في دنقله . فلما سمع قلاوون برجوع شمامون الذي  
 لم يكن منتظراً هاجهياجا شديداً وجيز حملة قوية لتهرب بلاد النوبة  
 وضربها ضربة قاضية . فجمع كل ما لديه من الرديف (وهو لقب يط  
 على جزء من الجيش المصري .) ورجال هذا النوع هم من الملكيين ويست  
 تحت السلاح . وهؤلاء الرجال من المسلمين ويمتازون عن المماليك بط  
 زمن وجودهم في مصر حتى تجنسوا بالجنسية المصرية واطلقوا علي لقب  
 لقب المصريين

فبعد ان جمع قلاوون هؤلاء القوم استأجر معهم اربعين  
 . متطوعاً من قبائل العرب الضاربة في الاقاليم الشماليه وضم الى ذلك  
 جيشه المنظم الذي يتألف من المصريين والمماليك والسودانيين وسار  
 الجيش الخليط العرمرم زاحفاً مرة اخرى لفتح بلاد السودان فوط  
 دنقله واقاموا فيها ملكاً جديداً اخذوه معهم من القاهره حيث كان  
 فيها وهو ابن اخت داود ملك النوبه السابق السيء السياسه وكان  
 الملك الجديد احد امراء ومشيري الملك داود فسقط اسير في يد المسلمين  
 بسقوط عرش داود وظل سجيناً في مصر حتى اتاح له الدهر الجلوس  
 على عرش الملك فلما اقامه المسلمون ملكاً على دنقله . استخلفوه  
 الطاعه والخضوع لسلطان مصر في وسط كنيسة دنقله الكبرى وتر



ية بتلك المدينة وعادرا الى القاهرة بعد ستة شهور . فلما بارحوا  
 رود عاد شمامون فظهر بدنقلة ثانياً وخضعت البلاد في الحال لامره  
 وردوا الحاميه المصريه الى حدود مصر الجنوبيه ولم يترك شمامون هذه  
 ملك النوبيين الاسمي يتمتع بحياته بل قتله . فلم يقو قلاوون على  
 حمله ناكه للنوبه ضد ذلك الملك المسيحي السوداني فحكم شمامون  
 مملكة النوبه بسلام حتى مات

واوصى قلاوون بولاية العهد لابنه علي ولقبه بالملك الصالح الثالث واخذ  
 على الاحكام ولكن خانه الدهر فتوفي عليا بحمي شديد سنة ٢٨٧  
 ابنه عليه حزنا عظيما وكثرت هواجسه وكره الملك والاحكام  
 بعد ذلك طويلا . وقد اراد ان يسلي نفسه فعزم على تسير حمله  
 طراس الشام وكانت في حوزة الصليبيين منذ مائة وثمانين سنة  
 ففتحها ففتحها واعتراه جنون في اثناء الحرب بسبب حزنه  
 فلما اتم جيشه فتح طراس امر بدمج كل سكانها وهدم جميع  
 اثارها وخربها عن اخرها ثم اعاد بناءها وترك فيها حاميه مصريه وهذه  
 كانت آخر كباثره وعاد بعدها بجيشه الى القاهرة حيث جاء وراءه  
 بقليل وفد من قبل اراغون الفونس ملك الصليبيين وعقدوا معه  
 في ربيع الاول سنة ٦٨٧ هـ

ولكن ذلك الانتصار لم يؤثر على عواطفه وظل حزينا كئيبا حتى  
 يوم السبت ٦ ذي القعدة سنة ٨٨٦ فدفنوه في بيارستانه ولا

يزال مقامه هناك حتى اليوم وكانت مدة حكمه ١١ سنة و ٣ شهور  
و ٦ أيام

وبويع بعده ابنه الكبير صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف  
وبعد استلامه الملك بسنة اي سنة ١٢٩١ مسيحية ( ٦٩٠ هـ ) جرد  
قوية ضد الصليبيين واخذ منهم مدينة عكا التي كانت الحصن الوحيد  
الباقي بيد الصليبيين فحاصروه تحصيناً عظيماً ولكنه لم يقو على هزيمة  
المسلمين فهزموه ودخلوا المدينة وقتلوا ونهبوا كل سكانها وعاد صلاح  
الدين الى مصر ومعه علامة النصر وهي مدخل احدى كنائس  
الكبرى وهو موجود الى يومنا هذا بشارع النحاسين بالقاهرة وموضوع  
في مدخل جامع اخيه نصر بن قلاوون وقد بنى هذا السلطان في  
حكمه القصيرة السوق المشهور بخان الخليلي في السكة الجديدة بالقاهرة  
الذي يتهافت السواحون على مشاهدته وهو مبني في موضع مد  
الخلفاء الفاطميين وبنى النوري القسم العلوي منه كما يستدل من الك  
التي على مدخله

ولما عاد الى القاهرة تقي سلامش للقسطنطينية لما عزى اليه  
القتال ثم سار ففتح ارمينيا ونهبها واخذ مدينة ارضروم  
وبعدته الى القاهرة ثانياً بعد ذلك النصر قام اضطهاد عظيم  
الاقباط الذين اظهروا من آيات الصبر على المكاره اقل كثيراً مما ظ  
منهم في اي عصر من تاريخهم ولكن مهما كان مقدار خطاهم بالا

في العصور التي تقدمت فان اصحابه قد رجحت قوى بسالتهم اليكامة  
الى الظاهر وتمسكوا بتلك البسالة حتى يومنا هذا بالرغم عن ضعفهم والدليل  
على ذلك رسمهم (١) اشارة الصليب بالوشم في اجسامهم لكي يظهر  
بكل قوام عدم انكار دياتهم المسيحية

ولكن من ابتداء عهد البطريك كيرلس الثالث ( داود المرذول )  
اعتري اخلاق المسيحيين المصريين صنوف التلف والفساد السريع اذ  
اصبحت حوادث الجحود وترك الايمان كثيرة متسابعة بعد ان كانت نادرة  
الوقوع حتى صار الاقباط الموظفين في دوائر الحكومة جميعاً من المسيحيين  
بالاسم كما تدل على ذلك حالتهم الراهنة في هذه الايام وقد أسوأ استعمال  
السلطة المعطاة لهم كما سترى من اسباب هذا الاضطهاد

نشأ ذلك الاضطهاد بسبب مشاجرة وقعت في احد شوارع القاهرة وسببها  
ان قبلياً كان موظفاً بوظيفة قهرمان عند احد كبار الامراء المماليك  
وكان راكباً وقابضاً على رجل مسلم مديون لسيدة الامير وكان هذا المديون  
ماشياً على الارض على مقربة من القهرمان القبلي وهو مكتوف اليدين  
الى ظهره وبينهما سائران بهذه الحالة والناس مجمعة حولهما طول

(١) هذا الرسم أو بالحري الوشم لا يستعمل عند الاقباط في سن الطفولية بل عند  
ما يكبر الابن ويصير عارفاً هذا الوشم ويقبله برضائه يسمح له والديه بذلك . وعند  
الاقباط ايضاً حديث قديم موداه ان البلاد المصرية استخلص يوماً من نير  
الاسلام بواسطة قوة مسيحي الجنوب ( الحبشه ) وان هذه العلامة أي وشم  
الصليب على اجسادهم سيكون واسطة تمييزهم من المسلمين امام الفاتحين

الطريق يتفرجون على ذلك المسلم الذي صار اسير القبطي حتى وصلاً امام جامع  
 ابن طولون فاحتشد حولهما خلق كثير من المسلمين واخذ كل واحد منهم  
 يطلب من القهرمان (١) أن يطلق سبيل ذلك الاسير فلم يجب طلبهم  
 فما كان منهم الا ان التفوا حوله وجذبوه من أعلى جواده والقوه  
 على الارض واتخذوا الاسير المسلم من بين يديه واطلقوا سبيله . وحسن  
 حظ هذا القهرمان أن هذه الواقعة جرت له بالقرب من بيت سيده  
 الامير فانهز هذه الفرصة وارسل خادمه للامير ليبادر الى اتقاذه من  
 ايدي المعتدين عليه فخرج الامير في الحال بشرذمة من مماليكه وعبيده  
 وحرسه فخلصوا قهرمان الامير من ايدي ذلك الجمع المحتشد بعد أن فرقوا  
 شملهم ضرباً بالعصي . فصاح هولاء القوم (هذا ليس في شرع الاسلام !  
 هذا ليس في شرع الاسلام ! ) ثم اسرعوا ركضاً ووقفوا تحت القلعه  
 يصيحون قائلين (الله ينصر السلطان ! الله ينصر السلطان ! ) فسمع السلطان  
 ضجيجهم وارسل يستطلع حقيقة خبرهم فابلغوه ما كان من غطرسة  
 وتشاخيخ القهرمان القبطي وهو يقود مديون سيده الامير الى آخر ماتم  
 في هذا الشأن

فكتب السلطان صلاح الدين خليل في الحال الى الامير عين الغزال  
 وهو سيد القهرمان القبطي يقول (كيف تسمح لرجالك أن يعاملوا المسلمين

(١) القهرمان لقب وظيفه عند الشرقيين هي بمثابة نائب أو مدير أو امين  
 الخزينة أو وكيل الخرج

بهذه المعاملة اكراما لخاطر رجل نصراني (فرد عين الغزال على السلطان يعتذر  
 بعدم معرفة هذه الحادثة وانه عند وقوعها كان مشغولاً في ديوانه  
 فارسل السلطان في الحال يبحث عن كل الذين في سراي عين الغزال وامر  
 رجاله ان يستحضروا كل الاقباط امامه واستقدم ايضاً رئيس وزراءه  
 الامير بدر الدين بيدر والامير سنجر الشجاي محافظ القاهرة وامرهما  
 ان يستحضرا امامه كل المسيحيين ليأمر بقتلهم ولم يخرج الامير ان من  
 حضرة السلطان قبل ان حرضاه على تنفيذ ذلك العزم وحمله على اصدار  
 الامر النهائي بذلك واطلق رجال الحكومة المنادين في القاهرة ومصر  
 القديمه بانه لا يسوغ منذ الان ان يبقى مسيحي او اسراييلي في خدمة الامراء  
 وامر السلطان امرأه ان يجبروا من بقي في خدمتهم من النصارى واليهود على  
 اعتناق الدين الاسلامي فمن قبل من وكلاءهم (قهر ماناتهم) المسيحيين هذا  
 الشرط يبقى في مركزه ومن يرفض تقطع رأسه في الحال وامر ايضاً الحاكم  
 الامير بدر النائب ان يعامل موظفي الحكومة الاقباط هذه المعاملة.

ولما صدر الامر بالقبض على الاقباط لقتلهم امام السلطان اختفي  
 كثير منهم في الكهوف والمغارات ولكن المسلمين كانوا يهجمون عليهم في  
 منازلهم قبل هروبهم فيسوقونهم للقلعة بعد نهب ما في بيوتهم ولما عم امر  
 النهب والسلب كل بيوت المسيحيين واليهود على السواء ولم يبق بيت  
 واحد لم تصل اليه ايدي السالين اخذوا يسبون النساء وقتل المسلمون بايديهم  
 خلقاً كثيراً من الاقباط قبل وصولهم لموضع القتل امام السلطان فاستأ

الحاكم يدري النائب من هذا التصرف الجائر فصعد للسلطان في القلعة ولاطفه  
واثر عليه حتى استصدر منه امراً اذاعه في مصر ومؤداه ان كل من ينهب  
بيت مسيحي لا بد من اعدامه شقياً امام ذلك البيت وقد قبض علي كثيرين  
من زعانف المسلمين الذين تمادوا في السلب والنهب وامر بضر بهم وجلدهم  
بالسياط وداروا بهم في المدينة ليكونوا عبرة لغيرهم وبهذا الحزم وهذه المرؤة  
التي اتاها ذلك الامير كف السلب والنهب ولكن بعد ان كانت قد نهبت  
كنيسة المعلقة في مصر العتيقة ( بابلون ) وقتل عدد عظيم من الاقباط البؤساً  
ثم استحضر الحاكم عددا عظيماً من قهرمانات ( وكلاً ) السلطان والامراء  
واوقفهم امام السلطان علي بعد منه - فامر السلطان الشجر والامير جندار  
ان يأخذوا موظفي الاقباط وينزلوا بهم الى سوق الخيل تحت القلعة ويحفروا  
لهم حفرة عميقة ويلقونهم فيها احياناً ويشعلوا النار في تلك الحفرة . فاتي  
رئيس الوزراء الامير بدر الدين يتشفع لهم امام السلطان واخذ يتضرع  
اليه ليصدر عفوه فلم يقبل السلطان توسلاته وقال ( انا لا اود ان ابقى ديواناً  
مسيحياً في حكومتي ) علي انه لم يخرج الامير من حضرة السلطان الا بعد  
ان ابدل ذلك الحكم بحكم آخر وهو ان كل من يعتنق منهم الديانة الاسلاميه  
ويعني عنه ويبقى في وظيفته ومن رفض منهم الاسلام فتقطع رأسه فقبل  
السلطان بذلك

ومن ثم خرج الامير ومعه هولاء القوم وذهب بهم الى بيت محافظ  
القاهرة ( مسكنه الرسمي ) وصفحهم امامه ووقف يخطب بينهم فقال ( اعلموا

ياقوم اني لم يمكني التشفع لكم امام جلاله السلطان وطلب العفو عنكم منه الا  
على شرط واحد وهو هذا ان من يفضل منكم ديانته على الدين الاسلامي  
القوم فعقابه الموت التوأم . ومن منكم يفضل الاسلام على دين النصارى  
فيخلع عليه جلاله السلطان حلة شرف وينال محظوظيته ويعيش في عز ونعيم مقيم)  
ولما فرغ الامير من هذا الخطاب تقدم المكين بن الشكاي احد رؤساء  
الحكومة وكاتب اسرارها من الاقباط وقال يا مولاي اي رجل مناذو  
منصب عال يفضل الموت عن اعتناق الدين القويم ؟ فقسم بالله - ان  
الديانة التي يلزمنا ان نموت ونفني لاجلها - لم يكتب الله عليها سلاوة !!  
فاخبرونا - انت وجلالة السلطان - اية ديانته تريدون ان نتخبها  
فتبسم بدر الدين وقال يا حضرة الفاضل واية ديانته يلزم ان نتخبها غير  
الديانة الاسلاميه؟

وفي الحال دخل رجال التسجيل الشرعي وسجلوا اسماءهم باعتنائهم  
الديانة الاسلاميه وحرروا صك الشهادة باسلامهم فاخذها بدر الدين وتوجه  
في الحال الى السلطان ومعه هولاء المستسلمين فخلع عليهم السلطان حلة الشرف  
الثمينه وخرجوا الى ديوان الوزير صاحب شمس الدين محمد بن سيلوس  
فطلب احد الموجودين عند الوزير من المكين ابن شكاي ان يأخذ رقعة من  
الورق وامره ان يكتب عليها هكذا ( سيدنا القاضي - اكتب على هذه  
الورقة حجة اسلامي) - فاجابه القاضي قائلا يا ابني ليس لنا ان نبت في هذا  
الامر) فلم يخرجوا من ديوان الوزير حتى المسأخضر الحاجب وقادهم جميعاً

الى ديوان المحافظة حيث كان كل قضاة الاسلام مجتمعين - فوقف هؤلاء  
 الروساء الاقباط امام القضاة وجددوا اعترافهم باعتناق الدين الاسلامي  
 وهكذا تغيرت الاحوال وبعد الذل والهوان اصبحتوا باعترافهم الاسلام  
 في احترام ووقار واخذوا يهينون المسلمين ويحتقرونهم بعد ان تربعوا في دست  
 وظائفهم الاولى فضغطوا عليهم بشدة الى درجة لم تكن الديانة المسيحية  
 تسمح لهم باتباعها (١) لانهم لما كانوا من المسيحيين لم يكونوا يتجاسروا ان  
 يضغطوا على أحد من المسلمين اما وهم الان من المسلمين فقد اطلق لهم العنان  
 واصبحوا احرارا في كل ما يفعلون

ووقع السلطان صلاح الدين في ما وقع فيه من تقدمه من السلاطين  
 المماليك بعد الحوادث المتقدمة بقليل اذ ان احدى نساء تواطأت مع مملوك  
 له يدعى بيدرا فقتلاه بخنجر في شهر محرم سنة ٣٢٦ هـ بعد أن حكم ٣  
 سنوات وشهرين و٤ أيام وذلك على أمل ان يخلفه ذلك الامير القاتل  
 في ملكه

فبويغ بيدرا ولقب بالملك القاهر ولكن مماليك قلاوون اخذوا بثار  
 سلطانهم فقتلوا بيدرا في اليوم الثاني ولم يتمتع بلقب سلطان الا يوما واحدا  
 وبايعوا بعده اخو الملك الاشرف المدعو محمود وهو ثاني انجال قلاوون وكان  
 سنه تسع سنوات ولقبوه بالملك الناصر على ان يكون سلطانهم الاسمي  
 فقط نظرا لصغر سنه وسلموا مقاليد الاحكام الى وصي عليه منهم يدعى زين

(١) نقل عن المفريزي (ترجمة مالان المورخ الفرنسي ساوي)



الدين كتبوغا الملقب بالمنصوري لانه كان من مماليك الملك المنصور فلاوون  
ولما ولي الاحكام تاقت نفسه الى الاستقلال بالسلطنة فقتل اعم خصمه وهو  
احد المماليك الذي كان وزيرا واسمه علم الدين سنقر وخلق الملك الناصر  
الطفل وسجنه في قلعة الكرك وخلاله الجوفنادي بنفسه سلطانا وكانت مدة  
حكم الملك الصغير سنة واحده فقط

اغتصب كتبوغا الملك فبايعوه في محرم سنة ٤٩٦ هـ ولقب بالملك العادل  
مثل لقب سلامش ابن بيارس الاول واستوزر فخر الدين ولكن تراكت  
المصائب على البلاد في بحر السنتين اللتين حكم مصر فيها حيث تفشي الطاعون  
والقحط على ايامه واهلك خلقا كثيرا من السكان واحتلت البلاد طائفة الاويراتيه  
فأحدثت مشاكل كثيرة في مصر وتكاثرت في البلاد ووقعت مخاصمات  
بينهم وبين الامراء كانت سببا في خلع الملك العادل كتبوغا في صفر سنة ٦٩٦ هـ  
وبويع بعده مملوك اخر مثله يدعى حسام الدين لاچين المنصوري ولقب بالملك  
المنصوري مثل سيده فلاوون وكان من اصل جرمانى فقتل زعماء طائفة  
الاويراتيه وبدد شمل الباقيين منهم ونقى كتبوغا الى البلاد السورية واستولى  
على ريع الاقطاعات التي كانت مخصصة للجند وهي تحت تصرف الامراء  
خفدوا عليه وقتلوه في ١١ ربيع اخر سنة ٨٩٦ هـ ولم يحكم الا مسدة سنتين  
مثل كتبوغا

وظل كرسي السلطنة خاليا نحو اربعين يوما لما وقع بين المماليك من التخاصم  
والتحاسد على الملك فتمكن احد المماليك المدعو الامير سيف الدين طقجي

من دعوة الناس الى حربه فبايعوه ولقبوه بالملك القاهر مثل يدرا فكان  
 حظه مثله تماما اذ قتله الامراء بعد ان تمتع بالملك يوماً واحداً كما فعلوا مع سميح  
 ثم اتحد المماليك واقروا على استدعاء الملك الناصر من منفاه وكان قد بلغ  
 عمره ١٥ سنة فارتسلوا اليه وفداً في قلعة الكرك وكانت امه معه فلم تسمح بسفره  
 مع الوفد خوفاً من ان المماليك ربما كانوا يقصدون اغتيال حياته تحت هذه  
 الخدعة فاكذبوا لها صدق دعوتهم وجثوا امام ابنها وبايعوه فتأكدت من  
 اخلاصهم فجاءوا به الى القاهرة وقد اراد احزاب لا جين ان يقتلوه فهددتم  
 الامراء والزمواهم بمبايعته وبايعوه وحكم نصر ابن فلاوون مرة ثانية على  
 مصر فلما استتب له الملك حارب التتر ثانية في سوريا سنة ٧٠٠هـ وبعد ان ضربهم  
 ضربة قاضية عاد ظافراً ودخل القاهرة من باب النصر باحتفال عظيم  
 وعلى اثر عودته رأى ان قبائل العربان في مصر قد شقوا عصا الطاعة فجرد  
 عليهم جيشه وهزمهم واغتم منهم خمسة الاف فرس ومائة الف رأس من  
 الغنم و٣٠ الف من البقر والجاموس غير الاسلحة والمعدات الكثيره  
 نظره عمومية

وفي أثناء حكم الملك الناصر ابن فلاوون للمرة الثانية ذاعت البلاد عذاباً اليماً  
 وصادفتها ظروف مرة بسبب معاكسة الطبيعة من جهة وضغط الاحكام الظالمة  
 من جهة اخرى (١) . ومما حدث عن هذا القبيل ان اثناسيوس بطريرك

(١) في اول سنة من حكم الملك الناصر ثاني مره هطل مطر غزير جدا من سفج جبل المقطم  
 فخرّب القبور وملاها بالماء .

الكنيسة اليونانية في مصر هجر مركزه وهرب للقسطنطينية ويوحنا  
 بشاريرك الاقباط توفي في السنة التي احس فيها كتبوغا عرش الملك واسلفه على  
 الكرازة المرقسية ثيودوسيه رتبة من امره انه كان فرنجيا وربما  
 كان من سلالة اسرى الفرنسيس اخذوا ايام غزو سنت لويس ملك  
 فرنسا وفي مدة الست سنوات التي قضاهها على الكرسي الرقسي ارتاح  
 الاقباط فيها من اضطهاد المسلمين ولكن خبا لهم الدهر اياما اردا وظروفا  
 انحس مما مر عليهم بكثير فمن المصائب الطبيعية انه تفشى الطاعون البقري (١)  
 والادمي والقحط والزلازل (٢) وماتت مئات من السكان والوف من الماشية  
 وقد عزي الملك الناصر ابن فلاوون حلول المصائب وتراكم الارزاق على  
 بلاده في اول سني حكمه الثاني الى المسيحيين من سكان مملكته لتصرفهم الغير  
 مرضي ولكن هذه حجة واهية وربما كان يقصد بذلك تشاؤمه من وجودهم  
 في سلطنته كما وسوس اليه قاضي قضاة الاسلام الذي كان ابن احد المسيحيين  
 وقد ترك دينه واعتق الاسلام فارقتي لهذا المنصب وكان يكره الديانة المسيحية

(١) في تلك السنة ازدادت وطأة طاعون الموشى في مصر فلم يبق منها الا العشرات  
 والدليل على ذلك ان احد اهالي اشمون طنا كان يمتلك الف وواحد وعشرين رأس  
 من الماشية فلم يبق له منها الا ثمانية عشر فقط

(٢) حدثت في الشرق زلزلة قوية سنة ١٣٠٢ مسيحية خربت معظم بلاد سوريا  
 ومصر وفاقت مياه الابار والانح على سطح الارض وغرق خلق كثير وسقط  
 سيل جارف مطر غزير من منح جبل المقطم فخرّب القبور وامتلأت بالمياه وغرقت  
 كل المنازل التي تحت الجبل بمن فيها

كرها شديداً فكان يحمل على المسيحيين ودينهم ولا يترك فرصة للإيقاع بهم  
 وبالأجمال فان اول سني الحكم الثاني للملك الناصر كانت اشأم وانحطت  
 السنين بل واكثرها حزناً وويلاً من كل السنين التي تقدمتها في تاريخ الكنيسة  
 القبطية المصرية

وسترى في فاتحة فصول الجزء الرابع ما مر على الاقباط وكنيسة  
 من صنوف العذاب والخراب



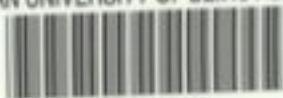
تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع

ع  
ا  
ك



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00512652

